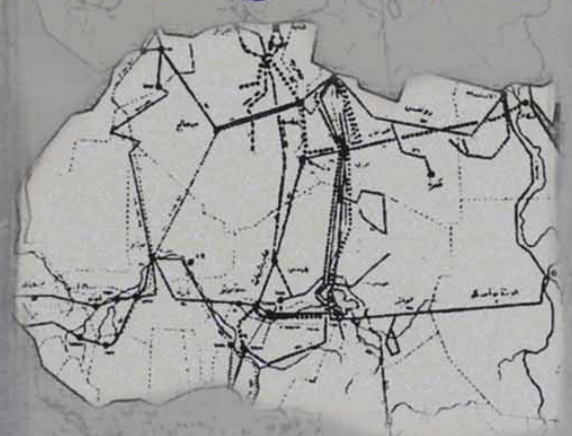
منشورات
المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية
سلسلة الدراسات التاريخية رقم (102)


جيمس ريتشاردسون
(1850م انجليزي)


إدوارد فوجل
(1853م ألماني)

طرابلس الغرب في كتابات الرحّالة

خلال القرن التاسع عشر الميلادي

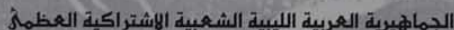


تأليف
الدكتور رجب نصير الأبيض
أستاذ مساعد
كلية الآداب ـ قسم التاريخ ـ جامعة الفاتح








الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

منشورات
المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية
سلسلة الدراسات التاريخية رقم (102)

طرابلس الغرب
في كتابات الرحّالة
«خلال القرن التاسع عشر الميلادي»

تأليف الدكتور

رجب نصير الأبيض

أستاذ مساعد

كلية الآداب ـ قسم التاريخ ـ جامعة الفاتح



الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى

2009

960.6 الأبيض، رجب نصير

أ 247 طرابلس الغرب في كتابات الرحّالة «خلال القرن التاسع عشر الميلادي»/ رجب نصير الأبيض ـ طرابلس: المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، 2009

384 ص، 17 × 24 سم: ـ (الدراسات التاريخية، 102)

1. ليبيا ـ تاريخ حديث ـ العصر العثماني ـ طرابلس الغرب ـ الأحوال الاقتصادية ـ الأحوال السياسية.

هذا التصنيف يخص مكتبة المركز

مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية

هاتف: 3331782 ـ 4446987 ـ 4446988 21 00218

ص.ب. 5070 فاكس: 3331616 21 00218

Website: www.libsc.org

البريد الالكتروني: www.libyanjihad@libsc.org

طرابلس ـ ليبيا

الطبعة الأولى

2009

رقم الإيداع: 987/ 2009

ردمك: ISBN 978 ـ 9959 ـ 23 ـ 187 ـ 1

دار الكتب الوطنية بنغازي

هاتف: 9090509 ـ 9096379 ـ 9097074

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

صدق الله العظيم

سورة الإسراء، الآية: 85



الإهداء

إلى أسرتي الكريمة

تحية مودة وحب وتقدير



شكر وتقدير

أتشرف بأن أتقدم بعميق الشكر والتقدير والامتنان إلى الأستاذ الدكتور محمد صابر عرب الذي تفضل مشكوراً بتولي الإشراف على هذا البحث وقد كان لمساعدته ورحابة صدره وتوجيهاته العلمية والمنهجية القيّمة أثر كبير في أن يرى هذا البحث النور، كما أتقدم بالشكر لمعهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية، ومعهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة، وكذلك مكتبة كلية الآداب، والمكتبة المركزية بجامعة القاهرة، ومكتبات جامعة عين شمس، ومكتبة جامعة الدول العربية بالقاهرة، والمكتبة المركزية بجامعة الإسكندرية، وجامعة الأزهر، ومكتبة كلية اللغة العربية بالدراسة، وإلى مكتب المتابعة العربي الليبي بالقاهرة، ومكتبة المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، وقسم التصوير والوثائق والمخطوطات، ودار المخطوطات التاريخية بطرابلس، والمكتبات بجامعة الفاتح، والمكتبة المركزية بجامعة قاريونس ببنغازي، ومكتبة كلية الدعوة الإسلامية.

وكذلك إلى كل من ساعدني وشجعني أسمى آيات التقدير والثناء، وإلى أسرتي الكريمة التي عانت معي مشقة البحث العلمي بسهره والتي ظلت تشد من أزري وتحرص على تهيئة الظروف المناسبة لإنجاز هذا البحث أهدي إليهما كل تقديري وعرفاني.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني

«اهتمام الرحّالة بطرابلس الغرب خلال القرن التاسع عشر»

الفصل الثالث

«التطور السياسي في ليبيا من خلال كتابات الرحّالة والمصادر المحلية»

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع

«النشاط الاقتصادي في ليبيا وروافده»

الفصل الخامس

«البنية الثقافية والاجتماعية في طرابلس الغرب ومظاهرها»

المقدمة

لقد شكل حوض البحر المتوسط محوراً للتواصل الحضاري بين قارات العالم القديم منذ العصور القديمة والوسطى حتى العصور الحديثة، حيث تفاعلت في إطاره الحضارتان العربية الإسلامية والغربية تأثيراً وتأثراً في مجالات شتى سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية. ومنذ نهاية الوجود العربي الإسلامي في الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، تصاعد المد الاستعماري الأوروبي وحركة الكشوف الجغرافية التي نجم عنها اكتشاف العالم الجديد والوصول عبر رأس الرجاء الصالح إلى الهند وجنوب شرق آسيا. كما حاولت الدول الأوروبية الاستعمارية مد سيطرتها على الموانئ العربية الإسلامية المطلة على الحوض الجنوبي للبحر المتوسط، مما أدى إلى دخول العثمانيين في حلبة الصراع للذود عن حياض الإسلام، وبالتالي أصبحت دول الشمال الأفريقي ما عدا المغرب الأقصى في حظيرة الدولة العثمانية.

ومنذ مجيء العثمانيين إلى طرابلس الغرب في عام 1551م وحتى الغزو الإيطالي في عام 1911م، ظلت طرابلس الغرب حلقة وصل ليس بين أقطار الشمال الأفريقي، الأخرى فحسب، بل بينها وبين مناطق ما وراء الصحراء. فقد تطورت علاقات ليبيا ببلاد السودان الغربي والأوسط، لا سيما أن أبناءها تراكمت لديهم معرفة واسعة بمسألة الصحراء الكبرى ودروبها وطرقها، الأمر الذي ساعدهم على التواصل مع تلك الجهات وإقامة بيوتات ووكلاء تجاريين يروجون لبضائع وسلع حوض البحر المتوسط والشمال الأفريقي وكانت الواحات الليبية ومنها مرزق وغدامس وغات وجالو جسراً للتواصل البشري والاقتصادي

على جانبي الصحراء وخاصة خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

والجدير بالذكر أن سكان موانئ ليبيا الواقعة على حوض البحر المتوسط وواحاتها ظلوا عبر العصور أكثر معرفة بالدواخل الأفريقية من حيث طبيعتها ومعطياتها المناخية ومسالكها وسكانها ومدنها واقتصادياتها ونظم بلدانها ولذا، كانت ليبيا المحور الذي ينطلق منه كل من يرغب في اجتياز الصحراء، بغية الوصول إلى بلاد السودان الغربي والأوسط، وهو الأمر الذي أدركه معظم، الرحّالين الأوروبيين، لا سيما أولئك الذين تلقوا دعماً من الجمعيات الجغرافية والمؤسسات العلمية والدوائر الاستعمارية. والمعروف أن معظم الأوروبيين كانوا يجهلون دواخل القارة حتى العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر الميلادي الذي بدأت فيه بعض الجهات الأوروبية تتطلع إلى التوغل في مناطق ما وراء الصحراء والساحل. وعليه، قامت بعض الدوائر الأوروبية بدعم جهود عدد من الرحّالين الأوروبيين لتنظيم رحلاتهم الاستكشافية وكتابة تقارير حول مشاهداتهم، وقد أسهمت المعلومات المضطردة في كثافتها حول المعطيات الطبيعية والبشرية والنظم السياسية والاقتصادية في فتح باب التكالب الاستعماري الأوروبي على القارة الأفريقية.

وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تجهل الكثير عن القارة الأفريقية إلى درجة أن بعض المؤرخين الأوروبيين زعموا أن أفريقيا لا ماضي لها ولا تاريخ وأن تاريخها يبدأ بمجيء الرجل الأوروبي إليها، كانت دواخل هذه القارة معروفة لدى المؤرخين والجغرافيين العرب في العصور الوسطى، من أمثال الإدريسي وابن حوقل والبكري وابن بطوطة وابن فضل الله العمري وابن خلدون والمقريزي وغيرهم، حيث خصوها في مؤلفاتهم بفصول أو فقرات طويلة تعرف بها وبأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية الثقافية، الأمر الذي استفاد منه الأوروبيون، فيما بعد وقد شكلت هذه المعلومات القيمة على مدى قرون طويلة ركيزة أساسية في معرفتهم عن دواخل القارة في مرحلة ما قبل عهد الرحلات الأوروبية.

وتعتبر بريطانيا من أوائل الدول الأوروبية التي عمدت إلى تبني دعم جهود الرحّالين الأوروبيين للوصول إلى دواخل القارة وكشف ما تزخر به من خيرات ومواد خام لتمويل الحركة الصناعية الأوروبية ومما دفعها إلى ذلك استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن بريطانيا في عام 1776م، حيث فقدت قاعدتها الاقتصادية هناك، وكان لا بد من بديل يوازن إلى حد ما هذا الخلل الذي تعرضت له فوجدت في أفريقيا المجال الرحب لتوسعها السياسي والاقتصادي ولذا، قامت بريطانيا في عام 1778م بتأسيس جمعية لدعم دراسة دواخل القارة. كما أسست جمعيات جغرافية تهتم بدراسة القارة الأفريقية، إذ حشدت لهذا الغرض عدداً كبيراً من الرحّالين والمغامرين لتقديم صورة دقيقة عن الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لمناطق الدواخل الأفريقية، وبالتالي تصاعد مد ما يسمى بالرحلات الاستكشافية وأن ما لقيته تلك الرحلات الاستكشافية من تشجيع وتخطيط ومتابعة، جعلت أوروبا وفي مقدمتها بريطانيا قادرة في أقل من قرن على تقييم أوضاع القارة الأفريقية وتحديد مناطق نفوذ الدول الأوروبية فيها توطئة لاقتسامها ومباشرة احتلالها، وفقاً لقرارات مؤتمر برلين (1884 - 1885م).

إن معظم الرحلات التي توجهت إلى الدواخل الأفريقية انطلقت من مدن الموانئ الليبية وسلكت الطرق المتوجهة منها جنوباً نحو بلاد السودان واستراحت في محطاتها وواحاتها وشملت مشاهداتها في الأراضي الليبية بالوصف، وهذا ما وفر معلومات كشفت النقاب عن جوانب هامة من تركيبة البنية الاقتصادية والاجتماعية في ولاية طرابلس الغرب. وعليه يسعى هذا البحث إلى تقييم هذه المعلومات لمعرفة مدى تكاملها أو تعارضها مع ما ورد في المصادر المحلية الليبية، سعياً لاستكمال الرؤية التاريخية لموضوع الدراسة.

تهدف هذه الدراسة للتأريخ للبنية الاقتصادية والاجتماعية في ولاية طرابلس الغرب خلال القرن التاسع عشر الميلادي. فقد شهدت هذه الفترة انفتاحاً ملحوظاً في علاقات الولاية بالعالم الخارجي وبمنطقة ما وراء الصحراء. ويرجع السبب

في ذلك إلى أن عهد يوسف باشا القره مانلي (1795 ـ 1832م) قد وضع لبنة هذه العلاقات المذكورة التي تطورت في إطارها البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العربي الليبي ولذا، رأى الباحث أن يقدم دراسة تحليلية مقارنة مستفيداً من المادة المصدرية المتعلقة بالرحّالين الأوروبيين، فضلاً عن الاستفادة بما وفرته المصادر المحلية بالخصوص.

والجدير بالذكر أن تركيبة البنية الاقتصادية والاجتماعية في ولاية طرابلس الغرب خلال الفترة المؤرخ لها خضعت لمؤثرات داخلية نجمت عن العصبية القبلية التي كانت سائدة في المجتمع الليبي من جهة، والفوارق المادية والطبقية السائدة في المناطق الحضرية والبدوية من جهة أخرى، كما تأثرت تلك البنية بعوامل خارجية انعكست على واقع المجتمع الليبي وفي مقدمة هذه العوامل، التدخل الأوروبي في الشؤون الداخلية الليبية عن طريق قناصلها المعتمدين لدى بلاط باشا طرابلس، لا سيما القنصل البريطاني وارنجتون الذي كان له التأثير الفعال على سياسة باشا طرابلس الداخلية والخارجية. لقد كانت تركيبة البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الليبي عرضة للتأثر بظروف القحط والجفاف والصراعات الداخلية بأنواعها المختلفة، وبالضرائب التي كانت تفرضها حكومة الولاية على مواطنيها، كلما عانت ضائقة مالية من جراء شح مواردها في الجهاد البحري ضد أساطيل الدول الأوروبية التي كانت تأتي على مقربة من السواحل الليبية، فضلاً عن تباين دخلها من تجارة بلاد السودان وسلعها.

وقد أعطى الرحّالون الأوروبيون أمثال هورنمان وأودني ودنهام وكلابرتون وريتشاردسون وبارث ودوفيريه وورلفس وبويرمان وفون باري وناختيجال وميرشر وغروته وغيرهم صورة تاريخية واضحة عبر ملاحظاتهم ومشاهداتهم عن واقع البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العربي الليبي خلال القرن التاسع عشر ولذا، فإن كتاباتهم لا غنى عنها وهي ضرورية للاستفادة منها في موضوع الدراسة المعني، وخاصة أنهم كانوا يحرصون كل الحرص على التواصل لرسم صورة للواقع السياسي والاقتصادي وعلى رصد العديد من الظواهر الاجتماعية. وأما عن

الدراسات السابقة لموضوع هذا البحث تظل المصادر المحلية الركيزة الأساسية التي تعطي الموضوع تعبيراً تاريخياً هاماً، وذلك لأن هنالك لفيفاً من العلماء والكتّاب العرب الليبيين قد عاصروا فترة الدراسة وقدّموا معلومات موثوقاً بها، وبهذا حاول الباحث الاستفادة منها في تطوير وتحليل القضايا المطروحة في هذه الرسالة.

فكتابات الرحّالين الأوروبيين والمصادر المحلية كانت الأساس للمادة المصدرية لهذه الأطروحة، ومن ناحية الحدود المكانية للدراسة، فقد شملت ولاية طرابلس الغرب ساحلاً وداخلاً بمدنها وقراها وواحاتها، وأما تحديد القرن التاسع عشر بعداً زمنياً للدراسة، فإن هذا القرن شهد نشاط ظاهرة واهتمام الرحّالين الأوروبيين واتخاذهم الولاية نقطة انطلاق ومعبراً رئيسياً نحو مناطق ما وراء الصحراء، وبالتالي كانت كتاباتهم ومشاهداتهم حول المناطق التي زاروها أو مروا بها دقيقة عكست الواقع الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع العربي الليبي المؤرخ له.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة.

أما **الفصل الأول**: وهو بعنوان: «الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في طرابلس الغرب حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي»، يعطي لمحة جغرافية عن الأهمية الاستراتيجية لليبيا وأهمية الموقع الاستراتيجي وعلاقات ليبيا مع بلدان حوض البحر المتوسط ثم التواصل الليبي مع مناطق ما وراء الصحراء وكذلك ليبيا نقطة انطلاق للرحّالين الأوروبيين.

ويستعرض في هذا الفصل العهد العثماني الثاني وأبعاده. وينتقل هذا الفصل لدراسة التدخلات الأجنبية وتأثيراتها على البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الليبي وانعكاس ذلك على واقع بنية المجتمع الليبي وتركيبته.

ويتناول **الفصل الثاني**: اهتمام الرحّالة بطرابلس الغرب خلال القرن التاسع عشر، حيث يركز على دراسة ثلاثة محاور رئيسة هي:

1 ـ أهمية طرابلس الغرب الاستراتيجية لدى رحّالة القرن التاسع عشر، متمثلة في خبرة الليبيين بالطرق المؤدية لما وراء الصحراء وبأوضاع بلاد السودان وتجارة القوافل مصدراً للمعلومات عن دواخل القارة الأفريقية وأيضاً بداية اهتمام الأوروبيين بالرحلة عبر ليبيا وتأسيس الجمعيات الجغرافية الأوروبية وتطور الرحلات إلى أفريقيا.

2 ـ الرحالة إلى أفريقيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي.

3 ـ الرحالة إلى أفريقيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي.

ويأتي **الفصل الثالث**: لدراسة التطور السياسي في ليبيا من خلال كتابات الرحّالة والمصادر المحلية. حيث يركز على السياسة الداخلية ليوسف باشا القره مانلي وعلاقاته الخارجية وأبعادها الاقتصادية والاجتماعية ويهتم هذا الفصل بالأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى زوال العهد القره مانلي. كذلك الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية للعهد العثماني الثاني. ثم الثورات المحلية التي قامت خلال العهد العثماني الثاني من حيث أسبابها ونتائجها الاقتصادية والاجتماعية سلباً وإيجاباً وأخيراً الدور الذي قام به قناصل الدول الأجنبية في التأثير على القرار السياسي والاقتصادي لباشا طرابلس ونتائج ذلك.

ويركز **الفصل الرابع**: على النشاط الاقتصادي في ليبيا وروافده من حيث الجهاد البحري وموارده الاقتصادية. كما يتناول تجارة القوافل الصحراوية وكذلك سلع العبور وروافد هذه السلع سواء ما وراء البحر الأبيض أو الصحراء الكبرى. والتأثير الاقتصادي لتحويل تجارة الصحراء ودور الواحات الليبية ونشاطها في التجارة الداخلية والصحراوية ويعطي هذا الفصل اهتماماً لموضوع الزراعة وتربية الحيوان.

ويهتم **الفصل الخامس**: بتتبع البيئة الثقافية والاجتماعية في طرابلس الغرب ومظاهرها مركزاً على المؤسسات التعليمية أنواعها ومراحلها ثم دور رجال الطرق

الصوفية والمنارات العلمية في الحياة الثقافية وظروف المجتمع الليبي الصحية وثقافته في معالجة بعض الأمراض والأوبئة وكذلك الأنماط الاجتماعية السائدة في المجتمع الليبي ومظاهرها متمثلة في تركيبة المجتمع الليبي وعناصره ومراسم الزواج والختان والمآتم والاحتفالات الرسمية والدينية.

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب هو في الأصل رسالتي العلمية لنيل درجة الدكتوراه الفلسفة في التاريخ الحديث والمعاصر التي تقدمت بها إلى معهد البحوث والدراسات العربية جامعة الدول العربية بالقاهرة ونوقشت بتاريخ 16/ 6/ 2007 بإشراف الأستاذ الدكتور محمد صابر عرب أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الأزهر ومدير الهيئة العامة للوثائق والمخطوطات ودار الكتاب وعضويه كل من الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس، والأستاذ الدكتور أحمد زكريا الشلق أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس، ونالت مرتبة الشرف الأولى.

الفصل الأول

الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في طرابلس الغرب حتى مطلع القرن التاسع عشر

يركز هذا الفصل على إبراز الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مر بها المجتمع الليبي حتى مطلع القرن التاسع عشر. ويحاول أن يقدم دراسة تحليلية للعوامل والظروف التي حددت المسار التاريخي لهذا المجتمع، وذلك من خلال طرح جملة من النقاط الرئيسية ومعالجتها على النحو التالي:

1 ـ لمحة جغرافية عن ليبيا:

تتمتع ليبيا بموقع جغرافي استراتيجي فريد جعلها تكون أقصر مسافة من سائر أقطار الشمال الأفريقي الأخرى المطلة على البحر الأبيض المتوسط وأكثر اتصالاً بالمناطق الأفريقية الواقعة فيما وراء الصحراء الكبرى. ولذا، أصبحت بعض الواحات الليبية الداخلية ومراكزها التجارية حلقة وصل ما بين شمال القارة الأفريقية وبين بلاد السودان الأوسط والغربي.

وهناك عوامل ساعدت طرابلس الغرب على أن تكون البوابة الشمالية لدواخل القارة الأفريقية، خلال العقود الثلاث الأولى من القرن التاسع عشر. أولها: الأهمية الجغرافية؛ لأنها أصبحت جسراً يربط بين البحر الأبيض المتوسط وبلاد السودان الأوسط والغربي. وثانيهما: العامل السياسي؛ فوجود يوسف باشا القره مانلي على قمة السلطة في طرابلس الغرب (1795 ـ 1832) قد دعم أهمية طرابلس السياسية؛ لأنه تمكن من السيطرة على قوافل التجارة عبر الصحراء. وفي عام 1811م احتل فزان، وبالتالي أصبح الطريق المؤدي من طرابلس إلى بورنو تحت سيطرة يوسف باشا القره مانلي، وذلك منذ عام 1818م[1].

---

(1) Boahen, A. A.: Britain, The Sahara and The Western Sudan, 1788-1861, Oxford: Clarendon press, 1964. P. 45.

أ ـ أهمية الموقع الاستراتيجي:

تميزت ليبيا بموقع جغرافي استراتيجي فريد، حيث أنها تتوسط أقطار الشمال الأفريقي وتطل على سواحل البحر الأبيض المتوسط الطويلة، بحيث تمتعت بأن تكون حلقة الوصل بين المشرق العربي ومغربه[1]، وبالإضافة إلى ذلك، تشكل منطقة غرب ليبيا أقصر الطرق المؤدية إلى ما وراء الصحراء وأسهلها، وهي طرق تربط في الوقت نفسه بين موانئ البحر المتوسط وواحات فزان من جهة وبلاد السودان من جهة أخرى. ويعزو تفرد ليبيا بهذه الميزة الاستراتيجية أن سواحلها تمتد حوالي [500] خمسمائة كيلو متر جنوباً، مما جعلها أكثر مناطق الشمال الأفريقي قرباً لبلاد السودان الغربي والأوسط، فضلاً عن أنها لا توجد بها عوائق طبيعية، كما هو الحال بالنسبة لسلسلة جبال الأطلس[2] ويلاحظ أن مناطق الجنوب الليبي المتاخمة لمنطقة حوض تشاد تعاني من شح الأمطار وتعتمد الحياة فيها على الواحات التي يحترف سكانها الزراعة والرعي، بالإضافة إلى المبادلات التجارية في السلع المحلية وسلع العبور الأفريقية الوافدة من حوض البحر المتوسط. وكان لهذه الواحات دور بارز في النشاط التجاري بينها وبين بلاد السودان، وبالتالي صارت مركزاً لتسويق السلع السودانية وتوزيعها على الأسواق العربية والأوروبية[3].

وبما أن السواحل الليبية تمتد إلى ما يقرب عن ألف وتسعمائة كيلو متر، فإنها ظلت جسراً يربط ليس بين المناطق الواقعة على حافتي الصحراء الكبرى فحسب، بل أيضاً بين الوطن العربي وبين الأقطار الأوروبية الجنوبية من جهة

(1) أحمد صدقي الدجاني، أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، (طرابلس: دار المصراتي، د.ت)، ص89.

(2) Mark, F. Dyer: The Foreign Trade of Western Libya, Boston University, Graduate School, 1987, Unpulished Diss, P. 106.

(3) مصطفى بعيو، دراسات في التاريخ اللوبي، الأسس التاريخية لمستقبل لوبيا، الإسكندرية، مطابع عابدين، 1953م، ص168.

أخرى، وهو دور كانت له أهمية قصوى، في وقت الحرب والسلم[1]، ولم يخف الدور الاستراتيجي لليبيا وأهميته بالنسبة للأطماع الأوروبية الاستعمارية في الوطن العربي ومناطق ما وراء الصحراء. ولذا، تكالبت بعض الدول الأوروبية الاستعمارية على إيجاد مركز نفوذ لها في ليبيا، من خلال تنافس قناصلهم من أجل النفوذ والسيادة على مقدرات البلاد، وذلك بدءًا من مطلع القرن التاسع عشر الميلادي. وقد اتضحت أهداف هذا التكالب الاستعماري، منذ حملة نابليون الفرنسية على مصر في أواخر القرن الثامن عشر، وتصاعد مداه، في ظل ما يعرف بالرحلات العلمية والاستكشافية لدواخل القارة الأفريقية التي أصبحت ليبيا مركزاً لانطلاقها، لا سيما بعد استيلاء فرنسا على الجزائر سنة 1830م، وعلى تونس في عام 1881م، واحتلال بريطانيا لمصر في العام الذي يليه.

لقد برزت أهمية الشواطئ الليبية، منذ القدم فأتاح لها موقعها أن تتفاعل فيها تيارات حضارية قديمة وعريقة تميز بها حوض البحر المتوسط، وقد كان لهذه التيارات ومعظمها يوناني وروماني[2] تأثير كبير في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالنسبة للبلاد، ويلاحظ أن المنطقة الشرقية من ليبيا أو ما عرف باسم (برقة) لم تكن تبعد عن اليونان سوى بحوالي 210 ميلاً، فحين أن طرابلس الواقعة في الغرب لا تبعد عن صقلية، إلا بما يقرب عن 240 ميلاً فقط[3].

وبمجيء القرن السابع الميلادي، صارت ليبيا مركز انطلاق للفتح العربي الإسلامي حتى سواحل المحيط الأطلسي غرباً، وبالتالي تغلغل التأثير العربي الإسلامي لمناطق ما وراء الصحراء الكبرى جنوباً.

(1) Grothe, L. Hugo: Tripolitanien der krawanen Handel Nach dem Sudan Liepzig, 4 (1898), P. 7.

(2) L. H. Grothe, op. cit., P. 7.

(3) Ibid. P. 7.

لقد لعبت الشواطئ الليبية قديماً دوراً رائداً في التواصل الحضاري مع بلاد السودان، لا سيما في المجالين السياسي والاقتصادي والثقافي، ويتضح ذلك في أن المدن الخمس[1] التي أنشأها الإغريق في برقة والمدن الثلاث[2] التي أسسها القرطاجيون في غرب ليبيا قد اعتمدت جميعها على تجارة العبور وتبادل السلع السودانية [3].

فقد فطنت القوى الاستعمارية المتمثلة في بريطانيا وفرنسا إلى موقع ليبيا الاستراتيجي الذي أتاح لها أن تكون بوابة أفريقيا لمناطق ما وراء الصحراء، بحيث أنها رأت أنه لا يمكن تحقيق مصالحها السياسية والتجارية في تلك المناطق إلا عن طريقها[4] وهذا أمر بديهي، نسبة لأواصر العلاقات القديمة التي ربطت ليبيا بتلك النواحي، الشيء الذي لم تحظ به كل من تونس والجزائر، بسبب أن غالبية واحاتها ومراكزها التجارية أقل ازدهاراً وأكثر بعداً من الواحات الليبية[5].

وكان للواحات والمراكز التجارية الليبية الداخلية دور كبير في تنمية العلاقات الاقتصادية والحضارية مع بلاد السودان الغربي والأوسط، لا سيما واحات غدامس وغات ومرزق وأوجلة. وفي الوقت ذاته، كانت منطقة فزان مركز انطلاق لطرق القوافل التجارية الرئيسية والفرعية منها وإليها. كما كانت بها محطات كثيرة لاستراحة القوافل التجارية وتزويدها بمتطلباتها من ماء وطعام. وهذا ما حدا بالرحّالة الألماني رولفس، الذي وقف على أهمية تلك المحطات

---

(1) وصل عدد المدن التي أنشأها الإغريق في برقة بمجيء الثلث الأخير من القرن السابع قبل الميلاد إلى خمس مدن عرفت باسم [بنتابوليس] أي المدن الليبية الخمس.

(2) المدن الثلاث هي: لبدة الكبرى وأويا وصبراتة، وقد أطلق عليها القرطاجيون اسم [تريبوليتانيا] أي المستوطنات الثلاث (طرابلس).

(3) L. H. Grothe, op. cit., P. 7.

(4) Ibid. P. 11.

(5) Ibid. P. 9.

أن يتوجه بالدعوة إلى إحياء طرق القوافل التجارية المؤدية إلى مراكز ما وراء الصحراء الكبرى[1].

ب ـ علاقات ليبيا مع بلدان حوض البحر المتوسط

يُعد الفينيقيون أول من استوطن طرابلس الغرب، وقد جاء هذا الاستيطان بعد زيارات متقطعة للمنطقة بحثاً عن مراكز تجارية ملائمة لهم في غرب البحر الأبيض المتوسط. وبعد أن عرفوا أهمية الموانئ الليبية، شرعوا في توسعهم الاستيطاني في منطقة طرابلس الغرب[2].

ونتيجة لذلك، جاء تأسيس طرابلس الغرب وتطورها مرتبطاً بموقعها المتميز والهام في حوض البحر المتوسط، حيث ترددت السفن التجارية الفينيقية إلى سواحلها. ومن ثم بدأ الفينيقيون يستقرون فيها، منذ الألف الأول قبل الميلاد[3].

لقد لعب الفينيقيون دوراً رائداً في إنشاء العديد من المحطات التجارية والمدن الرئيسية على طول الساحل الليبي، ولعل من أهم تلك المدن التي أسسها الفينيقيون هي: أويا، لبدة وصبراتة، ويرجع فضل إنشاء هذه المدن إلى استفادة الفينيقيين من العوامل الجغرافية للمنطقة، فضلاً عما اكتسبوه من خبرات في فن الملاحة البحرية والمعاملات التجارية[4] وفي ظل النشاط الفينيقي، أصبحت مدينة طرابلس مركزاً تجارياً هاماً وحلقة اتصال رئيسة بأهم الموانئ الجنوبية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مثل قبرص وكورسيكا والموانئ الفرنسية الجنوبية.

---

(1) L. H. Grothe, op. cit., P. 9.

(2) عبد اللطيف سليمان، الساقزلي، ليبيا الثورة، (القاهرة: جامعة القاهرة، 1389هـ)، ص12.

(3) سعيد علي حامد، من تحصينات مدينة طرابلس برج بوليلة، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، 2، 2003، ص129.

(4) مصطفى عبد الله بعيو، دراسات في التاريخ اللوبي، مرجع سابق، ص114. انظر كذلك، محمد بن مسعود، تاريخ ليبيا العام من القرون الأولى إلى العهد الحاضر، ط4، (بيروت: مطابع الوفاء، 1962م)، ص45 وما يليها.

ويلاحظ أن الفينيقيين حرصوا على أن تكون مراكزهم التجارية قريبة من بعضها البعض، حتى يتسنى لهم تزويدها بالإمدادات اللازمة لصيانة السفن وإصلاحها وتزويدها بالمعدات والمؤن الغذائية وغيرها. وفي الوقت نفسه، اهتم الفينيقيون بالتجارة الصحراوية، مما ساعد على ظهور مدينة جرمة القديمة على أيديهم، وبالتالي أصبحت ملتقى لطرق القوافل التجارية التي ظلت تتدفق إليها من شمال القارة وما وراء الصحراء، حيث اتسع نشاطها التجاري وتجمعت فيها السلع السودانية، مثل العاج وريش النعام وبعض الأحجار الكريمة والجلود والملح وغيرها.

وعبر مدينة جرمة، كانت السلع السودانية تجد طريقها شمالاً إلى الموانئ الليبية المطلة على البحر المتوسط، حيث تتم مقايضتها بالسلع الرائجة في تلك الجهات علماً بأن المنطقة الممتدة ما بين الإسكندرية شرقاً وقرطاجة غرباً قد ارتبطت بعلاقات تجارية واسعة، منذ القدم مع المدن الفينيقية في ليبيا[1].

وتجدر الإشارة إلى أن نمو الموانئ الليبية وازدهارها كان مرتبطاً بأحداث البحر المتوسط. ولذا، واجهت طرابلس اعتداءات وغارات متكررة مصدرها البحر. فاضطرت إلى إقامة التحصينات والقلاع وتحسين ظروف البحرية الطرابلسية إلى درجة أن أساطيلها صارت لها هيبتها وأصبح لبحارتها القوة التي تمكنهم من الذود عن حياضها[2].

ج ـ التواصل الليبي مع مناطق ما وراء الصحراء

لقد كانت معرفة الليبيين بمناطق ما وراء الصحراء الكبرى موغلة في القدم، فساعدتهم في ذلك طبيعة بلادهم التي حفزتهم إلى ارتياد المناطق الصحراوية،

---

(1) محمد المبروك المهدي، جغرافية ليبيا البشرية، (بنغازي: مطابع الثورة للطباعة والنشر، د.ت)، ص306.

(2) سعيد علي حامد، مرجع سابق، ص129.

طلباً للرزق والتجارة مع واحاتها ومراكزها التجارية. وكان تجولهم في الصحراء مرتبطاً بالبحث عن أماكن توفر المياه[1].

ولم تكن المسافات الطويلة التي يقطعونها في تحركاتهم تمثل عائقاً لهم، بل تحدوها بروحهم المتطلعة للمغامرة والريادة في اجتياز الصحراء لمعرفة طرقها ومسالكها.

ونتيجة لهذه المغامرات، توسعت مهارة الليبيين في المناطق الصحراوية وما ورائها، وبالتالي أصبحوا الوسطاء الرئيسيين للأمم الأخرى في شئون هذه المناطق المعنية. ومما شجع التواصل الليبي مع مناطق ما وراء الصحراء، وجود المدن الليبية الساحلية التي أصبحت في الوقت نفسه حلقة وصل بين الليبيين والفينيقيين، حيث تعاون هؤلاء لازدهار التجارة البرية والبحرية[2]. وعلى الرغم من صعوبة تحديد الفترة الزمنية التي مارس فيها الليبيون نشاطهم التجاري الصحراوي مع بلاد السودان، فإن أقدم قضية تصور محاولاتهم الأولى لاجتياز الصحراء رواها هيرودوت على النحو التالي: «أن خمسة من الشباب من أولاد رؤساء قبيلة النازاموس Nasamones الذين كانوا يعيشون بالقرب من خليج سرت الكبير والذين امتدت مواطنهم إلى بعض المسافة في الداخل قد دفعتهم غريزة حب الاستطلاع وروح المغامرة التي هي من طبيعة الشباب إلى التوغل في الصحراء جنوباً وقد زودوا أنفسهم بكمية وافية من الزاد والماء تمكنهم من قطع مسافة تزيد عما تعوده الناس في ذلك الوقت عندما كانوا يتوغلون جنوباً. واستمر هؤلاء الشباب الخمسة في رحلتهم الفريدة من نوعها بالنسبة لذلك العصر وقد انحرفوا في سيرهم نحو الغرب حتى وصلوا بعد أيام عديدة إلى سهل به الكثير من الأشجار المحملة بالفاكهة. وبينما كان هؤلاء الشباب منهمكين في جمع الفاكهة وإزالة ما بأنفسهم من تعب انقضت عليهم جماعة من الأقزام السود لم يكن

---

(1) مصطفى عبد الله بعيو، دراسات في التاريخ اللوبي، مرجع سابق، ص171.

(2) المرجع نفسه، ص172.

التفاهم معهم من السهل على هؤلاء الشباب لجهل كل من الطرفين بلغة الآخر. واستطاع هؤلاء الأقزام حمل الشباب عبر مستنقعات واسعة هناك حتى وصلوا بهم إلى بلدة يتكلم أهلها لغة الأقزام أنفسهم وقد شاهد الشباب هناك نهراً كبيراً به كثير من التماسيح وهو يشق البلدة جارياً من الغرب إلى الشرق، ثم تذكر لنا هذه القصة أن هؤلاء الشبان المغامرين قد استطاعوا العودة بسلام إلى وطنهم الأول حيث قصوا على أهلهم وعشيرتهم ما شاهدو وعاينوا»[1]. غير أن هيرودوت قد رجح أن يكون النهر المذكور هو نهر النيل، إلا أن خط سير الشباب الخمسة أعطى رأياً مخالفاً، مفاده أن النهر هو نهر النيجر وأن البلدة المعنية ربما تكون تمبكتو التي أصبحت فيما بعد مركزاً تجارياً مهماً[2].

لقد كان أول عمل قام به الفينيقيون بعد وصولهم إلى طرابلس الغرب تنشيط التجارة التي ازدهرت في عهدهم، بفضل سيطرتهم على رؤوس أموالها والبحث عن أسواق ومراكز تجارية جديدة، فيما وراء الصحراء التي توصلوا إليها عن طريق الاستكشافات وجهود الرحّالة (ماقو الأفريقي) الذي تمكن من عبور الصحراء ثلاث مرات، غير أن الجرمنت ظلوا الوسطاء الرئيسيين بين الفينيقيين وتلك النواحي، لمعرفتهم الوطيدة بخبايا مسالك الصحراء الكبرى ودروبها[3].

وهذه الميزة الفريدة جعلت البعض يطلقون على الليبيين لقب فينيقي الصحراء حتى اقترنت بهم كلمة (التلوب) التي تعد صفة للأمم التي كانت لديها إلمام بفن الملاحة الصحراوية والصبر على تحمل مشاقها ومخاطرها، الأمر الذي أتاح للواحات الليبية الصحراوية المتناثرة أن تكون محطات للراحة والاستجمام في الطريق المؤدي لمناطق ما وراء الصحراء[4].

ولم يكن ازدهار تجارة القوافل الصحراوية مقصوراً على العهد الفينيقي

---

(1) نقلاً عن مصطفى عبد الله بعيو، دراسات في التاريخ اللوبي، المرجع السابق، ص173 - 174.

(2) المرجع نفسه، ص174. (3) المرجع نفسه، ص175.

(4) المرجع نفسه، ص169.

فحسب، بل نشطة أيضاً خلال عصر السيطرة الرومانية على شمال أفريقيا، حيث أسس الرومان شبكة من الطرق التي ربطت مدينة جرمة الليبية بمناطق ما وراء الصحراء[1]. والدليل الذي يؤكد وصول الرومان إلى جرمة في الجنوب الليبي هو ما ذكره الرحّالة أودني في القرن التاسع عشر الميلادي عن وجود ضريح روماني في جرمة يرجع إلى العهد الروماني المذكور، وهو ما أشار إليه الرحّالة بارث فيما بعد[2].

لقد اهتم الرومان بإقامة شبكة من الطرق ربطت المدن الساحلية بالدواخل، بهدف تسهيل الأغراض العسكرية وتحصين مراكزها الدفاعية، إلا أن هذه الطرق استخدمت أيضاً في المجال التجاري. كما قام الرومان بوضع علامة دالة توضح المسافات بين تلك المناطق[3] وكذلك، حرصوا على توفير الحماية الأمنية لقوافلهم من اعتداءات البدو المنتشرين في المسالك الصحراوية[4]، فضلاً عن أنهم انشأوا محطات استجمام لتلك القوافل، طلباً للراحة من عناء الطريق ومشقته[5].

د ـ ليبيا نقطة انطلاق للرحّالين الأوروبيين

لقد شجعت الدول الاستعمارية الأوروبية الرحلات الاستكشافية للقارة الأفريقية، تمهيداً لاستعمارها. ولذا، نشطت تلك الرحلات المتوجة لمناطق ما وراء الصحراء وتنامي عدد الرحالين الذين كانوا يتطلعون للوصول إلى تلك

---

(1) ريموند موني، «طرق التجارة عبر الصحراء بين ليبيا ومناطق الساقانا في النيجر وتشاد قبل الفتح العربي»، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس 1، 3 (1981)، ص122 وما بعدها.

(2) نقلاً عن بوڤيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة الهادي أبولقمة، محمد عزيز، (بنغازي: جامعة قاريونس، 1988)، ص87 وما بعدها.

(3) محمد المبروك المهدوي، مرجع سابق، ص306 وما يليها.

(4) عماد الدين غانم، محرر الصحراء الكبرى، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1979م، ص196 وما يليها.

(5) محمد المبروك المهدوي، مرجع سابق، 308، وما يليها.

الجهات، تحت شعارات مختلفة، منها ذات طابع إنساني يتمثل في محاربة تجارة الرقيق ومنها تسهيل الكشف الجغرافي للقارة، بهدف نشر الحضارة والرقي بين أهلها. وهذا ما حدا ببعض الدوائر الأوروبية بالمساهمة في تأسيس جمعيات جغرافية للدراسات الأفريقية ودعم نشاطها مادياً ومعنوياً وتوفير جميع احتياجات الرحالين الأوروبيين ورصد نتائج رحلاتهم وملاحظاتهم من تقارير وكتب ودوريات[1]، ونتيجة لذلك، أصبحت كتب الرحالين الأوروبيين تحتوي على معلومات هامة عن المناطق التي وصلوا إليها، من حيث سكانها ومدنها ومواردها الطبيعية ومسالكها وأحوالها السياسية.

وبما أن ليبيا كانت البوابة الرئيسية لمناطق ما وراء الصحراء وملتقى لشبكة من الطرق المؤدية إليها، وأهمها طريق طرابلس برنو وتفرعاته، فإنها أصبحت منطلقاً لرحلات الرحالين الأوروبيين وغيرهم[2].

وقد وجدت تلك الرحلات دعماً وعوناً من سلطات ولاية طرابلس الغرب التي كانت لديها صلات قوية وودية من حكام كانم ـ برنو ووداي وبلاد الهوسا. وكان قبل انطلاق الرحلة يتم الترتيب والاستعداد لها استعداداً جيداً باختيار الأدلاء والمساعدين لهم وتحديد موعد سفر القافلة وخط سيرها والمرافقين لها، كما كان الرحّالة الأجانب يحرصون على الحصول على توصيات من الباشا وشخصيات لها مكانتها المرموقة في الولاية لتقديمها للمسؤولين في بلاد السودان لتسهيل مهامهم المكلفين بها[3].

---

(1) حاول اتيلو موري أن يحصر الرحالين الذين قدموا إلى ليبيا وأثارهم، انظر موري، الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى الاحتلال الإيطالي، تعريب خليفة محمد التليسي، (طرابلس: دار الفرجاني 1971م)، انظر أيضاً عماد الدين غانم (محرر)، الصحراء الكبرى، مرجع سابق، ص241 ـ 251.

(2) المرجع نفسه، ص184.

(3) عماد الدين غانم، «الرحّالة الألماني رولفس وليبيا»، البحوث التاريخية، طرابلس، 1، 1979م، ص123 وما بعدها.

لقد فضّل الرحّالة الأوروبيون أن تكون ليبيا منطلقاً لرحلاتهم؛ لأنها تمثل أقصر الطرق المؤدية لمناطق بلاد السودان، فضلاً عن أن السلطات الليبية حرصت على توفير الأمن عبر هذه الطرق[1]، وهذه الميزات التي تمتعت بها ليبيا زادت من عدد الرحالين والرحلات، وبالتالي أصبحت مناطق ليبيا المختلفة نقاط انطلاق لما وراء الصحراء الكبرى، مما جعلها تحظى بوصف دقيق وهام في تقارير هؤلاء الرحالين وكتبهم التي تجمعت فيها معلومات غزيرة عن ليبيا ساحلاً وداخلاً[2].

وفي طليعة الرحالين الأوروبيين الذين اتخذوا من ليبيا نقطة انطلاق لهم لبلاد السودان والذين ساهموا أيضاً في توفير معلومات هامة عن هذه المناطق الصحراوية، ما يلي[3]:

1 ـ هورنمان (Hornemann)، ويعد من الرواد الأوائل للرحلات الاستكشافية الأوروبية حتى أنه لقب أحياناً باسم «أبو الرحالين الألمان» وكانت أول رحلة قام بها انطلقت من القاهرة في عام 1799م، مدعومة من الجمعية الأفريقية بلندن وقد عبر واحة سيوة في طريقه إلى مرزق، إلا أنه وجد نفسه مضطراً للرجوع إلى طرابلس للتزود بما يحتاجه ومن ثم استأنف منها رحلته المتجه لبلاد السودان، غير أنه لقي مصيراً مؤسفاً بوصوله إلى بلاد السودان انتهى بوفاته ويرجح البعض أنه قتل في تمبكتو.

2 ـ ليون (Lyon) ورتيشيه (Ritchie) قاما برحلة استكشافية مشتركة بدأت من طرابلس إلى فزان، خلال عامي 1818 ـ 1820م وقد أعطت هذه الرحلة معلومات قيمة عن فزان وأحوالها السياسية.

---

(1) عماد الدين غانم، الرحّالة الألماني رولفس وليبيا، مرجع سابق، ص122.

(2) عماد الدين غانم، تقارير غوتلوب أدولف كراوزة الصحيفة حول الغزو الإيطالي لليبيا، (طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1993م)، ص17 وما بعدها.

(3) عماد الدين غانم، الرحّالة الألماني رولفس وليبيا، مرجع سابق، ص128 ـ 129.

3 ـ دنهام (Denham) أودني (Oudney) كلابرتون (Clapperton) اشترك الرحّالون الثلاثة في رحلة مشهورة اتجهت لبلاد السودان الأوسط وشملت كل من برنو ومندرا وسكوتو. وكانت نقطة انطلاقها طرابلس الغرب، حيث إن تلك الرحلة مكنتهم من جمع معلومات مفيدة عن الأوضاع التي كانت سائدة في المناطق المذكورة.

والجدير بالذكر أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد شهد تصاعد عدد الرحلات الأوروبية المنطلقة من طرابلس الغرب إلى مناطق بلاد السودان الغربي والأوسط. ولعل من أبرز تلك الرحلات، هي[1]:

1 ـ ريتشاردسون (Richardson) ويعتبر من الرحّالة الأوروبيين الأوائل الذين انطلقوا من طرابلس إلى غدامس ومنها إلى غات، وذلك في عام 1850م وقد اشترك معه بارث، في تلك الرحلة نفسها.

2 ـ إدوارد فوجل (Eduard Vogel) ألماني الجنسية، وكان قد توجه من طرابلس في عام 1853م في طريقه إلى بلاد السودان الأوسط، إلا أنه عندما وصل إلى وداي قتل في ظروف غامضة.

3 ـ الرحّالة مورتيس فون بويرمان (Moritz Von Beuerman) انطلق من بنغازي إلى بلاد السودان الأوسط، إلا أنه لقي مصير سلفه إدوارد فوجل، حيث قتل هو الآخر.

4 ـ الرحّالة دوفيريه (Duveyrier) وهو فرنسي الجنسية. فقد وفد من طريق الجزائر إلى منطقة غات التي أجرى بها دراسة رائدة عن الصحراء ومناطق الطوارق.

5 ـ الرحّالة الدكتور ناختيجال (Nachtigal) الألماني الجنسية، بدأ رحلته في عام 1869م من طرابلس إلى برنو، وذلك عبر تبستي ومنطقة برقو حتى وصل

(1) عماد الدين غانم، الرحّالة الألماني رولفس وليبيا، مرجع سابق، ص129 ـ 130.

إلى وداي، علماً بأنه قد رافقته في تلك الرحلة من طرابلس إلى مرزق الأميرة الهولندية الكسندريناتية عندما حاولت التوجه إلى بلاد السودان الغربي ولاقت حتفها على أيدي الطوارق.

6 ـ الرحّالة الألماني الدكتور فون باري (Von Bary) انطلق من طرابلس الغرب واستطاع الوصول إلى غات محرزاً نجاحاً كبيراً لم يحققه رحّالة أوروبي قبله سوى الرحّالة الفرنسي دوفيريه.

إن انطلاق الرحّالين الأوروبيين من طرابلس الغرب تجاه بلاد السودان الغربي والأوسط، دليل واضح لأهمية هذه المدينة الاستراتيجية التي أصبحت ملتقى لطرق بحرية وبرية سهلت لها أن تكون مركزاً رئيسياً للحركات الاستكشافية الأوروبية، ومنطقة عبور دولية لسلع حوض البحر الأبيض المتوسط والسلع السودانية الوافدة من وراء الصحراء.

ولذا، يلاحظ أن أشهر الرحّالين الأوروبيين أمثال هورنمان، وليون، وريتشيه، ودنهام، وكلابرتون، وأودني، ولينج، وبتشي، وريتشاردسون، وبارث، وأوفيرفيج، وفوجل، وفون باري، وبويرمان، ودوفيريه، وناختيجال، ورولفس، قد اتخذوا من طرابلس نقطة انطلاق لهم، وهذا ما يتناوله بتوسع الفصل الثاني من هذه الدراسة.

2 ـ العهد العثماني الثاني في ليبيا وأبعاده:

يبدأ العهد العثماني الثاني بنهاية حكم الأسرة القره مانلية على طرابلس الغرب، بعد عزل علي باشا القره مانلي في عام 1835م، ودخول البلاد تحت السيطرة العثمانية المباشرة حتى سنة 1911م. وفي المرحلة الأولى للعهد العثماني الثاني والتي استمرت زهاء أربعة وعشرون عاما (1835 ـ 1858م)، لم يفرض العثمانيون سيطرتهم إلا على طرابلس المدينة ومنطقة المنشية، في حين ظلت بقية مناطق الساحل والدواخل خارج نطاق نفوذهم، نتيجة للمقاومة القوية التي

تزعمها بعض زعماء القبائل، من أمثال غومة المحمودي، وعبد الجليل سيف النصر ضد هذا التوسع[1] وما أن فرض العثمانيون سيطرتهم على طرابلس الغرب حتى بادرت بعض الدول الأوروبية بالاعتراف بنظام حكم العهد العثماني الثاني، رغم أن سيطرته لم تشمل بعد البلاد بأسرها[2] فقد واجهت الإدارة العثمانية الجديدة مقاومة عنيفة من قبل التحالفات القبلية الكبيرة في المناطق الداخلية، وفي طليعتها قبائل المحاميد وأولاد سليمان، والتي كانت تتمتع بامتيازات خاصة واستقلالية ذاتية، إبان حكم أسرة القره مانليين. كما عارضتها الفئات المرتبطة مصالحها بحكم الأسرة القره مانلية والتي كانت تتمتع بمزايا كثيرة سلبها منها العهد الجديد، وفضلاً عن ذلك اتسعت دائرة هذه المعارضة لتشمل فئات واسعة من أفراد الشعب، على أثر لجوء العثمانيين إلى فرض ضرائب فردية باهظة على المواطنين وتغيير نظام ملكية الأراضي، من الملكية القبلية إلى الملكية الفردية، بهدف إرهاق كاهل المواطن[3].

ويلاحظ أن إدارة العهد العثماني الثاني قد حرصت على تفكيك قوة النظام القبلي ومراقبته بإحداث إجراءات إدارية تمكنها من إحكام سيطرتها على المناطق القبلية، حيث أقامت فيها مؤسسات عسكرية ومقار للشرطة ومحاكم ومدارس واتصالات[4].

لقد دخلت ولاية طرابلس الغرب مرحلة جديدة بتولي مصطفى نجيب باشا

(1) أتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، ط 2، (طرابلس: الدار العربية للكتاب، 1991م)، ص422.

(2) فرانشسكو كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي، (طرابلس: دار الفرجاني)، 1971م، ص15.

(3) علي عبد اللطيف حميدة، المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، دراسة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لحركات وسياسات التواطؤ ومقاومة الاستعمار 1830 - 1832م، ط 1، (مركز دراسات الوحدة العربية، 1995م)، ص91.

(4) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

منصب باشويتها في 1835م ويعد عهده إيذاناً باستخدام سياسة القوة لفرض سيادة العثمانيين على أرجاء البلاد. بيد أنه واجه تحديات داخلية وخارجية كثيرة. فلم يستطع الوالي مصطفى نجيب إخضاع زعماء القبائل، رغم ما بذله من محاولات الترغيب والترهيب. وفي الوقت ذاته، حاصرته أطماع بعض الدول الأوروبية التي كانت تتطلع إلى عودة مصالحها السابقة في البلاد. فعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن فرنسا طلبت من الباب العالي إعادة حكم الأسرة القره مانلية إلى طرابلس الغرب، إلا أن بريطانيا عارضت ذلك بشدة. وإزاء تلك التطورات في الأحداث، لم يجد الباب العالي مفراً سوى إنهاء مهمة مصطفى نجيب وأمره بالعودة للأستانة[1].

وكانت فرنسا تخشى وجود سلطة مركزية قوية في طرابلس الغرب، المتاخمة للجزائر التي استعمرتها منذ عام 1830م. ولذا، كانت تتطلع إلى أن تؤدي الثورات المحلية من أمثال ثورة غومة بن خليفة المحمودي إلى الإطاحة بالعهد العثماني الثاني وعودة حكم الأسرة القره مانلية التي كانت المناطق القبلية في ظله تتمتع باستقلال ذاتي[2]، غير أن الباب العالي كان مدركاً للنوايا الفرنسية، فقام بتعين محمد رائف باشا (1835 - 1836م) والياً على طرابلس، حيث وصلها في سبتمبر 1835م. فقد منح الوالي الجديد سلطات واسعة تمكنه من حرية التصرف الكامل. فسارع بإطلاق سراح غومة المحمودي لامتصاص غضب الأهالي وإرضاء الفرنسيين، إلا أن هذا الإجراء وحده لم يكن كافياً؛ لأن المواطنين كانوا يرغبون في رفع الجور والظلم المتمثل في فرض الضرائب

(1) أتوري روسي، مرجع سابق، ص422 وما بعدها. انظر كذلك، عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2002، ط1، ص53 وما بعدها.

(2) بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث منتصف القرن السادس عشر مطلع القرن العشرين، ترجمة وتقديم عماد حاتم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1991م (لبنان - بيروت: دار المحيط العربي)، ص266.

الباهظة عن كاهلهم، وبالتالي استمرت مواجهاتهم للعثمانيين[1].

بيد أن هناك مجموعات كبيرة من المواطنين في مدينة طرابلس وضواحيها ترغب في العودة إلى الحكم القره مانلي، باعتبار أنه حكم وطني وأن العثمانيين دخلاء. وعليه، نشبت المقاومة ضد الحكم العثماني الثاني في مدينة تاجوراء، الموالية للأسرة القره مانلية من جهة والمركز التجاري الهام من جهة أخرى. فأضطر الأتراك لإخماد الفتنة قبل أن تستفحل بلجوء والدة محمد القره مانلي وأخته اللتين طلبتا العون من التاجورين. وفي 31 يناير 1836م، زحفت قوات الباشا محمد رائف على تاجوراء. وتكبد الطرفان خسائر فادحة، إلا أن القوات الحكومية استطاعت في نهاية الأمر السيطرة على زمام الأمور وإلحاق الضرر الفادح بأهالي تاجوراء، لا سيما بممتلكات التجار وأرواحهم، نسبة لأن هؤلاء التجار كانوا متهمين بتمويل الثورات والانتفاضات ضد الحكم العثماني[2] وبإخضاع تاجوراء، أعلنت بعض المناطق الواقعة في ضواحي مدينة طرابلس، ومنها جنزور عن رغبتها في دفع الضرائب المقررة عليها.

غير أن الوالي محمد رائف باشا دخل في خلافات مع القنصل الفرنسي «دي بوربلون» فاضطرت الأستانة لعزله، حرصاً على مصالحها المتينة مع فرنسا. فقامت بتعيين طاهر باشا بدلاً عنه والياً على طرابلس، حيث وصلها في 22 يونيو 1836م، مدعماً بتعزيزات عسكرية كبيرة تقدر بحوالي ثلاثة آلاف جندي، من بينهم ثلاثمائة من الفرسان. وقد أسندت قيادة هذه الجيوش التي كلفت بالقيام بحملة على مصراتة إلى نامق باشا، قائد الجيوش البرية العثمانية[3].

لقد ساورت الشكوك فرنسا من جراء وصول أعداد كبيرة من القوات

(1) بروشين، مرجع سابق، ص267. انظر كذلك عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص55.
(2) بروشين، مرجع سابق، 267.
(3) أتوري روسي، مرجع سابق، ص424.

العثمانية إلى طرابلس الغرب، خشية أن ذلك سيؤدي إلى تهديد مصالحها في تونس التي لم تتم بعد استكمال سيطرتها عليها. وعليه، سارعت الحكومة الفرنسية في 10/ 7/ 1836م بإرسال أسطول بحري بقيادة الأميرال (هوجون) إلى تونس، ثم إلى طرابلس. ولم يغادر الأسطول الفرنسي طرابلس، إلا بعد أن تحصل قائده على ضمانات من طاهر باشا تؤكد له أن الأستانة لا ترغب في عودة سيادتها على تونس[1].

3 ـ التدخلات الأجنبية وتأثيرها على البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الليبي:

منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، تصاعد اهتمام بعض الدول الأوروبية بطرابلس الغرب لموقعها الاستراتيجي في حوض البحر المتوسط ولعلاقتها الوطيدة مع بلاد السودان الغربي والأوسط.

وركزت بريطانيا اهتمامها على طرابلس الغرب، بدرجة كبيرة، حينما استعمرت فرنسا الجزائر في عام 1830م، وتونس 1881م، خشية منها أن تقع الأولى فريسة في أيدي دولة أوروبية أخرى تهدد المصالح البريطانية في كل من مصر والسودان.

بيد أن التكالب الاستعماري للسيطرة على طرابلس الغرب قد ترك أثاراً سلبية على الوضع الاقتصادي في البلاد، حيث أدى إلى أن فقدت طرق القوافل التجارية مركزها الاقتصادي، بعد أن تحولت التجارة العالمية إلى ساحل المحيط الأطلسي، وبالتالي ضرب الكساد أطنابه على المراكز التجارية الصحراوية في الواحات الليبية، الأمر الذي كانت له انعكاسات سلبية أيضاً على الحياة الاجتماعية، في تلك النواحي.

(1) أتوري روسي، مرجع سابق، ص424 وما بعدها. انظر كذلك، عماد الدين غانم، (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص55.

وبما أن طرابلس الغرب تعد بوابة أفريقيا في اتجاه ما وراء الصحراء فإن الدول الأوروبية أدركت أهميتها الاستراتيجية. وبدأت تسعى لأن يكون لها نفوذ في البلاد، إذ جندت قناصلها المعتمدين لدى باشا طرابلس لتحقيق ما تصبو إليه، دعماً لمخططاتها الرامية لتحقيق علاقات وطيدة مع حكّام بلاد السودان، عبر البوابة الليبية.

أ ـ علاقات حكّام ليبيا مع مناطق ما وراء الصحراء:

لقد كان التواصل الحضاري بين طرابلس الغرب وبين بلاد السودان الغربي والأوسط قديماً وأزلياً. فازدادت العلاقات بين الجانبين قوة ومتانة في العصر الحديث، وذلك بفضل جهود بعض القيادات السياسية لدى الطرفين، وهي قيادات حرصت على دعم أواصر هذه العلاقات، تلبية للمصالح المشتركة بينهما. فعلى سبيل المثال لا الحصر، كانت العلاقات وطيدة ما بين يوسف باشا القره مانلي حاكم طرابلس وبين الشيخ محمد الأمين الكانمي حاكم برنو، خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

وفي ظل تلك العلاقات الحميدة والمتينة بين طرابلس الغرب وبين برنو، ازدهرت التجارة الصحراوية وانتعشت مراكزها. فقد لعب التجار الليبيون دوراً بارزاً في الحركة التجارية، في بلاد السودان الأوسط والغربي. وكانت لهم أحياء خاصة بهم في تلك المناطق، إذ مثّل التجّار الفزانيون مركز ثقل في بلاد السودان الأوسط، في حين كان للغدامسيين مكانة مرموقة في بلاد السودان الغربي.

فقد نجم عن الروابط الاقتصادية والثقافية المشتركة بين طرابلس الغرب وبين برنو أن تعززت الروابط الاجتماعية بالتصاهر والتلاحم العرقي والثقافي. فعلى سبيل المثال، كان محمد الأمين الكانمي من مواليد مرزق بفزان. وتلقى شطراً من تعليمه في طرابلس، حيث كان لأساتذته حظوة لدى يوسف باشا القره مانلي، الأمر الذي ساعد على تقوية أواصر صداقته بحاكم طرابلس

المذكور[1]، كما أسفرت عرى الصداقة بين الطرفين أن حرص الكانمي على تقديم الدعم والمساعدة للرحّالين الأوروبيين، باعتبارهم ضيوف باشا طرابلس. وفي الوقت ذاته، وجد الكانمي من يوسف باشا القره مانلي دعماً قوياً في صراعه مع حكّام باقرمي ووداي، إذ أرسل الأخير لنجدته حملة عسكرية بقيادة مصطفى الأحمر باي فزان وعبد الجليل سيف النصر شيخ قبائل أولاد سليمان مكنته من إحراز نصر حاسم على منافسيه[2].

ب ـ التدخلات الأجنبية وروافدها:

شهد أواخر القرن التاسع عشر تدخلات أوروبية استعمارية للاستحواذ على مناطق نفوذ واسعة في الشمال الأفريقي ومناطق ما وراء الصحراء الكبرى، لا سيما بين فرنسا وبريطانيا. فمنذ أن تمكنت فرنسا من استعمار الجزائر في عام 1830م، بدأت تسعى إلى السيطرة على طرق القوافل التجارية بنقل مركز مسارها من طرابلس الغرب إلى الجزائر. ولذا، عمدت على تحين الفرصة لبسط نفوذها على غدامس وغات أهم مركزين صحراويين للطوارق الذين كانوا مسيطرين على التجارة الصحراوية التي تمر عبر أراضيهم، حيث كانوا يوفرون لتلك القوافل التجارية الأمان ويزودونها بالجمال والأدلاء واحتياجات الطريق الأخرى، من مأكل ومشرب ومحطات للاستراحة، ويأخذون في مقابل هذه الخدمات أجوراً وإتاوات.

ولما شعرت فرنسا أنه لا يمكن السيطرة على التجارة الصحراوية ومراكزها إلا عن طريق التعامل المباشر مع الطوارق، بدأت تخطط لتوسيع دائرة نفوذها لتشمل الأجزاء الغربية من طرابلس الغرب، المتاخمة لكل من الحدود التونسية والجزائرية الشرقية، وذلك حماية لمصالحها السياسية والاقتصادية في بلاد

---

(1) أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، (طرابلس: مكتبة الفرجاني، د. ت.)، ج1، ص319.

(2) Boahen, op. cit., P. 62.

السودان الأوسط. وتجاوباً مع هذه السياسة، فقد سعت فرنسا إلى ضم غدامس وغات مركزي التجارة الصحراوية إلى تونس[1] ويبدو أن الاهتمام الفرنسي بالموقع الاستراتيجي لكل من غدامس وغات اشتد في أعقاب الرحلة الاستكشافية التي قام بها الحشائشي إلى طرابلس، موفداً من قبل الفرنسيين[2].

لقد حرصت فرنسا على إقامة علاقات وطيدة وحميدة مع بعض قبائل الطوارق وقياداتها، وبخاصة قبائل أزقر وقبيلة كلوي في منطقة الأير، حيث عقدت اتفاقية نصت على «أن يسمح للطوارق بدخول أسواق الجزائر دون دفع أي ضريبة، وفي المقابل يعبر التجار الفرنسيون إلى السودان برفقة الطوارق بكل أمان، مع دفع إتاوة. كما أن الوالي العام الفرنسي بالجزائر يتولى تحمل مصاريف حفر الآبار وصيانة الطرق، هبة للطوارق»[3]، لكن، رأت بريطانيا أن التقارب بين الفرنسيين والطوارق يشكل تهديداً سافراً لمصالحها في مناطق ما وراء الصحراء ودواخل القارة الأفريقية.

وعليه، بدأت الحكومة البريطانية في تكثيف نشاطها السياسي لمواجهة التحركات الفرنسية في تلك المناطق، لا سيما وأن اقتصادها أصبح في حاجة ماسة للمواد الخام ولأسواق جديدة، بعد ازدهار منتجاتها الصناعية، إذ أنها كانت أسبق الدول الأوروبية في هذا المضمار.

ولتحقيق مصالحها في تلك المناطق، ركزت بريطانيا على النشاط الدبلوماسي من خلال نواب قناصلها في مرزق وغدامس، وعلى جهود

(1) محمد بن عثمان الحشائشي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تقديم وتحقيق علي مصطفى المصراتي، (بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، 1965م)، ص117.

(2) أحمد صدقي الدجاني، أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن والتاسع عشر، (طرابلس: دار المصراتي، د.ت.)، ص320.

(3) عبد الرحمن تشايجي، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ترجمة علي إعزازي، مراجعة محمد الأسطى، تقديم محمد الطاهر الجراري، ط 2، (طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1993م)، ص72. انظر كذلك Grothe, op. cit. P. 25-26

المستكشفين الأوروبيين الذين اتخذوا من طرابلس منطلقاً لهم نحو مناطق ما وراء الصحراء ودواخل القارة، لا سيما مناطق بلاد السودان الأوسط، الممتدة حتى حدود نهر النيجر الذي تكالبت عليه الرحلات الاستكشافية الأوروبية، لمعرفة منبعه ومصبه[1]. بيد أن استعمار بريطانيا لنيجيريا وبفرض سيطرتها على مدينة كانو بشمال البلاد سهل عملية بناء طرق جديدة تربط أجزاء من السودان الأوسط بساحل غينيا في الجنوب، مما شكل تهديداً مباشراً لتجارة القوافل الصحراوية.

لقد أدى تحول مركز التجارة الدولية إلى سواحل المحيط الأطلسي إلى شل حركة التجارة عبر الصحراء وانهيارها، وبالتالي كسدت المعاملات التجارية على طول طريق طرابلس ـ غدامس ـ كانو وقد تفاقم الوضع سوءاً، حينما قامت بريطانيا بربط كانو بلاغوس، عن طريق السكك الحديدية، إذ أصبحت سلع بلاد السودان الغربي تنتقل إلى أوروبا مباشرة متخطية الوساطة العربية، علماً بأن تكلفة النقل عبر هذا الطريق أرخص بكثير من الطرق الصحراوية. وترتب عن انتقال النشاط التجاري إلى سواحل المحيط الأطلسي أن فقدت الواحات الليبية ومنها مرزق وغات وغدامس أهميتها التجارية، وضربها الكساد، بعد أن كانت مراكز زاهرة بالنشاط الاقتصادي وقبلة للتجار والوسطاء[2]. وبالإضافة إلى انهيار التجارة الصحراوية، فقد واكبها انهيار حضاري.. والمعروف أن طرق القوافل التجارية كانت تنقل عبرها ـ أيضاً ـ المؤثرات الحضارية والثقافية المتبادلة بين شعوب شمال الصحراء وجنوبها، فضلاً عن مساهمتها في تقوية أواصر العلاقات السياسية والاقتصادية بين الجانبين. غير أن التكالب الأوروبي لتقسيم القارة الأفريقية إلى مناطق نفوذ واتباع سياسة فرق تسد قد أدى في الوقت ذاته إلى فصم عرى هذا التواصل العربي الأفريقي.

(1) Boahen, op. cit, P. 1-17.

(2) عبد القادر جامي، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ترجمة محمد الأسطى، (طرابلس: دار المصراتي، 1974م)، ص18 وما بعدها.

الفصل الثاني

اهتمام الرحّالة بطرابلس الغرب خلال القرن التاسع عشر الميلادي

اهتم الرحّالة بمختلف جنسياتهم ـ خلال القرن التاسع عشر، بطرابلس الغرب ذات الموقع الاستراتيجي الهام والتي كانت تمثل مركز انطلاق لرحلاتهم إلى بلاد السودان الغربي والأوسط، فضلاً عن كونها ميناء رئيسياً مطلاً على ساحل البحر الأبيض المتوسط، مما أهّلها لأن تكون سوقاً رائجاً للسلع الأوروبية. وعليه يركز هذا الفصل على إعطاء دراسة تحليلية لأسباب اهتمام الرحّالين المتصاعد بهذه المدينة ومظاهره. ومن ثم، يحاول الفصل التعريف بعدد من الرحّالة البارزين الذين ساهمت رحلاتهم وكتاباتهم وملاحظاتهم في وصف لمدينة طرابلس الغرب وعلاقاتها مع المناطق الصحراوية وما ورائها، وذلك على النحو التالي:

أولاً/ الأسباب:

1 ـ أهمية طرابلس الغرب الاستراتيجية لدى رحّالة القرن التاسع عشر الميلادي:

لقد تميزت طرابلس الغرب بحكم موقعها الجغرافي بأنها أقرب موانئ الشمال الأفريقي للوصول إلى السودان الغربي.

ولم تكن هذه الميزة حديثة العهد في ذلك الوقت، بل ترجع إلى عهود سابقة، حيث كان للفينيقيين فضل السبق في هذا المجال، إذ أقاموا محطاتهم التجارية على الساحل الليبي كحلقة وصل بين الشمال والجنوب. وقد تطورت هذه المحطات فيما بعد فتكونت على أثرها مدن مهمة، في مقدمتها طرابلس.

وظل هذا التطور متصاعداً مروراً بالرومان فالعرب الذين حرصوا على أمن هذه الطرق وسلامتها وربطها بالواحات الليبية في الجنوب التي أصبحت حلقة

وصل تتدفق إليها القوافل التجارية، المنسابة بين الشمال والجنوب[1]. ومع مجيء القرن التاسع عشر الميلادي استقبلت طرابلس عدداً من الرحّالة الأوروبيين الذين كانوا ينتمون لدول أوروبية مختلفة، وبخاصة الرحّالة الإنجليز والفرنسيين والألمان. وكان ليوسف باشا القره مانلي دور مهم في دعم وتشجيع هؤلاء الرحّالة. وفي الوقت ذاته، بذل القنصل الإنجليزي وارنجتون جهوداً مضنية في دعم الرحّالة الإنجليز وتسهيل مهمتهم. وقد كان من الأهداف الأساسية لهؤلاء الرحّالة هو الوصول إلى نهر النيجر، واكتشاف المناطق الداخلية لبلاد السودان الغربي والأوسط ولذا، استعان الرحّالة الأوروبيين بأدلاء عرب يوفرون لهم الأمان ويرشدونهم في رحلاتهم عبر الصحراء، حيث إنهم لديهم خبرة كبيرة بالدروب والمسالك المؤدية لمناطق ما وراء الصحراء والتي كانت غامضة لدى هؤلاء الرحّالة[2].

2 - خبرة الليبيين بالطرق المؤدية لما وراء الصحراء وبأوضاع بلاد السودان:

انعكست أهمية الموقع الجغرافي لطرابلس الغرب في اكتساب الليبيين خبرة ومعرفة واسعة بالطرق المتجهة إلى بلاد السودان وبأوضاعها الداخلية، وقد اكتسبت القبائل العربية الليبية المتاخمة للصحراء من خلال تواصلها المستمر عبر العصور مع أهالي بلاد السودان الغربي والأوسط، معرفة ثرية بأوضاع تلك المناطق وظروفها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية. فاستمر هذا التداخل المتواصل بين هذه القبائل الليبية وبين شعوب مناطق ما وراء الصحراء

(1) مصطفى عبد الله بعيو، بعض ملامح تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر، ليبيا في التاريخ، المؤتمر التاريخي، 1968م، بنغازي: الجامعة الليبية، كلية الآداب، ص314 - 315.

(2) المرجع نفسه، ص314 - 315، انظر كذلك عماد الدين غانم (محرر ومترجم) رحلة عبر أفريقيا، مشاهدات الرحّالة الألماني رولفس في ليبيا وبرنو وخليج غينيا، (طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1996م)، ص136.

عبر العديد من الطرق الصحراوية التي كانت الواحات الليبية الداخلية مركزاً لها[1].

ولم تكن هناك حواجز أو عوائق تحول دون تدفق الجماعات البشرية عبر الصحراء، كما حدث في العصر الاستعماري الذي حاول فصم عرى هذا التواصل بين العرب والأفارقة.

وتعد الواحات الليبية الداخلية مراكز تجارية رئيسية لتبادل السلع السودانية بالسلع الأوروبية والوافدة من أسواق حوض البحر الأبيض المتوسط[2] وبما أن غدامس تعد من أهم الواحات الليبية التي كانت لديها صلات تجارية وطيدة بالأسواق السودانية، فإن الغدامسيين كانت لديهم دراية وخبرة واسعة بالطرق المؤدية بين طرابلس الغرب ومناطق وأسواق بلاد السودان، ومن تجربتهم استفاد الطرابلسيون في معرفة الطرق ومحطاتها المختلفة والتي تربطهم بالمراكز التجارية فيما وراء الصحراء[3] أفرزت خبرة الليبيين بالطرق الصحراوية ظهور عدد من الأدلاء استعان بهم بعض الرحّالين لا سيما الأوروبيين. ومن أشهر هؤلاء محمد القطروني(*)، الذي عمل دليلاً ومرافقاً لأكثر من رحّالة أوروبي وتعطي جهوده مع هؤلاء الرحّالة صورة بارزة وقوية لدور الخبرة الليبية بالطرق الموصلة إلى ما وراء

(1) محمد طاهر الجراري، افتتاحية العدد، البحوث التاريخية، (طرابلس: 1، 1981م)، ص5.

(2) تيسير بن موسى، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، (طرابلس: الدار العربية للكتاب، 1988م)، ص170.

(3) بشير قاسم يوشع، «الغدامسيون في رحلة الحشائشي»، البحوث التاريخية، طرابلس: 2، 1983م، ص245.

(*) محمد القطروني من قرية دجال بمرزق وكان حريصاً، أسوة بغيره من الأدلاء الليبيين على عدم المساومة في عروبته وإسلامه. وكان يعتقد أن الرحّالة الذين قدم لهم خبرته كدليل للطرق الصحراوية أمثال رولفس وبارث أنهم مسلمون لاتخاذهم أزياء وأسماء عربية وأدائهم للصلوات في المساجد. انظر: عماد الدين غانم، رحلة عبر أفريقيا، مصدر سابق، ص45.

الصحراء، مما زاد من ظاهرة اهتمام هؤلاء الرحّالة بطرابلس الغرب خلال القرن التاسع عشر. وكان الرحّالة الألماني هنيريش بارث أول من استعان بهذا الدليل الليبي في رحلته من طرابلس إلى تمبكتو وكوكه والتي استغرقت نحو خمس سنوات امتدت من 24/ 3/ 1850م ـ 28/ 8/ 1855م.

ورافق محمد القطروني ـ أيضاً الألماني رولفس في رحلته إلى بورنو ومنها إلى مندرة. فحاز ثقة رولفس لدرجة أن رشحه يحمل هدايا من ملك بروسيا إلى سلطان بورنو غير أن الرحّالة الألماني فون مالتسان، اقترح على رولفس أن يسند هذه المهمة للطبيب الألماني جوستاف ناختيجال الذي كان يعمل طبيباً لدى باي تونس، منذ عام 1863م، والذي كان نفسه يتطلع للقيام برحلة إلى أفريقيا[1] وعندما قدم ناختيجال إلى طرابلس، تعرف في بيت القنصل النمساوي على محمد القطروني، أثناء التقائه برولفس. ويعلق ناختيجال على تطلعه للقاء القطروني والتعرف عليه قائلاً: «لم يكن أبناء بلدي ـ يقصد رولفس ومرافقيه ـ محط اهتمامي، بل وجهّت جلّ اهتمامي إلى محمد القطروني، الرجل الوقور، الذي رافق بارث إلى تمبكتو ورفيق رولفس إلى بورنو، ومندرة، وإلى جمله المهارى الأبيض، الذي ركبه أثناء عودته من رحلته الأخيرة من بورنو إلى بلاده.

لقد أتى من بلده في فزان، فهو يعيش في قرية دجال بالقرب من مرزق، ويرغب أن يكون دليلي أيضاً، كان منهمكاً في إعداد حوية جمل للرحلة القادمة، وباحترام بالغ، نظرت إلى وجهه الأسود البشرة بتجعداته البالغة وأنفه الأفطس، ومنخاريه الواسعين، وفمه الخالي من الأسنان، والشعرات البيضاء المبعثرة في لحيته وأذنيه الكبيرتين وعينيه اللتين تفيضان بالطمأنينة.

إن محمداً لم يكن يكثر الكلام حسبما خبرته خلال سنوات طويلة، بل كان

(1) عماد الدين غانم، محرر ومترجم، رحلة عبر أفريقيا، مصدر سابق، ص41 ـ 42. انظر أيضاً: وثيقة رقم 312/ م15، ملف القناصل، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، ملحق رقم (1).

رجلاً متقدماً في السن هادئاً لطيفاً لا يتردد بالتضحية بنفسه في سبيل أصدقائه، وقلما يخرج عن طوره بسبب طبيعته وخبرته الواسعة. بادلني التحية وعبر باقتضاب عن السرور بمعرفتي واستغل فرصة توقفه عن العمل، كي يأخذ أوراق تبغ أخضر من علبة جلدية، ويضعها في فمه، يعض عليها ببقايا أسنانه مع قطعة نطرون. وكان يلبس فوق القميص الواسع المعتاد في موطنه فزان، جرداً صوفياً، يغطي به أجزاء من رأسه قصير الشعر، وكان يتربع فوق التبن الذي يحشو به الحوية التي يجهزها»[1].

لم يكن موقف ناختيجال من محمد القطروني، موقفاً أحادياً، فقد أدرك كل الرحّالة الذين استعانوا به، أهميته لإنجاز رحلاتهم، فتناصحوا بصحبته، وأثنوا عليه إلى درجة أن ناختيجال وضع صورته على كتابه (الصحراء والسودان)[2] ووضع رولفس صورته على غلاف كتابه (إسهامات جديدة في اكتشاف ودراسة أفريقيا) وهو يرتدي الجرد[3]. ونشرت مجلة الرحّالة الألمان Globus خبر وفاته في عام 1878م[4]. وبعد وفاته واصل ابنه المسيرة في تقديم يد العون والمساعدة للرحّالة، واستعان به بعض من استعانوا بأبيه من قبل، مثل رولفس، الذي صحبه في رحلته إلى الكفرة 1878م العام نفسه الذي توفى فيه والده[5] وقد نشر رولفس صورة هذا الابن علي محمد القطروني على غلاف كتابه (رحلة إلى الكفرة)[6].

إن مثل محمد القطروني وابنه علي، صورة حقيقية لما كان للخبرة الليبية بالطرق والمحطات التي تربط الشمال بالجنوب من دور بارز في خدمة الرحّالة وإنجاز مهماتهم في القرن التاسع عشر.

(1) Gustav Nactigal, Sahara und Sudan, Berlin. 1879, I. P. 190.
(2) Ibid, P. 19.
(3) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة عبر أفريقيا، مصدر سابق، ص45.
(4) Globus., 13, (1878), P. 185.
(5) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة عبر أفريقيا، مصدر سابق، ص45.
(6) المصدر نفسه والصفحة.

3 ـ تجارة القوافل مصدراً للمعلومات عن دواخل القارة الأفريقية:

منذ عهد الرومان، ومن بعده العهد البيزنطي، مثلث طرابلس طريقاً مناسباً لتجارة القوافل، بما تحمله من سلع شتى، عبر الطريق البحري القصير نسبياً، والذي يمر عبر صقلية ثم جزيرة مالطة إلى طرابلس من جهة، ومن جهة أخرى عبر ثلاثة مداخل برية رئيسية تعدّ أقصر معبر للصحراء إلى بلاد السودان، وهي: الأول يتجه جنوباً عبر واحة فزان إلى بحيرة تشاد، والثاني ينعطف نحو الجنوب الغربي عبر غدامس وغات إلى تمبكتو أما الثالث، فيسير تجاه الجنوب الشرقي عبر واحة الجفرة ثم سوكنة وزلة إلى وداي ودارفور في سودان وادي النيل[1].

لقد أدت هذه الخصوصية إلى اكتساب أبناء طرابلس وأهالي الواحات الداخلية الليبية معرفة متميزة بأحوال تجارة القوافل المارة ببلادهم وأسرارها ولم تقتصر هذه المعرفة على الدراية بطرق بلاد السودان ومداخلها من جهة الأراضي الليبية، وإنما تعدتها إلى معرفة بالأسواق والسلع وأنواعها وأنسب الأوقات للمرور، فضلاً عن منافذ البيع والشراء.

ومن ثمَّ، لعبت تجارة القوافل دوراً قوياً كمصدر للمعلومات عن دواخل القارة الأفريقية، ويبرز هذا الدور من جهتين الأولى دراية الليبيين وإلمامهم بالأحوال المختلفة في مناطق بلاد السودان الغربي والأوسط، والأخرى نقل معرفتهم هذه باعتبارهم وسطاء إلى غيرهم من خارج تلك المناطق الأفريقية، وبخاصة أولئك الذين كانوا يرغبون في التعامل مع الأسواق الأفريقية من تجار ووكلاء تجاريين وغيرهم من الأوروبيين، مما جعل من تجارة القوافل أن تكون ظاهرة أثارت اهتمام الرحّالة بليبيا في القرن التاسع عشر، إذ لم تعد المؤلفات العربية عن الرحلة في أفريقيا عبر الصحراء الكبرى المصدر الوحيد للأوروبيين لمعرفة تلك الجهات، بل صارت تجارة القوافل مصدراً لا يقل عن المؤلفات

(1) ريتشارد تولي، عشر سنوات في بلاط طرابلس، ت. عمر الديراوي أبو حجلة، ليبيا: طرابلس، مكتبة الفرجاني، ص8 ـ 9.

العربية وربما تفوقها نسبة لدراية الأدلاء والتجار العرب الذين يقصدون بلاد السودان عبر ليبيا بأحوالها ودروبها ومسالكها[1].

ثانياً/ المظاهر:

1 ـ بداية اهتمام الأوروبيين بالرحلة عبر ليبيا:

انعكست العوامل المشار إليها في عاليه على التفات الأوروبيين إلى أهمية ليبيا في العبور إلى أفريقيا. فأبدوا مزيداً من الاهتمام بالرحلة عبرها ومن خلالها وقد ساعد على ذلك، بروز مصالح الدول الاستعمارية من ناحية، وظهور رواد ومؤسسات علمية تدعم الحركات الاستكشافية لمعرفة دواخل القارة الأفريقية من ناحية أخرى، في ظل النهضة العلمية التي انتظمت في الغرب[2] ومع بداية القرن التاسع عشر الميلادي، بدأت كل من فرنسا وبريطانيا محاولة الوصول إلى القارة الأفريقية. وكانت طرابلس السبيل الأفضل لتحقيق هذه الغاية. وبعد وصول وارنجتون القنصل البريطاني إلى طرابلس في عام1816م، اقترح على حكومته في العام الذي يليه ضرورة إنشاء منصب نائب قنصل بريطاني في مرزق، عاصمة فزان، بقصد تحسين الاتصالات بمناطق ما وراء الصحراء وكان وارنجتون مدركاً لأهمية مرزق الاستراتيجية بالنسبة للوصول إلى بلاد السودان الغربي والأوسط، حيث إنها كانت مركزاً تجارياً مهماً، فضلاً عن كونها تمثل جسراً للتواصل بين شمال الصحراء الكبرى وجنوبها. ولذا رأى ضرورة أن توطد بلاده علاقاتها مع طرابلس الغرب بشتى الطرق وإن كلفها ذلك دفع مزيد من الأموال الأمر الذي حدا بوارنجتون أن يسارع بحثِّ وزارة المستعمرات البريطانية على دفع مبلغ (200,000) مائتي ألف دولار التي طلبها يوسف باشا القره مانلي لمواجهة التزاماته المالية[3].

(1) عماد الدين غانم، بداية التغلغل الأوروبي في الدواخل الأفريقية، صحيفة الشمس، عدد 1796، 30 مايو 1999م، ص5.

(2) أحمد صدقي الدجاني، أحاديث عن تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص88.

(3) Boahen, op. cit., P. 46-47.

لقد نجحت تلك السياسة التي انتهجها وارنجتون في استمالة يوسف باشا الذي كان يتمتع بعلاقات ودية مع بعض ملوك وحكام بلاد السودان الغربي والأوسط مثل كانم بورنو وسوكوتو، مما أتاح الفرصة لفتح طرق جديدة للقوافل التجارية عبر طرابلس إلى بلاد السودان[1]، بل أعطت ضمانات حماية للرحّالة الأوروبيين للوصول إلى بورنو عن طريق مرزق، وبقية الواحات الليبية[2].

وفي هذا الصدد استعانت بريطانيا ببعض الرحّالة الأوروبيين للاستفادة من خبراتهم في ميدان الكشف الجغرافي، من أمثال الرحّالة الألماني هنري بارث (Henri Barth) حينما بلغ الأمر ذروته في التنافس على الوصول إلى دواخل أفريقيا، عبر ليبيا، وذلك منذ مطلع العهد العثماني الثاني، في إطار موجة التكالب الأوروبي على استعمار القارة وتقسيمها إلى مناطق نفوذ[3].

ولم يكن الاهتمام بالرحلة إلى أفريقيا عبر ليبيا محصوراً على المؤسسات الرسمية وعلى مستوى الدول، بل شاركت فيه جهود بعض الأفراد ولعل أول من اهتم بدور طرابلس في الرحلة إلى أفريقيا هو الرحّالة الأمريكي جون ليادیارد John Ledyard الذي كان قد أطلع إلى اتخاذها نقطة انطلاق إلى استكشاف نهر النيجر، إلا أن المنية وافته في القاهرة في عام 1788م، أي قبل بداية مشروعه الطموح[4].

وعلى أثر ذلك حاول لوكاس القنصل البريطاني في طرابلس في عام 1788م نفسه، أن يبدأ رحلته من طرابلس قاصداً بلاد السودان الأوسط غير أنه عندما وصل مصراتة واجهته مصاعب عديدة اضطرته أن يقفل راجعاً من حيث أتى،

(1) بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، منتصف القرن السادس عشر ومطلع القرن العشرين، مرجع سابق، ص23.

(2) Boahen, op. cit., P. 46-47.

(3) مصطفى عبد الله بعيو، ليبيا في التاريخ، مرجع سابق، ص315.

(4) عماد الدين غانم، صحيفة الشمس، العدد 1796، مرجع سابق، ص5.

مكتفياً بكتابة تقرير دوّن فيه بعض المعلومات التي وصلت إلى مسامعه من فزان[1].

وهنالك رحلة ثالثة، قام بها الرحّالة الألماني فردريك هورنمان، حيث انطلق من القاهرة في عام 1797م إلى فزان ومنها رجع إلى طرابلس للتزود باحتياجات رحلته إلى بلاد السودان ومن ثم، واصل رحلته في العام نفسه إلى برنو التي لقي فيها حتفه، إلا أنه خلف وراءه مذكراته اليومية التي دون فيها ملاحظاته عن طرابلس، مهتماً بصفة رئيسية بالمناطق الداخلية للأراضي الليبية[2].

2 ـ تأسيس الجمعيات الجغرافية الأوروبية وتطور الرحلات إلى أفريقيا:

مع مطلع القرن التاسع عشر، دخلت عملية عبور ليبيا إلى بلاد السودان مرحلة جديدة، أملتها طبيعة الاهتمام الأوروبي المتزايد بالرحلة عبر طرابلس الغرب تجاه المناطق الأفريقية الواقعة فيما وراء الصحراء الكبرى وكانت بريطانيا وفرنسا أكثر الدول الأوروبية اهتماماً بتأسيس الجمعيات الجغرافية لدعم الرحلات الاستكشافية في دواخل القارة الأفريقية، وذلك بهدف تحقيق مصالحها الساعية إلى توفير المواد الخام لصناعاتها وإيجاد أسواق جديدة لتصريف منتجاتها، فضلاً عن إجراء دراسات علمية متنوعة لهذه المناطق لمعرفة طبيعتها وسكانها ومواردها الاقتصادية، توطئة لاستعمارها[3].

ولما كان الإنجليز أول من أدرك أهمية عبور الصحراء إلى أفريقيا فقد ترجموا ذلك عملياً إلى تأسيس جمعيات علمية متخصصة لتشجيع الرحّالة للقيام برحلات إلى أفريقيا. فأسسوا الجمعية الإنجليزية لاكتشاف أفريقيا الوسطى التي اجتمع أعضاؤها ـ لأول مرة ـ في لندن في التاسع من يونيو 1788م. وكان من

(1) عماد الدين غانم، صحيفة الشمس، العدد 1796، مرجع سابق، ص5.

(2) المرجع نفسه والصفحة.

(3) يحيى بو عزيز، اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء، البحوث التاريخية، طرابلس، 2، 1981م، ص358 ـ 359.

بينهم المتخصص في العلوم، والمتخصص في السياسة والمال وقد أعلنت هذه الجمعية أن القصد من تأسيسها هو العلم والمعرفة، قبل أي توجه آخر كما أوضحت أنها تهتم في الوقت ذاته بتشجيع البعثات العلمية، لاكتشاف خبايا أفريقيا وأسرارها باعتبار ذلك من أهم أهدافها(1).

لقد تأسست الجمعية الجغرافية الملكية بلندن في سنة 1831م(2) أما الاهتمام الفرنسي فقد بدأ بأفريقيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث تركز في البداية على الجنوب الجزائري، وصولاً إلى المناطق الليبية من خلال واحتي غدامس وغات. وكان في طليعة الرحّالة الفرنسيين (هنري دوفيريه)، ثم تولت الحكومة الفرنسية الإنفاق الرسمي على البعثات العلمية إلى أفريقيا، في ظل التنافس الشديد حينئذ، بينها وبين بريطانيا(3).

ففي عام 1824م، أرسلت الجمعية الجغرافية الفرنسية بعثة بقيادة باكو، انطلقت من الإسكندرية مروراً بالسلوم وطبرق وشحات وإجدابيا، ثم اتجهت إلى أوجلة ومرادة ثم قفلت راجعة عن طريق سيوة، وبعدها أرسلت فرنسا بعثة بريتشي العلمية إلى غدامس، وتلتها بعثة دوبير إلى طرابلس(4).

أما البعثات الألمانية، فقد بدأت في منتصف القرن التاسع عشر، حيث دعمت هذه البعثات نشاط الرحّالة والتجار الألمان(*) الوافدين إلى ليبيا وكانت

---

(1) اتيلو موري، مرجع سابق، ص8 ـ 9.

(2) مصطفى عبد الله بعيو، ليبيا في التاريخ، مرجع سابق، ص315.

(3) اتيليو موري، مرجع سابق، ص85 ـ 86.

(4) أحمد صدقي الدجاني، أحاديث من تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص93.

(*) يذكر أن جميع الرحّالة الألمان الذين أتوا إلى ليبيا قبل الوحدة الألمانية 1871م جميعهم كانوا تحت المظلة البريطانية ومن أبرزهم الرحّالة المشهور (بارث) الذي لم يقم بالرحلة فحسب بل كلف بعقد اتفاقيات مع دول بلاد السودان لصالح بريطانيا. انظر: عماد الدين غانم، الوثائق الألمانية وأهميتها في دراسة تاريخ ليبيا الحديث، الشهيد، طرابلس، 4، 1983م، ص243 ـ 254 ـ 257.

قد تأسست الجمعية الجغرافية الألمانية ببرلين في 1828م، غير أن نشاطها عطل حتى الستينيات من القرن التاسع عشر، غير أنه، برزت الجمعية الألمانية لدراسة أفريقيا في سبعينيات القرن نفسه، دليلاً على إدراك الألمان لأهمية البعثات العلمية لخدمة مصالح بلادهم(1).

وهكذا، حرصت الحكومات الأوروبية على الوصول إلى أفريقيا عبر ليبيا، فكونت مزيداً من الجمعيات الحكومية، وتولت الدول تمويلها، مما حفز عدداً من الرحّالة والمغامرين على القيام برحلات مهمة في أفريقيا، في محيط من التنافس بين الدول وبين الأفراد فقد ظهر هذا التنافس واضحاً بين حكومتي بريطانيا وفرنسا على أثر مقتل الرحّالة الإنجليزي (لانج) الذي أرسلته حكومته لكشف تمبكتو على نهر النيجر، ولكن لسوء حظه قتل بعد أن وصل إلى تمبكتو في سنة 1826م، وأدى هذا إلى تأزم العلاقات بين فرنسا وبريطانيا بسبب اتهام الحكومة البريطانية للقنصل الفرنسي روسو بالحصول على أوراق هذا الرحّالة الإنجليزي(2).

ثالثاً/ الرحّالة إلى أفريقيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر:

رغم الاهتمام المتزايد بالرحلة والرحّالة عبر ليبيا منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى العقد الرابع من القرن التاسع عشر، فإن النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد شهد تطوراً ملحوظاً في صقل مهارات الرحّالة وتوسيع مداركهم المعرفية، نتيجة لتسهيل الدوائر الرسمية مهماتهم وشمولها برعايتها، الأمر الذي أتاح لهذه الرحلات أن تدخل مرحلة النضج والإنجازات. وعليه، اتسمت رحلات النصف الأول من القرن التاسع عشر بتواضع حجمها ومحدودية معلوماتها، إذا ما قورنت بنظيرتها في النصف الثاني من القرن ذاته، علماً بأن بعض المصادر

---

(1) عماد الدين غانم، الوثائق الألمانية وأهميتها في دراسة تاريخ ليبيا الحديث، مرجع سابق، ص243 ـ257.

(2) مصطفى عبد الله بعيو، ليبيا في التاريخ، مرجع سابق، ص315.

أشارت إلى أن عدد الرحّالة الذين مروا بليبيا في طريقهم إلى بلاد السودان بلغ عددهم حوالي خمسين رحلة[1].

وعلى الرغم من تباين ملاحظات هؤلاء الرحّالة الأوروبيين وتسجيلاتهم لرحلاتهم، شكلاً ومضموناً بين حجم صغير وكبير، ومعلومات قليلة أو وافية عن طرابلس الغرب ومسالكها إلى أفريقيا، فإنها اجتمعت على ذكر ليبيا وأهميتها في الوصول إلى أفريقيا، حيث كثر ذكر طرابلس، ومرزق، وغدامس والواحات الداخلية الليبية في العديد منها، حتى بلغ حجم ما ذكر في هذا الشأن ما يكفي لعمل مجلد كامل خاص بطرابلس الغرب، كمدخل إلى معرفة أحوال المناطق الصحراوية وما ورائها في بلاد السودان[2].

لقد اتسمت رحلات النصف الأول من القرن التاسع عشر بسمتين رئيسيتين، الأولى انتساب غالبية رحاليها لأكثر من جنسية أوروبية، بالإضافة إلى بعض الرحّالة العرب والسمة الثانية ترتكز على الجهود الفردية لعدد من الرحّالين، وهي جهود لم تتم تحت رعاية رسمية من قبل الدول الأوروبية.

وفيما يلي، تتناول هذه الدراسة بعض الرحّالة الذين مروا بطرابلس في تلك الفترة، مبرزة التعريف بالظروف التي أحاطت برحلة كل منهم، متتبعة مراحلها منذ قيامها حتى نهايتها، مع إبراز ملاحظات هؤلاء الرحّالة في وصف طرابلس، متى، وجد ذلك.

(1) اتيليو موري، مرجع سابق، ص7 وما يليها.

(2) عماد الدين غانم، المجتمع الليبي لدى الرحّالة الأجانب، ندوة المجتمع الليبي 1835 - 1950م، تقديم وإعداد محمد الطاهر الجراري، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2005، ص2 وما بعدها.

1 - فريدريك هورنمان Frederick Horneman[*] 1797 - 1801م:

يعد فريدريك هورنمان أول رحّالة ألماني، تستعين به الجمعية البريطانية للكشف عن دواخل أفريقيا، في إطار سعيها للوصول لنهر النيجر وقد رأت هذه الجمعية أن تنطلق محاولات الوصول إلى النهر المذكور من ثلاث نقاط، هي القاهرة، طرابلس الغرب، وغرب أفريقيا وهكذا، أعد فريدريك هورنمان مشروع رحلته بنفسه لتكون القاهرة نقطة انطلاقه، كما لقي رعاية ودعم من لندن وباريس والقاهرة، حيث قابله نابليون بونابرت في 1798م، ومن ثم انطلق من القاهرة إلى سيوة في 1799م، متنكراً في زي تاجر مسلم، حتى وصل مرزق ماراً بأوجلة والهروج، لكنه رجع إلى طرابلس، حيث مكث فيها بضعة أشهر، ومنها أرسل يومياته إلى الجمعية البريطانية بلندن، عن الجزء الأول من رحلته، أي من القاهرة إلى مرزق. وذكر فيها وصفاً لفزان والطريق المؤدي إليها، كما أورد معلومات عن بعض القبائل مثل الطوارق والتبو ومناطقها. أما الجزء الثاني من رحلته التي قام بها خلال الفترة في 1799م وأوائل 1800م من مرزق إلى برنو، فقد ضمنها في الجزء الثاني من مذكراته التي أعطت وصفاً وافياً لرحلته تلك، حيث شملت بالإضافة إلى مرزق التي مكث بها بضعة أشهر، برنو ومناطق كاتسينا ونوبي، قرب نهر النيجر. غير أن هورنمان لم يتمكن من مواصلة رحلته، فإن المنية وافته في عام 1801م، بسبب إصابته بمرض الزحار[1].

(*) وُلد فريدريك هورنمان في هلدسهايم Hildesheim سنة 1772م، ودرس في غوتنقا Gottingen العلوم الطبيعية تحت إشراف العالم الشهير بلومنباخ Blumenbach الذي اكتشف فيه الميزات اللازمة لخلق مكتشف ممتاز، وقد أوصى به لجمعية لندن التي لم تتردد في اختياره مبعوثاً لها ولم يكتف بالعلوم الطبيعية، بل درس العلوم الفلكية واللغوية. انظر: اتيليو موري، مرجع سابق، ص11 وما بعدها.

(1) فريدريك هورنمان، رحلتان عبر ليبيا 1797 - 1798م، (طرابلس: مكتبة الفرجاني، ط1، 1974م)، ص15 وما بعدها.

2 ـ دومنجو باديا ليبليك Doming Badia Libelich(*)

(علي بك العباسي) 1767 ـ 1818م

اشتهر الرحّالة الإسباني دومنجو باديا ليبليك بلقب علي بك العباسي وقبل مجيئه إلى طرابلس، قام بزيارة لعدد من أقطار المشرق العربي والشمال الأفريقي وذلك خلال الفترة ما بين عامي 1803 ـ 1807م وليخفي حقيقة شخصيته تنكر في زي عربي واتخذ اسماً عربياً، بل وادعى الإسلام وكانت طرابلس إحدى المحطات التي زارها وسجل عنها ملاحظات وانطباعات قيمة تستحق الدراسة والتحليل والمقارنة.

لقد وصل علي بك إلى طرابلس في عام 1805م، وعند وصوله إلى شاطئ طرابلس يوم السبت 9/ 11/ 1805م(1)، وصف الإجراءات التي اتخذت لاستقباله مسجلاً ملاحظاته المختلفة عن أحوال هذه المدينة كما يلي:

1 ـ **الموقع والطقس**: أعطى تحديداً دقيقاً لموقعها الجغرافي إلى حد كبير في ظل إمكانياته المحدودة. فمدينة طرابلس تقع شمال خط الاستواء عند خط العرض 32 درجة و56 دقيقة وعلى خط طول 13 درجة وعشر دقائق شرقي خط غرينتش.

(*) وُلد هذا الرحّالة في برشلونة من أب إسباني وأم من أصل بلجيكي في 1/ 4/ 1767م ولا يعرف الكثير عن حياته وشبابه والمستوى التعليمي الذي وصل إليه، لكنه كان شغوفاً بتعلم الرياضيات والعلوم الطبيعية والجغرافيا والقراءة والاطلاع في تلك العلوم ويبدو أن مستواه التعليمي في تلك العلوم ومقدار تحصيله منها مكنه من أن يعين في وظيفة مالية في غرناطة في الرابعة عشر من عمره وقبل أن يصل سن العشرين توفي والده وخلفه في وظيفته في مدينة اليبرة بمقاطعة المرية وقد تزوج في تلك المدينة من فتاة في عام 1790 ثم انتقل إلى العمل في قرطبة التي أمضى بها أربع سنوات تركت فيه انطباعاً حسناً عن الحضارة الإسلامية. انظر: خالد محمد الهدار، زيارة الرحّالة الإسباني علي بك العباسي لطرابلس في أوائل القرن التاسع عشر، تراث الشعب، العدد 1، 2، 2003م، ص98.

(1) المرجع نفسه، ص99.

كما اهتم بالطقس في طرابلس، إذ ذكر أنه دافئ وحار صيفاً ويكون ربيعياً دائماً في بقية فصول السنة. أما عن مصادر المياه في طرابلس فقد ذكر أنه لا توجد ينابيع ولا أنهار بمدينة طرابلس والسكان مجبرون على الشرب من مياه الأمطار التي يحفظونها في صهاريج ملحقة بكل منزل(1).

وقدّر علي بك تعداد سكان مدينة طرابلس بحوالي اثني عشر أو خمسة عشر ألفاً أما عناصر السكان، فتتكون من العرب والأتراك واليهود إلى جانب أقلية من بعض الجاليات الأوروبية(2).

2 ـ **معالم المدينة**:

أ ـ **الشوارع**: وصف شوارعها بأنها أعطت جمالاً إلى مدينة طرابلس الواقعة على شاطئ البحر، حيث كانت هذه الشوارع مستقيمة وعرضها مناسباً كما أشار إلى أن شوارع الأحياء العربية الليبية كانت تتميز بالنظافة، إذا ما قورنت بشوارع الأحياء التي كان يسكنها اليهود.

ب ـ **المنازل**: فقد وصف منازل طرابلس بأنها منتظمة وجيدة البناء وأغلبها تميز بالبياض الناصع ويميل طرازها المعماري إلى الطراز الأوروبي(3).

ج ـ **المساجد**: أشار الرحّالة دومنجو إلى وجود ستة مساجد من الدرجة الأولى في مدينة طرابلس وستة مساجد أخرى أصغر حجماً ويقصد بمساجد الدرجة الأولى تلك المساجد الفخمة والضخمة التي تتميز بمآذنها المرتفعة التي تلوح في الأفق ويشاهدها القادم إلى المدينة من عرض البحر وهذه المساجد المعنية، هي جامع الخروبة، جامع

---

(1) خالد محمد الهدار، مرجع سابق، ص102 وما بعدها.

(2) خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحّالة العرب والأجانب، (طرابلس: الدار العربية للكتاب، ط 3، 1997م)، ص149.

(3) المرجع نفسه، ص148.

طورغود، جامع سيدي سالم المشاط، جامع محمود، جامع أحمد باشا، وجامع شائب العين[1].

د ـ **معالم أخرى**: ومن معالم مدينة طرابلس الأخرى التي أشار إليها علي بك إشارات عابرة شملت السجون والفنادق والمقاهي والحمامات، أما الوضع السياسي فليس غريباً أن يهتم علي بك بالتحدث عن الحياة السياسية في مدينة طرابلس فمن منطلق مهمته كجاسوس، كان يهتم كثيراً بجمع المعلومات السياسية عن البلاد التي يحل بها ومنها مدينة طرابلس، فخلال إقامته بها اتصل بقناصل الدول الأوروبية وعلى رأسهم قنصل فرنسا وفي الوقت نفسه كانت لديه حظوة عند يوسف باشا مكنته من الاتصال بالأسرة الحاكمة بمجرد وصوله إلى المدينة ومن تقديم تفاصيل عن تطورات الحياة السياسية في مدينة طرابلس خلال عهد الأسرة القره مانلية[2].

3 ـ جون فرنسيس ليون John Francis Lyon(*) 1818 ـ 1820:

قام الرحّالة البريطاني ليون برحلته عبر ليبيا، بقصد الوصول إلى أفريقيا، فيما بين سنتي 1818 ـ 1820م. ومع أنه، لم يصل إلى مناطق ما وراء الصحراء ولم يتجاوز فزان، إلا أنه نجح في تقديم معلومات أكثر دقة وأحدث مما أورده هورنمان، خاصة تلك المعلومات التي سجلها عن المناطق الواقعة جنوبي مرزق وحول غات والطرق المخترقة لمنطقة التبستي. وقد أعد ليون تقريراً شاملاً سجل فيه ملاحظاته وانطباعاته حول الأحداث التي أحاطت برحلته[3] كما أنه رسم

(1) خالد محمد الهدار، مرجع سابق، ص112.

(2) المرجع نفسه، ص116 وما بعدها.

(*) ليون رحّالة بريطاني الجنسية، قام برحلته عن طريق طرابلس فيما بين عام 1818 ـ 1820م ولم يصل إلى أفريقيا. انظر جون فرنسيس ليون، من طرابلس إلى فزان 1818 ـ 1820م، ت. مصطفى جودة، طرابلس ـ تونس: الدار العربية للكتاب، 1976، ص15.

(3) اتيليو موري، مرجع سابق، ص39 وما بعدها.

خريطة تعد الأولى من نوعها في توضيح بعض معالم الطرق والمسالك المؤدية لمناطق ما وراء الصحراء، وإن كانت رحلته باءت بالفشل ولم تحقق أهدافها الرامية إلى التغلغل في بلاد السودان، كما هو الحال بالنسبة للرحالة هورنمان[1].

وتجدر الإشارة إلى الملاحظة التي أبداها الرحّالة ليون حول الجالية اليهودية في طرابلس، حيث قال فيهم: «ولليهود حيٌّ خاص بهم، يسمى زنقة اليهود، وهؤلاء الناس مكروهون كثيراً فهم يحتكرون كل أنواع السلع ويغنمون من وراء تلك كثيراً ومحرم عليهم كما قلت لبس الملابس المزخرفة، ويسمح لهم بلبس العمائم الزرق»[2].

كما قدم وصفاً للحمامات في طرابلس الغرب إذ وصفها بأنها تشبه إلى حد بعيد حمامات تركيا ومصر، وبأنها لا تتميز بالفخامة، واستطرد في وصف طريقة دخول الرواد للحمامات، وبعد دخولهم إلى غرفة البخار والخروج منها، وكذلك، تعرض إلى العلاج الطبيعي وإلى الأشخاص القائمين بإجراء التمرينات للرواد. وفي الوقت نفسه يذكر أن القهوة والنرجليا والعطور كانت تقدم لرواد الحمامات، وأن الزمن المحدد للدخول هو في الصباح، في حين أن دخول النسوة كان في فترة المساء[3].

(1) جمال الدين الدناصوري، جغرافية فزان، (بنغازي: دار ليبيا للنشر والتوزيع، 1967م)، ص27.

(2) جون فرنسيس ليون، مصدر سابق، ص15.

(3) المصدر نفسه، ص16 وما بعدها.

4 ـ دنهام Denham Dixon[*] 1786 ـ 1828:

كلابرتون Clapperton[**] 1788 ـ 1827

أودني Oudney[***] 1790 ـ 1824:

قامت الجمعية الجغرافية في لندن بإعداد حملة واحدة تضم كل من دنهام وكلابرتون وأودني بغرض الوصول إلى دواخل أفريقيا فيما وراء الصحراء الكبرى وقد زودتهم هذه الجمعية بأموال كافية، ومؤن وأدوية وكميات كبيرة من السلع لبيعها أو مقايضتها عند الحاجة[1]. لقد خرجت رحلتهم من طرابلس في مارس 1822م سالكة الطريق نفسه الذي اتبعه ليون في رحلته المذكورة حيث وصل الرحّالة الثلاث إلى مرزق في أبريل في العام ذاته فقد توجه دنهام إلى طرابلس للحصول على حرس من الباشا لتوفير الأمن للرحالة لمواصلة سير الرحلة. أما كلابرتون وأودني، فظلا في مرزق أربعة أشهر انتظاراً لعودة دنهام، إلا أنهما قاما

(*) وُلد دنهام بلندن في 1 يناير 1786م، ارتبط اسمه واشتهر بالرحلات التي قام بها في أفريقيا وهو رجل عسكري برتبة مقدم، درس في بداية حياته بمدرسة ميرشنت تيلور سنة 1793م عمل بلندن في مكتب محامي ثم تطوع بعدها في الجيش بكتيبة ويلز الثالثة والعشرين الملكية سنة 1811م، كانت شخصية دنهام بين أقرانه متميزة وذلك بسبب شجاعته ونشاطه. انظر: Christopher Hibbert, P. 81.

(**) كلابرتون رحالة استكلندي اشتهر برحلاته الناجحة التي قام بها في أفريقيا، ولد بمدينة أنان Annan بمقاطعة زمفرز شاير سنة 1788م، كان والده جورج كلابرتون طبيباً جراحاً، يبلغ عدد أبنائه واحد وعشرين ولداً من زوجتين، ويعتبر هيو الابن الأصغر من زوجته الأولى، لم يكمل هيو تعليمه ولكنه تمكّن من اكتساب خبرة في فن الملاحة. انظر:

The Dictionary of National, Biography, Vol. 7, P. 372-374.

(***) وُلد أودني في شهر ديسمبر سنة 1790م من أسرة متواضعة بأدنبِرة باسكتلندة، وكان طبيباً جراحاً بالبحرية الملكية، وأحد الرحّالة الذين ارتبط اسمهم بالبعثات الاستكشافية الأفريقية، عين أودني كمساعد جراح بالبحرية الملكية سنة 1810م نتيجة لمعرفته بالطب والجراحة. انظر:

Christopher Hibbert, op. cit., P. 81.

(1) A. A. Boahen, op. cit., P. 60.

خلال تلك الفترة نفسها بالتجوال في مناطق فزان الغربية حتى انتهى بهما المطاف في غات التي لم يصلها قبلهما أي رحالة أوروبي[1].

وحينما عاد دنهام من طرابلس إلى مرزق استأنف الرحّالة الثلاث رحلتهم المتجهة إلى بلاد السودان الأوسط مروراً بالقطرون وتجرهي، إلى أن وصلوا إلى منطقة حوض بحيرة تشاد، حيث استغرقت رحلتهم زهاء العامين تقريباً تكبدوا خلالها متاعب كثيرة[2] غير أن أفراد الرحلة المذكورة تمكنوا من مقابلة الشيخ محمد بلو سلطان سوكوتو ومحمد الأمين الكانمي[*] شيخ برنو، الأمر الذي يعد إنجازاً كبيراً لهذه الرحلة التي كشفت لهؤلاء الأوروبيين مدى ما كان يتمتع به الزعيمين الأفريقيين المعنيين من ثقافة عالية ونضج فكري وعلاقات وطيدة بيوسف باشا حاكم طرابلس[3].

بيد أن الرحّالة الأوروبيين الثلاث لم يكملوا مشروع رحلتهم لوطأة المرض الذي ألم بالرحّالة أودني الذي وافته المنية في 12 يناير 1824م فاضطر كلابرتون ودنهام للعودة إلى طرابلس عبر فزان[4].

---

(1) الدناصوري، مرجع سابق، ص17 وما بعدها.

(2) المرجع نفسه، ص17 وما بعدها.

(*) محمد الأمين الكانمي المعروف بالشيخ لمنو وهو من مواليد فزان وتلقى تعليمه في طرابلس الغرب، وتزوج من ابنة أمير نغالة في كانم وكان مشهوراً بحكمته وورعه وشارك في صد الغزوات في شرق بحيرة تشاد، انظر دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع، ص125 وما بعدها، وكذلك الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مصدر سابق، ص319.

(3) A. A. Boahen, op. cit., P. 62. انظر كذلك: اتيلو موري، مرجع سابق، ص37. وكذلك: كولا فولايان، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا، ت. عبد القادر المحيشي، مراجعة صلاح الدين حسن السوري، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط1، 1988م، ص123 وما بعدها.

(4) الدناصوري، مرجع سابق، ص17 وما بعدها.

5 ـ لاينج(*) Gorden Laing (1793 ـ 1826):

في أواخر عام 1824م، فكر اللورد باترست Lord Batturst وزير المستعمرات البريطاني في أن يعهد إلى الرحّالة لاينج بمهمة الوصول إلى مدينة تمبكتو عن طريق طرابلس، وذلك بهدف استكمال اكتشاف مجرى نهر النيجر. وهكذا بدأت رحلة لاينج من لندن في 5/ 2/ 1825م متوجهاً إلى طرابلس. وهناك توثقت علاقته بالقنصل الإنجليزي وارنجتون، حيث تزوج ابنته إيما ماريا Emma Maria، في 14 يوليو 1825م. بيد أن لاينج رأى أن يواصل رحلته إلى بلاد السودان الأوسط، بعد يومين من زواجه، وفي هذا الصدد، تلقى دعماً ورعاية من صهره وارنجتون الذي كانت لديه علاقات حميدة تربطه بالشيخ البيباني، وهو من أصحاب الخبرة الواسعة بمنطقة تمبكتو، إذ كان قد مكث بها حوالي اثنين وعشرين عاماً. ولذا قام وارنجتون باختيار الشيخ البيباني لمرافقة الرحّالة لاينج.

بدأت رحلة لاينج من طرابلس في 16 يوليو 1825م متخذة طريق بني وليد المعروف بطريق البريد، حيث كان أكثر أمناً من طريق غريان الذي تحفه المخاطر بسبب اندلاع الثورات وقتئذ في منطقة الجبل الغربي. وقد استطاع لاينج أن يصل بسلام إلى وادي الشاطئ ومن ثم، تجول في أماكن عديدة من فزان[1]. وبعد ذلك، اتجه نحو غدامس التي وصلها في 13 سبتمبر 1825م وأقام بها مدة شهرين ونصف الشهر، حيث سجل خلال هذه الفترة المعنية معلومات مهمة عن الموقع الجغرافي لغدامس وبعض الملاحظات الوصفية الدقيقة حول هذه المدينة وواحاتها. غير أنه حينما وصل إلى تمبكتو في 18 أغسطس 1826م قادماً من

(*) وُلد الكسندر غوردن لاينج Alessandro Gordon Laing في أدنبرة في 27 ديسمبر سنة 1793م. وكان مثقفاً من ضباط وزارة المستعمرات البريطانية، وبعد أن عمل في الهند الشرقية عدة أعوام انتقل إلى مستعمرة سيراليون ثم ساحل العاج حيث قام بمهمات كبيرة ذات طابع جغرافي، أظهرت صفاته ومواهبه كمكتشف. انظر: اتيلو موري، مرجع سابق، ص38.

(1) المرجع نفسه، ص38 وما يليها.

غدامس، لقي مصرعه في ظروف غامضة ويرجح أنه قتل على يد مجموعة من رجال الطوارق[1].

6 ـ جيمس ريتشاردسون James Richardson(*) (1806 ـ 1851):

بدأ رحلته مباشرة من طرابلس إلى غدامس في 1845م، وحينما وصل إلى غدامس في 25 أغسطس من العام نفسه ومكث بها ثلاث أشهر درس خلالها تاريخ المدينة ومعالمها. وبعد ذلك، حاول أن يواصل رحلته عبر الصحراء في اتجاه بلاد السودان الأوسط، سالكاً طريق غات، على الرغم من أنه يعد ثالث رحّالة أوروبي استطاع الوصول إلى غات بعد أودني وكلابرتون، فإن عوامل عديدة حالت دون تحقيق الهدف الرئيسي لرحلته ولعل من أهمها عدم توفر الأمن في الطريق فضلاً عن قسوة المناخ. ولذا، رأى أن يقفل راجعاً من غات إلى طرابلس عبر مرزق، برفقة إحدى قوافل تجار الرقيق[2].

لقد حاول ريتشاردسون أن يعطي وصفاً لمدينة طرابلس وقلعتها وميناءها، عند زيارته لها فقد وصف هذه المدينة بقوله: «يبدو منظر طرابلس من البحر بمظهر شامخ، يشدُّ النظر بصوامعه العريضة البيضاء، ومآذنه الجذابة، وهي تتلألأ بيضاء تحت أشعة الشمس في صورة مغايرة لمياه البحر ذات اللون الأزرق الغامق».

أما قلعة طرابلس، فقد وصف حالتها بالتردي والخراب إلى درجة تثير الاشمئزاز وكأنها سجن متهدم تحيط به ممرات ضيقة ومظلمة توحي منعطفاتها بالخطر الداهم، وفي الوقت ذاته صوّر القلعة بأنها كانت بؤرة للمجازر والمآسي،

---

(1) اتيلو موري، مرجع سابق، ص38 وما يليها. انظر كذلك: الدناصوري، مرجع سابق، ص38.

(*) جيمس ريتشاردسون رحّالة إنجليزي من مواليد لنكلون شاير عام 1806م، درس في المعاهد الدينية، وكلف بجمع معلومات عن تجارة الرقيق في أفريقيا الشمالية، وتنكر باسم يعقوب وتوفى سنة 1851م. انظر اتيلو موري، مرجع سابق، ص43.

(2) الدناصوري، مرجع سابق، ص18 وما بعدها.

إذ أشار إلى أن كل من دخلها لقي حتفه وعلى حد قوله، لا يستطيع المرء تصوير مدى فداحة الجرائم التي ارتكبت بين جدران قصر أحمد باشا القره مانلي، ووفقاً للمعلومات التي تحصل عليها أثناء تواجده بطرابلس وفيما يختص بوصفه لميناء طرابلس، فقد أفاد ريتشاردسون بأنه ينقسم إلى قسمين، القسم الأول عبارة عن الميناء القديم، وهو محمي من العواصف وقوة الأمواج بحاجز صخري، مما جعله صالحاً لرسو السفن وإقلاعها منه بأمان. أما القسم الثاني فيتكون من ميناء أصغر حجماً من الأول، ويبعد عنه بنحو ميلين جهة الشرق، وبالتالي كانت أهميته الملاحية أقل شأناً من رصيفه المذكور[1].

وفي عام 1850م، انضم ريتشاردسون إلى أوفرفيج وبارث في طرابلس، حيث أمضوا بضعة أسابيع من أجل الدراسة والتدريب والاستعداد لرحلة مشتركة إلى منطقة فزان وقد سلك هؤلاء الرحّالة الثلاث طريقاً آخراً متجهاً من طرابلس إلى فزان عبر الحمادة الحمراء. وفي 22 أبريل 1850م مروا ببئر الحسى، عند خط عرض 15 ـ 18شمالاً، وهي تقع عند حدود فزان الشمالية ومن بئر الحسى، ساروا إلى وادي الشاطئ، مارين بأدري وجرمة وتكركيبة، ليصلوا إلى مرزق في 6 مايو 1850م، حيث مكثوا فيها بعض الوقت متجولين في المنطقة، ثم قرروا التوجه إلى غات، إلا أن قسوة المناخ أودت بحياة كلٍّ من ريتشاردسون وأوفرفيج في عام 1851م[2]. وأشارت كتابات ريتشادرسون وملاحظاته التي سجلها عن واحات غدامس وغات ومرزق والبركت إلى أهمية فزان كمركز انطلاق وبوابة لبلاد السودان الغربي والأوسط، ففي أثناء تواجده في تلك الواحات المذكورة، فقد استطاع أن يرصد بعض الملاحظات القيمة عن بلاد السودان، من خلال ما تناقله التجار الوافدون في تلك البقاع[3].

---

(1) جيمس ريتشاردسون، ترحال في الصحراء، ت. الهادي مصطفى أبو لقمة، بنغازي، جامعة قاريونس، 1993م، ص32 وما بعدها.

(2) الدناصوري، مرجع سابق، ص19 وما بعدها.

(3) المرجع نفسه، ص18 وما بعدها. انظر كذلك: اتيلو موري، مرجع سابق، ص43..

7 ـ بارث Heinrich Barth[*] (1821 ـ 1866م):

كان بارث مهتماً بالدراسات التاريخية والأثرية والجغرافية، ومغرماً بالسفر والترحال إلى المناطق التي اطلع على تاريخها، لمشاهدة آثارها ومعرفة جغرافيتها. ولذلك، سافر إلى لندن عام 1845م لدراسة الآثار الموجودة بالمتاحف البريطانية وللحصول على مزيد من المعلومات التي تخدم توجهه وتساعده على إنجاز ما هو عازم عليه ومن ثم، زار فرنسا وألمانيا بمفرده عدة أسابيع للغرض نفسه، وبعدها اتجه صوب المغرب الأقصى الذي بدأ منه رحلته الساحلية الأولى، والتي شملت كل من الجزائر وتونس مروراً بطرابلس الغرب وخليج سرت وبرقة وقورينا حتى وصل إلى مصر. وبفضل جهاز التصوير الذي كان يحمله أثناء هذه الرحلة الطويلة، دعم ملاحظاته ومشاهداته وتسجيلاته بعدد من الصور لشتى المناطق التي مر بها. وقد احتوت ملاحظاته وتسجيلاته على معلومات جغرافية وانتروبولجية وأثرية مهمة غير أنه أثناء عبوره للحدود المصرية قادماً من ليبيا، هجمت عليه بعض قبائل البدو في 7 يوليو 1846م، فنهبت متاعه ومن ضمنها بعض أوراقه ومدوناته عن رحلته، خاصة ما سجله عن برقة، إلا أنه كان من حظه أن بقي في حوزته عدد من الأوراق بالإضافة إلى ما كان قد أرسله إلى أهله، مما مكنه من إعداد تقرير عن تلك الرحلة ونشر بعد عودته إلى ألمانيا بعامين[1].

أما رحلته الثانية، فقد جاءت من خلال الرحلة الجماعية التي رافق فيها كلاً من ريتشاردسون الإنجليزي، وأوفوفيج الألماني[2] وقد رشح السفير البروسي دي

(*) هنيريش بارث من مواليد هامبورغ، وكان مهتماً بالدراسات التاريخية والأثرية والجغرافية واقترنت شهرته بالرحلة الكبرى التي قام بها رفقة ريتشاردسون وأوفيرفيج والتي استغرقت خمس سنوات ونصف السنة اتخذ خلالها اسم عبد الكريم. وقد زار مرزق في مايو 1850م وهو في طريقه إلى بلاد السودان، ثم زارها في عام 1855م وهو في طريق العودة. انظر: اتيلو موري، مرجع سابق، ص47 وما بعدها.

(1) المرجع نفسه والصفحة وما بعدها.

(2) سبق الإشارة إلى هذه الرحلة في هذا البحث، ص36.

بونسن Bunsan، بناء على اقتراح من العالم الجغرافي الألماني كارلو ريتر بارث ليكون عضواً في الرحلة المزمع إعدادها من قبل السلطات البريطانية. غير أن بارث أصبح متردداً للمشاركة في هذه الرحلة، بسبب خشية والده من خطورتها على حياته[1]، إلا أن اللجنة المشرفة على مشروع هذه الرحلة تمكنت من إقناعه بضرورة انضمامه لها لا سيما أنه قد اكتسب خبرة علمية وعملية واسعة أثناء رحلته السابقة لبلاد السودان الأوسط وحينما توغل الرحّالة الثلاثة في بلاد السودان الأوسط توفي كلّ من ريتشاردسون وأوفرفيج في ظروف غامضة لم تكشف المصادر المتاحة أسبابها. بيد أن الرحّالة بارث قطع رحلته وعاد بمفرده إلى فزان، حيث وصل إلى مدينة مرزق في 14 يوليو 1855م، ومنها اتجه إلى طرابلس ماراً بمدينة سوكنة. وتعد ملاحظات ومشاهدات وتسجيلات بارث مساهمة قيمة بالنسبة لكشف النقاب عن بعض المناطق الواقعة ما وراء فزان والتي كانت المعلومات عنها غير معروفة لدى الرحّالة الأوروبيين الذين سبقوه[2].

8 ـ محمد بن عمر التونسي[*] (1789 ـ 1857):

يُعد محمد بن عمر التونسي من الرحّالة العرب المشهورين في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وكانت رحلته إلى دار فور ووداي أكسبته شهرة واسعة في تلك الجهات التي قام بتسجيل أحوالها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية. وعندما عزم على العودة إلى بلاده تونس، قام برحلة معاكسة للرحلات الأوروبية التي درجت على السير من الشمال إلى الجنوب، أما محمد

(1) اتيلو موري، مرجع سابق، ص20.

(2) الدناصوري، مرجع سباق، ص20.

(*) محمد بن عمر التونسي: هو من مواطني تونس (1789 ـ 1857م) تلقى شطراً من تعليمه في القاهرة، وقام برحلات عديدة إلى منطقة دارفور في السودان الشرقي ووداي بتشاد، وذلك في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد السادس، ص115 وما يليها. وكذلك محمد بن عمر التونسي، رحلة إلى وداي، تحقيق عبد الباقي محمد، (الخرطوم: دار منكوب، 2002)، ص1 وما يليها.

ابن عمر التونسي، فقد اتجه من وداي شمالاً قاصداً طرابلس، وأثناء تواجده فيها أعطى وصفاً قيّماً لمدينة طرابلس، اشتمل على معلومات مهمة قلما تجدها في كتابات الرحّالة الأوروبيين في تلك الفترة، ويصف لحظة دخوله لطرابلس في المساء قائلاً: «وشاهدنا تحت جدارها رجلاً مشنوقاً، ونزلنا في بيت محمد بن يونس، وهو من مساعدي يوسف باشا القره مانلي وله بيت أيضاً في مرزق»[1]، كما يشبّه طرابلس بأحد أحياء القاهرة فيقول: «إن سكان طرابلس يمكن أن يأويهم جميعاً حيُ واحدٌ من أحياء القاهرة إن حي برجوان يمكن أن يبتلع مدينة طرابلس كلها بحصونها وقلاعها ولا يترك شيئا ظاهراً خارجه، بل يمكن إخفاؤها بالكامل في حي الجوينية بالقاهرة أيضا»[2]. وكذلك أوضح أن لطرابلس بابين فقط، أحدهما في اتجاه سوق الثلاثاء، والآخر في جانب البحر، وبها قاعة كبيرة تسمى (سوق الرب) وفي مداخل هذه القاعة المذكورة وضعت أبواب يقف عليها حراس وكلاب لحراستها وفي الوقت ذاته أفاد بأن غالبية تجار طرابلس كانوا من جربة التونسية، ولا يوجد بها إلا قلة من التجار الطرابلسيين وفي معرض حديثه ذكر سوق الترك والدكاكين الموجودة به، وعن مساجد طرابلس قال: إن أجملها مسجد الباشا المقابل للقلعة[3]. أما وصفه لمدينة المنشية فقد أورد قائلاً: «المنشية مدينة ذات مساحة بامتداد وطول واسعين، وقد لا يعبرها المرء في طولها إلا في أربع ساعات، بيوتها مبنية على طراز بيوت مدن مصر، باستثناء بيوت وقصور الأكابر»[4]. ويرجح الرحّالة التونسي أن السبب في طول المنشية أن وراء كل بيت عزبة فيها حديقة ذات أشجار ونخيل وأرض زراعية يمتلكها تقريباً سكان أصل غالبيتهم من العرب البدو[5].

(1) محمد بن عمر التونسي، مرجع سابق، ص413.

(2) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(3) نفس المرجع والصفحة.

(4) نفس المرجع والصفحة.

(5) نفس المرجع والصفحة.

رابعاً/ الرحّالة إلى أفريقيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر:

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، زادت أهمية أفريقيا لدى الدول الأوروبية، مما اضطرها إلى السعي لحسم الصراعات الناشئة فيما بينها، سواء في استغلال إمكاناتها الطبيعية والبشرية وما تزخر به القارة السمراء من ثروات، أو في إمكانية استخدام منافذ القارة ومداخلها في الوصول إلى مستعمراتها، ولذلك زاد الاهتمام الأوروبي بالبعثات الاستكشافية إلى أفريقيا الذي تركز على العبور إليها من خلال طرابلس، وهذا سيتضح عند التعريف بعدد من رحّالة النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين على النحو التالي:

1 ـ هنريك دوفيرير Enrico Duveyrier[*] (1840 ـ 1892):

هنريك دوفيرير رحّالة فرنسي، قام بأول رحلاته في عام 1861م، بدعم من السلطات الفرنسية، خدمة لتوجهاتها الاستعمارية التي تهدف إلى التوغل في المناطق الصحراوية، وقطع الطريق على بقية الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا.

لقد زار دوفيرير الجزائر قبل أن يبدأ رحلته في الصحراء الكبرى، ومتخذاً من فزان منطلقاً له للوصول إلى مجاهل المناطق التي يمتد جنوبها حتى بلاد السودان الأوسط، فاهتم كثيراً بالمناطق التي كان يتجول فيها الطوارق، إذ التقى بالقنصل الفرنسي في غات، والذي شجعه بالقول والفعل، فضمه إلى قافلة المسمى بالأمير الحاج محمد زعيم قبيلة طوارق إزقر.

(*) وُلد هنريك دوفيرير بباريس في 28 فبراير 1840م، وأظهر حماسة عنيفة للاكتشافات الجغرافية وظهرت مواهبه واستعداداته، وقد تكون تكويناً صالحاً في مجال الرصد الفلكي وجمع الطبيعيات والبحث الجغرافي بصفة عامة، وقد قام برحلته متنكراً في زي عربي مسلم تحت مسمى (سي سعد). انظر: اتيلو موري، مرجع سابق، ص66 وما بعدها. وكذلك عماد الدين غانم (محرر ومترجم) رحلة عبر أفريقيا، مصدر سابق، ص46. انظر أيضاً وثيقة رقم 192م 3 ق، ملف القناصل، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، بالملحق رقم (2).

ومن هناك، سلك مع هذه القافلة طريقاً جديداً يقع غرب الطريق الذي كان قد سلكه ريتشاردسون ولكن، بسبب نزاع كبير نشب في تلك المنطقة، اتجه دوفيرير إلى بلدة تونين بمنطقة غات، ومكث فيها مدة أسبوعين من 14 مارس إلى 28 مارس 1861م، وبعدها اتجه برفقة دليله إلى مرزق التي أقام فيها فترة من الزمن مما أتيح له التعرّف على الظروف السائدة وقتئذ في المنطقة المحيطة بمرزق وبعد ذلك، اضطر إلى العودة بعد أن وصل إلى زويلة ومنها إلى طرابلس، عن طريق سوكنة[1] فقد ساعدته التوصيات التي قدمها له القنصل الفرنسي بوتا P. E. Botta لدى الوالي العثماني محمود باشا في تمكينه من القيام برحلة في الدواخل الليبية، إذ طلبت تلك التوصية أن يقدم الموظفون التابعون للحكومة العثمانية العون لدوفيرير والعمل على استضافته وحمايته[2].

وعلى الرغم من أن دوفيرير قد اهتم بتسجيل ملاحظاته ومشاهداته عن غات وأهلها من الطوارق بصفة عامة وفزان بصفة خاصة، فإنه لم يذكر طرابلس التي أقام فيها خلال عودته إليها من رحلته المذكورة لأنها لم تقع في دائرة اهتمامه.

2 ـ غيرهارد رولفس Gerhard Rohlfs[*] (1831 ـ 1861):

قام رولفس بثلاث رحلات عبر طرابلس الغرب، خلال خمس عشرة سنة،

---

(1) الدناصوري، مرجع سابق، ص21.

(2) اتيلو موري، مرجع سابق، ص67.

(*) وُلد غيرهارد رولفس في 14/ 4/ 1831م في بلدة فيغزاك القريبة من بريمن، وتقع على الفيزار، وإن والده غوتفريد هينريش رولفس كان طبيباً يعول أسرة من سبعة أطفال. ويقال أن رولفس كان يفضل الرياضة واللعب على إنجاز واجباته المدرسية، وكان يميل إلى الجغرافيا والتاريخ واللغة الإنجليزية والفرنسية، وفي الخامسة عشر من عمره كان يدرس الثانوية في مدينة اوسنبروك وكان القلق وحب المغامرة يسيطران عليه، فترك المدرسة وتوجه إلى روتردام ليصل على ظهر إحدى السفن، فتعقبته أمه وأدركته في اللحظة الأخيرة وأقنعته بالعودة إلى المدرسة، إلا أنه لم يستمر طويلاً في الدراسة، إذ توجه إلى مجال جديد هو مجال الجندية. انظر عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة عبر أفريقيا، مصدر سابق، ص23 وما يليها.

وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[1]، فقد بدأ رحلته الأولى (1865 ـ 1867) من مدينة طرابلس في اتجاه مرزق، ومنها إلى كوكه عاصمة بورنو، ثم إلى لاغوس بنيجيريا، أما ما ذكره في وصفه لمدينة طرابلس، فقد ضرب مثلاً بالبيت الذي أقام فيه قائلاً: «وهو بيت بسيط تقليدي، ذو فناء داخلي وغرف للسكن ومطبخ وقبو وغرف للمؤونة، وخلف البيت يمتد بستان صغير يطل على البحر زرعت فيه أشجار البرتقال، التي كانت تزهر في ذلك الحين ولا يمكن تصور سكن أفضل من ذلك، ونشدت الهدوء بإقامتي في الريف، بعد أن افتقدته في المدينة، وخاصة أن الطرابلسيين يتصفون باللطف وحسن العاشرة»[2].

رحلة رولفس الثانية (1868 ـ 1869م) بعد أن اكتسب رولفس خبرة واسعة وعرف في الأوساط الأوروبية بأنه من أبرز الرحّالة الأوروبيين، قام برحلته الثانية منطلقاً من طرابلس إلى الإسكندرية.

ولما كانت هذه الرحلة قاصرة على طرابلس والإسكندرية فقد تركزت تسجيلاته فيها على طرابلس، فأفاض في وصف بيوتها ومناخها ومساحتها وغيرها من الجوانب الأخرى، وفي هذا الصدد، يقول: «إن مساحة الولاية تبلغ مساحة عموم ألمانيا وأن معظم الأراضي تتشكل من السرير والحمادة[3]، أو من جبال صخرية عارية، لا توجد عليها نباتات وهي تمثل الجبال الجنوبية في كتلتي السوداء والهروج التي تمتد من الغرب إلى الشرق، أما مناخ طرابلس ففي الشريط الساحلي يشبه مناخ مصر السفلي وتزداد الحرارة في منطقة سرت، وفي الجبال يشبه مناخ

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص8. وكذلك الدناصوري، مرجع سابق، ص22 وما بعدها.

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة عبر أفريقيا، مصدر سابق، ص135 وما بعدها.

(3) السرير هو الأرض المنبسطة الخالية من السكان وآبار المياه، والحمادة هي الأرض الواسعة والمنبسطة في غالب أجزائها وتمتد من حدود الجزائر غرباً حتى واحة الكفرة شرقاً ويمر بها المسافر من طرابلس إلى فزان وتقدّر مساحتها بحوالي 100,000 مائة ألف كيلومتر مربع. انظر الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، مصدر سابق، ص119، 191.

الجنوب الإيطالي، والحرارة تزداد بهبوب رياح القبلي، وغالباً ما يظهر البرد في الشتاء. أما التناقضات المناخية تلاحظها في الصحراء وواحات طرابلس الغرب، ففي الصيف تبلغ درجة الحرارة 30 وفي الشتاء أحياناً تحت الصفر وفي بعض الأحيان يبلغ التباين في الغالب 30 بينما تحدث اختلافات في ميزان الضغط في الشتاء على الساحل، فإن الضغط يبقى منتظماً في الدواخل صيفاً وشتاءً»[1].

وفي الوقت ذاته، حاول رولفس أن يستعرض الكيفية التي كانت تكتب بها كلمة طرابلس في بعض اللغات الأوروبية فقد أورد قائلاً: «يكتبها غالبية الأوروبيين Tripoly - Tripoli ويكتبها الألمان Tripolis وفي الواقع لا يوجد مبرر لإهمال حرف S وأن أهالي طرابلس الحاليين يكتبونها طرابلس»[2].

وهكذا، جاءت تسجيلات ومشاهدات رولفس خلال رحلته متنوعة، فتارة يمارس دور الرحّالة كما ورد في وصفه لطرابلس إبان رحلته الأولى، وتارة أخرى يقوم مقام اللغوي حينما تعرض لمصطلح كلمة طرابلس ومشتقاتها لغوياً في رحلته الثانية بيد أنه كثيراً ما كان يمارس دور المؤرخ المتتبع للتطورات التي شهدتها مدينة طرابلس حسب قوله: «إنها بنيت في موضع أويا وعندما دمرت في عهد الخليفة عمر، شيد العرب مدينة أخرى على أنقاضها وسميت باسم المنطقة بأجمعها». ومن ثم ينتقل من تاريخ المدينة إلى الوصف الجغرافي لحدودها وتضاريسها فيقول: «يحد البحر طرابلس من جهتي الشمال والشرق وهي مخمس تقريباً ويحيط بالجوانب الثلاثة الأخرى سهل من الرمال ولا توجد خنادق من جهة البر، بيد أن الأسوار مرتفعة ومنحدرة وحالياً أغلبها متداعية لدرجة تخرقها طلقات البنادق».

غير أنه يعود ليمارس دور المؤرخ عندما أشار إلى مدينة طرابلس قائلاً:

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص65.

(2) المصدر نفسه، ص76.

«وفي الماضي كان للمدينة حصنان قويان في الزاوية الشمالية الشرقية، ويسمى الحصن الإسباني وقد تدمر عام 1863م والحصن الآخر في الزاوية الجنوبية الشرقية وأصبح منذ مدة قصراً للحكومة»[1].

الرحلة الثالثة 1878 ـ 1879م، وتمثل الحلقة الأخيرة من رحلاته التي بدأ مسيرتها من طرابلس متجهاً نحو الكفرة وقد جاءت ملاحظاته ومشاهداته حول هذه الرحلة مختلفة عن ما سجله في الرحلتين السابقتين له. ففي هذه الرحلة الأخيرة، كانت ملاحظاته عنها يغلب عليه الانطباع الشخصي بعيداً عن روح الحقيقة العلمية، حيث إنه يعطي وصفاً يدل على عدم إعجابه بمدينة طرابلس، حينما ذكر قائلاً: «إن موقع طرابلس ليس جميلاً وعندما يأتي المرء في عرض البحر فإن أول ما يلاحظه هو الجبل، وتبدو سلسلة وبعد فترة يتعرف المرء على الأسوار البيضاء وإذا ما اقترب أكثر فإن السلسلة تتراجع وراء الأفق، وتبدأ معالم المدينة بالظهور، الحصون المدمرة والمآذن وهي أنحف من مآذن غرب أفريقيا»[2].

3 ـ البارون هينريج فون مالتسان Heinrichfrhr Von Maltzan[*] (1821 ـ 1874م):

هو ألماني الجنسية، كان قد أقام في الجزائر ردحاً من الزمن، حيث أتقن اللغة العربية وادعى اعتناقه للإسلام. وبعدها، قصد تونس في طريقه إلى مكة متنكراً

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص76.

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة إلى الكفرة، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط1، 2000م، ص220.

(*) البارون هينريج فون مالتسان المولود في فندلتر قرب درسدن في 6 سبتمبر 1821م، والمتوفى انتحاراً في بيزا 23 فبراير 1874م والمعروف برحلاته المثمرة التي قام بها في الجزيرة العربية، وقد قام بالسفر من تونس عبر الساحل الغربي لطرابلس حيث أمضى فترة معينة في مدينة طرابلس، وجمع معلومات وافرة ذات طابع عام حول طرابلس وسكانها والعناصر اللازمة لإعداد صورة وصفية دقيقة عنها ولعل هذه الملاحظات هي أوسع ما نملك من معلومات حول مدينة طرابلس وآثار صبراتة في ذلك الوقت. انظر: اتيلو موري، مرجع سابق، ص83 وما بعدها.

في زي حاج جزائري. وبعدها قدم إلى طرابلس في عام 1869م، حيث التقى فيها بالرحّالة الألماني رولفس وأثناء تواجده بطرابلس، سجل معلومات قيّمة عن أحوالها السياسية مستفيداً من عمق معرفته باللغة العربية التي أتاحت له فرصة بناء علاقات حميدة مع بعض رجالات الحكم، الأمر الذي ساعده في إعطاء وصف دقيق للتطور العمراني لمدينة طرابلس واتساع إمتداداتها، فضلاً عن الإصلاحات التي شهدتها أيام الوالي علي رضا باشا[1] وشيخ البلد علي القرقني[2].

لقد تميزت كتابات مالتسان عن طرابلس بأن غلبت على بعضها التعبيرات الأدبية، بالإضافة إلى عقد مقارنات بين ما يذكره عنها وما ذكره الآخرون فمثلاً، يقول في صياغة أدبية واضحة: «...شاطئ من النخيل ظريف تغطيه غابة تكتظ بأجمل أبناء عالم النبات، وأنها تختلف كثيراً عن أشجار جربة البعيدة عن بعضها البعض، ها هي تستقبلنا بالابتسامة وإلى جانبها تمتد المدينة الصغيرة البيضاء، وبين شاطئ النخيل والمدينة يتوسع في اتجاه البر خليج كان يشكل مرسى طرابلس الذي أطلق عليه بعض الرحّالين مرفأ طرابلس»[3].

أما في وصفه لموقع طرابلس، فإنه يفند آراء الرحّالين السابقين من أمثال بارث الذي لا يرى ضرورة لوصف مدينة طرابلس ما دام قد وصفها بعض الرحّالين السابقين. بيد أن مالتسان لا يتفق مع هذا الرأي الذي فقد قيمته قبل مائة عام، إذ أن ظروف المدينة السياسية والاقتصادية قد اضمحلت وامتدت إليها يد التدهور والانحطاط. فهيبة الحكومة لم تعد موجودة بأبهتها وبلاطها، كما أن

(1) الوالي علي رضا باشا هو الذي حكم خلال الفترة الأولى من 1867 ـ 1870م، انظر عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، فون مالتسان، رحلة في أيالتي تونس وطرابلس، مخطوط، ص4.

(2) عماد الدين غانم، المجتمع الليبي لدى الرحّالة الأجانب، ندوة المجتمع الليبي، مرجع سابق، ص4 وما يليها.

(3) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، فون مالتسان، رحالة في أيالتي تونس وطرابلس، مصدر سابق، ص191.

أقواس السرايا وما بداخلها من ممرات مظلمة ومؤامرات ودسائس وأسرار غامضة عن الحريم يشرف عليها الخصيان، قد فقد معناه وفعاليته ورهبته[1].

4 ـ جوستاف ناختيجال Gustav Nactigal[*] (1834 ـ 1885م):

انطلقت رحلته من طرابلس إلى فزان في 17 فبراير 1869م سالكاً طريق بني وليد بونجيم وسوكنة وسبها ومرزق، التي وصلها في 27 مارس من العام نفسه وبمرافقة أحد أشراف التبو، واصل مسيرته عبر مرزق في اتجاه القطرون، وتجرهي وتومو ثم اتجه جنوب الجنوب الشرقي ليصل إلى براداي ثم عاد مرة ثانية إلى مرزق وأقام بها حتى 18 أبريل 1870م وبعدها استأنف رحلته حتى بلغ تومو وبورنو وواداي والسودان الشرقي[2] وقد قدمت له تسهيلات من قبل وكيل قائمقام فزان بناءً على تعليمات الوالي بطرابلس الغرب، مما ساعده في إنجاز مهمته حتى نهاية رحلته[3]. وفي وصفه لطرابلس، أظهر استحسانه لها وإعجابه بها إذ أشاد بجمال منظرها من البحر، ونظافة شوارعها، كما ذكر قلعتها وأعمدتها ومآذنها النحيفة، وأسوارها البيضاء، وتميز بيوتها المطلة على البحر واستغلال الأوروبيين لها ولسطوحها الجميلة، وكذلك أشار إلى مداخلها وأبوابها يميناً ويساراً وإلى شوارعها المنطلقة منها إلى وسط المدينة وبعد ذلك استطرد في

---

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، فون مالتسان، رحالة في أيالتي تونس وطرابلس، مصدر سابق، ص194.

(*) جوستاف ناختيجال ألماني الجنسية من مواليد مدينة ايخستند قرب ستندال بإقليم سكسونيا واستقر عدة أعوام بشمال أفريقيا، لأسباب صحية حيث كان يعاني من الربو وضيق في التنفس وخلال إقامته هناك، قام برحلة طويلة شملت طرابلس ومرزق وتبستي وبرنو وواداي ودار فور، ثم وضع كتابه الصحراء وبلاد السودان الذي يعتبر مرجعاً هاما حول البلدان التي زارها. انظر: اتيلو موري، مرجع سابق، ص79. وكذلك الدناصوري، مرجع سابق، ص23.

(2) المرجع نفسه، ص23.

(3) وثيقة رقم 189م 16 ش ق، ملف القناصل، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، ملحق رقم (3).

وصف ما استحدث في زمنه من مباني وإنشاءات فيقول: «أقيم في الميدان الصغير مبنى حديث في طرابلس، برج الساعة، حيث يوجد في أسفله أغلب الخدمات، وفي أعلاه تظهر الساعة طبقاً للتقييم العثماني لليوم وينطلق طريقان من ميدان البرج يوصل أحدهما إلى باب الخندق وباب المنشية إلى الجنوب الشرقي، وتوجد بعض الشوارع التي تصل إلى داخل المدينة كما يوجد بين البوابة وبين البحر المبنى الحكومي الكبير (السراي) الذي يتاخم البحر مباشرة، وقد شكل بجدرانه الضخمة على الجهة البحرية قلعة منيعة، ولا يظهر المبنى بمظهر القصر وإنما قلعة راسخة قد فصلت عن بقية المدينة[1]».

5 ـ لودفيغ سلفاتور Ludwig Salvator[*] (1847 ـ 1915):

بدأ رحلته 1873م من تونس حيث طاف خلالها بالسواحل الليبية التونسية في رحلة بحرية، تميزت بوصفٍ لطرابلس جاء أكثر دقة عما ورد عن سلفه ناختيجال، إذ أنه لم يترك شيئاً إلا أورده في وصفه الذي يكاد يكون لوحة معمارية مرسومة بكلمات معبرة تعبيراً واضحاً. وفي هذا الصدد يقول: «يوجد أيضاً برجان صغيران يقعان على السفوح، وتحتهما مقبرة الكاثوليك المسورة ثم برج التراب، ومقابله حصن خارجي ومدور، ويتلوه حزام من الصخور الأخرى، وسفوح عالية مائلة إلى الحمرة مغطاة بعشب أخضر يتوج سوراً أملس ومن فوقها سارية العلم، ومن هذا الركن يمتد السور باتجاه جنوبي، أما طرف الشاطئ فيتشكل من حرف

---

(1) جوستاف ناختيجال، الصحراء وبلاد السودان، المجلد الأول، طرابلس وفزان وتبستي وتبو، ت. عبد القادر مصطفى المحيشي، مخطوط، ص46 وما يليها.

(*) لقد وُلد لودفيغ سلفاتور النمساوي الجنسية في 4 أغسطس 1847م في فلورنسا عاصمة توسكانة، وهو الابن الرابع للأرشيدوق ليوبولد الثاني وزوجته النابوليتانية ماريا أنطونيت بنت ملك الصقليين وعرف منذ طفولته بشغفه بالطبيعة وظواهرها وركز اهتمامه على عالم البحر المتوسط ودرس على يد أساتذي القانون والفلسفة، ودرس في أكاديمية الفنون التشكيلية، ومنح رتبة عقيد بالجيش. انظر عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، السواحل الليبية التونسية في الرحلة البحرية للأمير النمساوي لودفيغ سلفاتور، 1873م، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2005ف، ص20 وما يليها.

أحمر مع حزام من الصخور السوداء يتلوه بعد ذلك شاطئ رملي وفي خلفيته أشجار النخيل، وفي هذا الجانب تقع المقبرة اليهودية[1] ويحصي البيوت والمساجد ويثبتها في تسجيلاته، فيذكر أن بيوت طرابلس تبلغ 2000 ألفي بيت، وأن مساجدها أحد عشر مسجداً. وقد أشاد هو الآخر بالمدينة وجمال منظرها وجمال مآذنها»[2].

6 ـ أرفين فون باري Erwin von Bary[*] (1846 ـ 1877م):

رحّالة ألماني المولد، من أصل فرنسي ولد في ميونيخ في عام 1846م فقد كان مهتماً بدراسة أحوال المراكز الصحراوية وما ورائها في بلاد السودان، حيث وصل إلى طرابلس في خريف 1875م، ومنها انطلق إلى منطقة غريان في رحلة تجريبية استغرقت اثنتين وثلاثين يوماً، بقصد رصد المعلومات المتاحة عن الأماكن التي كان يرغب في الوصول إليها.

وخلال تلك الفترة التي أمضاها فون باري في منطقة غريان، قام بإجراء بعض الدراسات المهمة التي حفزته على تنفيذ مشروعه الطموح، ومما ساعده على ذلك إلمامه باللغة العربية. ولذا، رأى أن يعود إلى طرابلس لتجهيز نفسه بالاستعداد للرحلة المرتقبة، وفي طرابلس استقر بعض الوقت انتظاراً لفرصة

---

(1) انظر عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، السواحل الليبية التونسية في الرحلة البحرية للأمير النمساوي لودفيغ سلفاتور، مصدر سابق، ص107 وما يليها.

(2) المصدر نفسه، ص111 وما يليها.

(*) وُلد أرفين فون باري في ميونيخ في 22/ 2/ 1846م، وهو ينحدر من أسرة فرنسية أصيلة تمتد جذورها إلى مرحلة الحروب الصليبية، حيث كان أحد أجداده مرافقاً للملك الفرنسي فيليب أغسطس 1180 ـ 1223، في الحملة الصليبية الثالثة. ومن ثم، غادرت الأسرة موطنها في توروناي واستقرت في بافاريا، إذ بدأ والده حياته ضابطاً بالجيش البافاري ثم أصبح أميناً للخزانة الملكية في بافاريا. انظر عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، ارفين فون باري 1846 ـ 1877م ورحلته إلى غات وبلاد الأبير، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1995م، ص16، وما بعدها.

انطلاق أول رحلة متجهة إلى غات وبالفعل، رافق إحدى القوافل التجارية بقيادة تاجر يدعى مصطفى زميت وكان ذلك في 29/ 8/ 1876م[1]، وحينما وصل فون باري إلى غات، قام بدراسة اجتماعية لطبقات مجتمعات الطوارق وعلاقتها مع السلطات العثمانية في المنطقة مستفيداً من إجادته للغة العربية واهتماماته بالدراسات الانتربولوجية. وفي الوقت نفسه، قام بتجميع معلومات مفيدة عن التواصل بين منطقة غات وبين بلاد السودان الغربي[2].

7 ـ الحشائشي[*] (1855 ـ 1912م):

الرحّالة الحشائشي من أصل تونسي، قام برحلة إلى طرابلس في العقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي.

كثرت الأقاويل حول دوافع رحلاته ومصادر تمويلها إلى درجة أن البعض اتهم توجهاته بأنها تميل نحو فرنسا، وبالتالي اعتبر أنه كان يتجسس لصالحها، في حين أن فريقاً آخراً نفي هذه الاتهامات جملة وتفصيلاً ومهما أثير حول الحشائشي من اتهامات، فإنه يعد من المثقفين العرب القلائل ويتمتع بنظرة ثاقبة في الوصف وإبداء الملاحظات الدقيقة، فمن أمثلة الوصف عنده قوله في مدينة طرابلس: «والمدينة العتيقة متينة البناء على الطريقة العربية، ويحتوي الحي الجديد المسمى المنشية، على مباني جميلة على النمط الأوروبي، وتقع المدينة على شاطئ البحر في مكان بهيج ولطيف، وتوجد بعض المباني العتيقة جداً لها نوع من الأهمية».

---

(1) انظر عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، ارفين فون باري، مصدر سابق، ص22.

(2) المصدر نفسه، ص44.

(*) وُلد محمد بن عثمان الحشائشي في مدينة تونس في 26 رمضان 1271هـ الموافق 12 يونيو 1855م، وكان أبوه عثمان من شيوخ جامع الزيتونة المشهور، ومن الطبيعي أن يعتني الشيخ بتعليم ابنه، فيسر له حفظ القرآن الكريم، ثم هيأ له فرصة الالتحاق بجامعة الزيتونة ثانياً. انظر: نقولا زيادة، الحشائشي ورحلته إلى ليبيا، العربي، العدد 168، نوفمبر 1972م، ص70.

ويقول أيضاً في موضع آخر: «أنه لا توجد في هذه المدينة البنوك ولا السكك الحديدية ولا مؤسسات شبيهة بالمقاهي الفرنسية. وشوارعها خالية من التخطيط على النمط الأوروبي، فالمدينة إذن ما تزال بعيدة عن التنظيم الناتج عن التقدم في البلاد الأخرى».

وعند الوقوف على النصين السابقين، يلاحظ أن الحشائشي كان متأثراً بنمط الثقافة الأوروبية لا سيما الفرنسية. فما استحسنه في طرابلس، أرجعه إلى مشابهته للنمط الأوروبي، وما لم يستحسنه بدا له بعيداً عن التخطيط والتنسيق الأوروبي، خاصة الفرنسي.

ولا يقتصر وصف الحشائشي لطرابلس على مبانيها وشوارعها، بل امتد إلى وصف طقسها، ونظامها الإداري، وفي هذا الصدد ذكر أن طقسها معتدل وأن هواءها صحي، وأن الحمى تنتشر فيها في الصيف، أما فيما يختص بنظامها الإداري، فإنه ذكر أن طرابلس الغرب كانت تشتمل على ثلاث مقاطعات، هي فزان ويديرها متصرف تابع للباشا بطرابلس، والجبل وسرت ولكليهما متصرف واحد، وكل مقاطعة كانت تحتوي على قرى ومدن، وفي كل مدينة حاكم يلقب بقائمقام، وليست له رتبة عسكرية، بل يتبع المتصرف إدارياً[1].

بيد أن الحشائشي كان متحاملاً على سكان طرابلس، حيث لجأ إلى التعميم عندما وصفهم ببعض النعوت التي لا تنطبق على الجميع. وفي هذا الشأن، وصف السكان بأنهم أقرب للبدو منهم إلى الحضر، مع أنهم يعتبرون أنفسهم أناساً متحضرين جداً، ويفرق صفوفهم الحسد، ويقضون أوقاتهم في غيبة بعضهم البعض كما وصفهم بأنهم يميلون إلى حرفة التجارة التي يمارسونها مع غات وبرنو وو داي وبعض جهات السودان. وكذلك اتهمهم بأنهم ليس لديهم فكر ولا

---

(1) الحشائشي، الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق، قدم لها وعلق عليها وراجع ترجمتها إلى العربية محمد المرزوقي، تونس، الدار التونسية للنشر، 1988، ص204 وما يليها.

ثقافة ولا إلمام بالعلوم الإسلامية، فضلاً عن أنه ذكر أن العنصر الأوروبي في طرابلس أغلبه من الإيطاليين وقلة من الفرنسيين، وقد لاحظ أن الحمالين والبحارة كانوا يتكلمون بالإيطالية[1].

وكان الرحّالة الحشائشي حريصاً أن ينقل تجاربه وإرشاداته للرحّالين الأوروبيين، ويبدو أنها هي التي أثارت حوله الشبهات واتهامه بالتواطؤ مع المستعمرين الفرنسيين. ومن بين تلك الإرشادات التي نقلها على لسان أهالي المنطقة قوله: «تعلم قدراً كافياً من العربية حتى تتمكن من التفاهم، ولا تعرفهم أرباحك، ولا تكن كريماً نحو العرب ولا تعطهم الثقة وإن تظاهروا لك بجدارتهم بها، وإذا استأجرت منهم إبلاً فلا تدفع لهم الأجرة مسبقاً وعليك أن تجمع زاداً من الطعام، وتوفر عدداً من قرب الماء وقل دائماً الحق، ولا تحاول أن تعرف شئون العرب، وإذا كان معك سلاح فأحرص على أن يروه، وأحمل معك الكينة[2] لأن الحمى تنتشر في وسط أفريقيا وتصيب الرحّالة، وحاول أن تأكل الشعير والتمر فإنهما من الطعام الذي يصلح أكثر في هذه البلاد، وسافر في الساعات الأولى والأخيرة في النهار في فصل الصيف»[3].

---

(1) الحشائشي، الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق، مصدر سابق، ص203 وما بعدها.

(2) الكينة: شجرة مغطاة دائماً بأوراق وجذعها معتدل طوله من 10: 15 قدماً أي نحو خمسة أمتار تقريباً وقطرها 30 سم ولونها سنجابي رمادي، وقد اشتهرت في مقاومة جميع الأمراض وخاصة الحميات، انظر دائرة معارف القرن العشرين، المجلد الثامن، ص262 وما بعدها.

(3) الحشائشي، الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق، مصدر سابق، ص178.

8 ـ إفالد بانزه Ewald Banse[*] (1883 ـ 1953م):

إفالد بانزه ألماني الجنسية، زار طرابلس في العقد الأول من القرن العشرين، في الفترة ما بين سنتي 1906 ـ 1909م ومكث فيها حوالي واحد وعشرين شهراً.

تكتسب رحلته أهمية في البحث من جهتين، الأولى أنها تقدم معلومات عن طرابلس، في مطلع القرن العشرين، وهي معلومات تعد امتداداً للفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر. أما الثانية فإنها كشفت النقاب عن التطور العمراني والاجتماعي والاقتصادي لطرابلس خلال الفترة المؤرخ لها، مستفيداً من ملاحظات ومشاهدات الرحّالة السابقين، ولعل أهمية رحلته تلك تكمن في أنها أعطت وصفاً للتطور العمراني الذي طرأ على مدينة طرابلس، فقد ذكر أن المدينة القديمة خرجت من سورها الجنوبي لتنشأ مدينة جديدة تصب مجموعة شوارعها في المسطح الرملي الخارجي، بحيث أن نمطها العمراني جاء على شكل مسماري متجهاً نحو المدينة القديمة، منذ سبعينيات القرن التاسع عشر[1].

لقد وصف بانزه بيوت طرابلس بأنها كانت تتميز بكثرة الأبواب والنوافذ المطلة على الشوارع، وأن المدينة الجديدة لم تكن في الأصل مدينة تجارية، بل

(*) وُلد إفالد بانزه في 23/ 5/ 1883م في مدينة بروا نشفايغ التي تقع حالياً بولاية سكسونيا السفلى الألمانية. ولا نعلم شيئاً عن بيئته العائلية وتنشئته سوى أن والده كان رساماً، أي أن إفالد عاش في أحضان أسرة ذات مواهب ويبدو أنها غرست فيه حب المعرفة ووفرت له سبل الإطلاع، فقد قرأ في سن الشباب كتب الرحلات حول أفريقيا، وكان لهذه القراءات أثرها الكبير على بانزه الشاب وقد ترسخ لدى بانزه وهو في العقد الثاني من عمره الاهتمام المبكر بالوطن العربي وأفريقيا، ونتيجة لذلك وجه دراسته كي تخدم أحلامه، فدرس الجغرافيا والجولوجيا ودرس كذلك علم الحيوان والنبات في جامعتي برلين وهالة. انظر عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، افالد بانزه طرابلس مطلع القرن العشرين، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1998م، ص20 وما بعدها.

(1) عماد الدين غانم، المجتمع الليبي لدى الرحّالة الأجانب، ندوة المجتمع الليبي، مرجع سابق، ص12 وما بعدها.

كانت منطقة سكنية ينشد فيها الناس حياة أمتع وأهدأ[1].

كما وصف مهام البيت الطرابلسي، مشيراً إلى أنه كان يؤدي وظيفتين الأولى حماية ساكنيه من حرارة الشمس، والأخرى تخزين مياه الأمطار في جوف صهريج يبنى في ساحته. وكذلك، استطرد بانزه في وصف مكونات هذا البيت الذي كان يتكون من أربع حوائط مطلية بالجير الأبيض لتعكس أشعة الشمس، ومن سقف مسطح، وباب ونوافذ صغيرة الحجم، وهو ما ينطبق على ما عرف بالبيت الطرابلسي القديم (الحوش)، أما البيوت الطرابلسية الجديدة التي تأثرت بالنمط الأوروبي فقد ذكر أن فناء البيت المعروف بالسقيفة وسط الحوش كان يستعمل في تهوية حجرات السكن أثناء الليل وأن جميع غرف الدار كانت طولية الشكل وأن نوافذها تفتح مطلة على فناء البيت[2].

وأعطى بانزه وصفاً لفنادق طرابلس المجاورة لسور المدينة من جهة الجنوب، مبيناً أن الفندق كان يتكون من جدران وهو مربع الشكل يتوسطه فناء واسع تحيط به غرف صغيرة لا توجد بها نوافذ وتفتح أبوابها على جهة واحدة أو أكثر[3].

9 ـ عبد القادر جامي[*] (1878 ـ 1949م):

تركي الأصل عمل بطرابلس في أواخر العقد الأول من القرن العشرين.

---

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، أفالد بانزه، مصدر سابق، ص146 وما بعدها.

(2) المصدر نفسه، ص161 وما بعدها.

(3) المصدر نفسه، ص142 وما بعدها.

(*) عبد القادر جامي من مواليد استنبول، وبعد تخرجه من الكلية العسكرية سنة 1896م التحق بإدارة العهد العثماني الثاني وتدرج في المناصب، حيث عينه الوالي رجب باشا في عام 1908م قائمقام وقائداً لمنطقة غات وانتخب في السنة نفسها نائباً عن متصرفية فزان في مجلس المبعوثان وعند قيام الحرب العالمية الأولى كان أحد زملاء مصطفى كمال أتاتورك الذي عينه بعد نهايتها وزيراً للداخلية في عام 1920م. انظر: عبد القادر جامي، مصدر سابق، ص5.

وألف كتاباً عن طرابلس، ذكر فيه وصفاً لها، وكذلك تطرق لذكر سكانها وأجناسها ومعلومات أخرى ذات صلة مباشرة بما ورد عن طرابلس في القرن التاسع عشر الميلادي في كتابات الرحّالة السابقين له. لذلك يعدُّ كتابه وعنوانه: «من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى» من حيث مضمونه وموضوعاته لا يختلف كثيراً عم كتبه الرحّالة بانزة في كتابه الذي تمت الإشارة إليه ومن هنا، تأتي أهمية كتاب جامي لهذه الدراسة.

لقد وصف عبد القادر جامي طرابلس بقوله: «إن مدينة طرابلس ينظر إليها من البحر، حيث تقع في أرض منخفضة، وتبرز لك جميلة جذابة، بتلك المآذن البيضاء الناصعة، المتوجة باللون الأخضر، وكذلك قلعتها القديمة التي تناطح جدرانها الأمواج، وبرج فنار مينائها الذي يتوجها بارتفاعه، ثم مبانيها المتناسقة نوعاً على الشاطئ المطل ونخيلها الذي يمتد شرقاً على طول الساحل، ويشكل شريطاً أخضر يخفي وراءه الأرض الرملية المملة والقاسية، وبعد أن تجتاز الضواحي العامرة نسبياً على طول الساحل وتدخل إلى المدينة من أحد أبوابها حيث تشاهد المدينة القديمة بأزقتها الضيقة ومنازلها المختلفة التي لا توجد لها نوافذ»[1].

وفي الوقت ذاته، وصف شوارع المدينة الجديدة الواقعة خارج السور القديم مجرياً مقارنة بينها وبين شوارع المدينة القديمة، حيث ذكر أنها متسعة، والمباني فيها منتظمة، إلا أنه لاحظ بعض الفوضى وعدم التناسق إلى درجة أن المار بها يشاهد أكواخ الزنوج مقامة بين أحضان النخيل وإلى جوار عمارة حديثة أحياناً كما يشاهد على مسافة من إحدى البساتين الجميلة خيمة قديمة بالية ممزقة، تختفي تحتها أسرة بدوية، وخلف السور في الجهة الغربية توجد أكواخ لبيع الخردوات وغيرها[2].

---

(1) عبد القادر جامي، مصدر سابق، ص20.

(2) المصدر نفسه والصفحة.

ويلاحظ أن كتابات الرحّالة الذين مروا بطرابلس وقاموا بوصفها خلال القرن التاسع عشر الميلادي، قد عكست صورة واضحة عن تطور هذه المدينة وما حفلت به من اختلافات بين سكانها بسبب التنوع العرقي واللغوي والتوجه الفكري للأفراد، فضلاً عن التوجهات السياسية للدول الأجنبية الراعية للرحّالة والرحلات الاستكشافية التي اتخذت من طرابلس منطلقاً لها إلى مناطق ما وراء الصحراء الكبرى.

كذلك اتسمت هذه الكتابات بعض القواسم المشتركة فيما بينها تمثلت في وجود أغراض خفية غير التي وراءها جميعاً، غير تلك المعلنة للجهات الرسمية والمجتمع الليبي على حد سواء وترتب على ذلك نوعان من الدعم والمؤازرة من قبل الحكام والأهالي، لعدم وعيهم بالأغراض الخفية التي وراء تلك الرحلات.

كما أن التطورات العلمية والتاريخية والاجتماعية التي صاحبت هذه الكتابات وما عقبها من بدايات القرن العشرين، أكدت القيمة التاريخية والجغرافية والاجتماعية لها، بصرف النظر عن دورها الإيجابي أو السلبي بالنسبة للواقع العربي والإسلامي في ليبيا وفي غيرها من الأقطار العربية والإسلامية الأخرى.

فمن الناحيتين التاريخية والاجتماعية لعبت هذه الكتابات دوراً كبيراً في رسم ملامح القراءة التاريخية والاجتماعية لليبيا خاصة في ذهن القارئ الغربي كما أنها مهدت لحل كثير من الإشكاليات العلمية جغرافياً.

ومما تقدم نخلص إلى النقاط التالية:

1 ـ السواحل الأفريقية وخاصة سواحل الشمال الأفريقي كانت معروفة لدى الأوروبيين منذ وقت بعيد بحكم الجوار والاحتكاك وتداخل المصالح والعلاقات السلمية والحربية.

2 ـ في هذا الإطار توفرت لدى الأوروبيين معلومات متباينة الحجم والأهمية عن دواخل الشمال الأفريقي ومن بينها طرابلس.

3 - نتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية في القارة الأوروبية جرى التركيز على القارة الأفريقية وتطلع الأوروبيين للوصول إلى الدواخل الأفريقية، وقد اعتمدوا التوصل إلى هذا المطمح إلى إرسال الرحّالين إلى القارة.

4 - على هذا الأساس انتقلت ظاهرة الرحّالة من كونها ظاهرة إفرادية يقوم بها في الغالب مغامرون إلى ظاهرة منظمة تعتمد على دعم حكومي أو على دعم جمعيات تأسست لهذا الغرض.

5 - إن تقسيم الرحلات الذي اتبعه الباحث في الدراسة إلى رحلات النصف الأول ورحلات النصف الثاني يقوم على عدة أسس من أبرزها الكثافة في تواتر الرحلات الذي برز بشكل خاص في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

6 - إذا قارنا تقارير الرحّالين في النصف الأول مع تلك في النصف الثاني نلاحظ أن حجم المادة قد تزايد كثيراً في النصف الثاني نتيجة الوقت الذي أمضاه الرحّالة في البلدان التي قصدوها والمعلومات المتاحة لهم قبل انطلاقهم في رحلتهم. كل ذلك أدى إلى دقة أكثر في المعلومات المتاحة لهم قبل انطلاقهم في رحلتهم.

7 - إن ما اتسم به النصف الثاني من القرن فقد رصد التطورات الجديدة ويمكننا القول أن الأوروبيين كانوا قادرين على تجديد معلومات تخص ليبيا والبلدان التي يقصدونها في كل عقد على الأقل.

8 - إن تعدد الموضوعات التي شملتها كتب الرحّالة سمحت للأوروبيين بالتوصل إلى آراء بشأن المناطق التي تمثل مصالحهم وقد وضعت هذه المعلومات إلى جانب معلومات أخرى عند اتخاذ القرارات الخاصة بتقسيم القارة بين القوى الأوروبية.

9 - وإذا ما نظرنا إلى كتب الرحّالة من حيث كونها مصدراً لدراسة الأوضاع

الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية فإننا نجد فيها مادة لا نجدها عادة في المصادر المحلية فهؤلاء هم أبناء بنية حضارية أخرى وقد استرعت أنظارهم حقائق وقضايا قد لا يهتم بها المؤرخ من أبناء البلد أو البيئة الحضارية ذاتها.

10 - لا شك أن المعلومات الاقتصادية جديرة إلى حد كبير بالثقة إلا أن المادة الاجتماعية شهدت قصوراً كبيراً أحياناً لأنهم كانوا يعمدون إلى تفسير ظواهر تتطلب في الأساس خلفية لغوية، أي عمق في فهم العربية والإسلام، وهذا ما لم يتسنى إلا للقليل منهم ويضاف إلى ذلك أن البعض كان يحمل فكراً عنصرياً ومال في الغالب إلى الأفكار العنصرية.

الفصل الثالث

التطور السياسي في ليبيا من خلال كتابات الرحّالة والمصادر المحلية

يتناول هذا الفصل التطور السياسي في ليبيا من خلال كتابات الرحّالة والمصادر المحلية مركزاً على السياسة الداخلية والخارجية ليوسف باشا القره مانلي. والظروف والأزمات التي ساهمت في نهاية العهد القره مانلي وكذلك الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية للعهد العثماني الثاني، والثورات المحلية من حيث الأسباب والنتائج، والدور الذي لعبه قناصل الدول الأجنبية في التأثير على سياسة الباشا.

1 ـ يوسف باشا القره مانلي سياسته الداخلية وعلاقاته الخارجية وأبعادها الاقتصادية والاجتماعية:

حكمت المصلحة الشخصية ليوسف باشا القره مانلي طبيعة علاقاته الخارجية، لا سيما بعد أن استتب له الأمر أواخر القرن الثامن عشر أوائل القرن التاسع عشر، وهذا ما يتضح من علاقته بفرنسا من جهة وبكلٍّ من السلطان العثماني وبريطانيا وأمريكا من جهة أخرى. إذ اتخذ من فرنسا صديقاً على طول خطه السياسي خلال فترة حكمه، غير أن هذه الصداقة اصطدمت حيناً واتفقت حيناً، مع توجهات الآخرين خارج طرابلس الغرب، مما اضطره للتلون والمداراة في علاقاته بالدول الأخرى[1]، عدا فرنسا، حسبما يقتضيه الحال ويحقق أهدافه الشخصية. وأشار رولفس في رحلته من طرابلس إلى الإسكندرية 1868-1869م إلى أن يوسف قتل أخاه الأكبر في 1790م مما أدى إلى قيام الحرب الأهلية. وعندما شعر يوسف بضعفه جمع حوله اتباعاً كثيرين مما اضطر علي باشا إلى إصدار العفو عن ابنه القاتل تفادياً لاستمرار الحرب الأهلية، غير أن الخطر من

(1) مصطفى عبد الله بعيو، ليبيا في التاريخ، مرجع سابق، ص309.

جهات أخرى كان قائماً ويهدد بالقضاء على القره مانليين. ففي عام 1793م نزل بطرابلس مغامر يدعى علي برغل[1] واستولى على المدينة عن طريق الخيانة ويبدو أنه لم يكن مدعوماً من قبل الحكومة العثمانية.

إن علي باشا القره مانلي الذي فر إلى تونس لقي دعم الباي، وحضر إلى طرابلس وطرد علي برغل، غير أن علي القره مانلي تخلى عن الحكم لابنه أحمد الثاني الذي طرد فوراً من قبل أخيه يوسف[2]، وهذا ما أكده الرحّالة جوستاف ناختيجال في كتابه الصحراء والسودان[3].

وبالتالي يلاحظ أن فترة العهد القره مانلي تعتبر من الفترات المليئة بالأحداث السياسية الهامة سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي.

لقد سار يوسف باشا في علاقاته بالدولة العثمانية على نهج أسلافه معتبراً الدولة العثمانية هي دولة الخلافة الإسلامية والباشا خليفة للمسلمين، ومع هذا فقد شعر أنه مستقل عن السلطان حتى وإن التزم بتنفيذ تعليماته.

فعلى سبيل المثال، عندما انتزع الحكم من أخيه أحمد رأى من الواجب أن يتحصل على فرمان من السلطان العثماني يعترف به والياً على طرابلس تأكيداً على شرعية حكمه لأن الناس ينظرون إلى السلطان بأنه الخليفة وجميع الولاة يحكمون باسم السلطان وإعطاء شرعية لحكمه تتطلب منه هذه الخطوات وتمشياً مع ذلك طلب يوسف باشا من وجهاء وأعيان البلاد كتابة بيان يتضمن موافقتهم على تعيينه والياً على البلاد، وكلف يوسف باشا حسين باشا رئيس البحار بضرورة إرسال

(1) بينما كانت الأسرة القره مانلية تنهار وتتفكك بفعل خلافاتها الداخلية جاء طرد علي برغل في فبراير 1793 من الجزائر فانتقل إلى الأستانة وساوم الحكومة وحصل على فرمان سلطاني بتعيينه والياً على طرابلس. انظر اتوري روسي، المرجع السابق، ص367 وما بعدها.

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص48.

(3) جوستاف ناختيجال، الصحراء والسودان، ترجمة عبد القادر مصطفى المحيشي، مخطوط غير منشور.

صورة من البيان مع بعض الهدايا إلى السلطان العثماني وأرفق رسالة توضح الوضع الراهن في البلاد وكذلك حالة الفوضى والاضطرابات والاعتداء على الأموال والأعراض، وفي ختام رسالته طلب من السلطان العثماني تنصيبه والياً على البلاد وذلك استجابة لرغبات الشعب[1]. ولعله كان يشعر بقدر من القلق تخوفاً من عدم استجابة السلطان لذا فقد وسط بعض من يثق في مقدارهم وتأثيرهم على السلطان ومنهم قنصل فرنسا في طرابلس الذي طلب منه تدخل حكومته عن طريق سفيرها في القسطنطينية[2].

وبالتالي أصدر السلطان العثماني سنة 1211هـ/ 1796م فرماناً بتعيينه والياً على طرابلس. ومنحه بعض العتاد العسكري وأرسل له سفينة بها ثمانية وعشرون مدفعاً، وطلب منه ضرورة العمل على إحلال الأمن والسلام بين المواطنين وتحسين الأحوال المعيشية للسكان وتقوية القلاع والحصون الدفاعية، وأن يكثف الحملات البحرية مع احترام المعاهدات المبرمة بين الدولة العثمانية وروسيا، وبعد استلامه فرمان التعيين وعد بتنفيذ ما جاء فيه[3]. وبعد ما اعترف به الناس والياً على البلاد وشعر بقوة مكانته لم يلتزم يوسف باشا بما تعهد به وتجاهل جميع تعليمات وأوامر السلطان حتى أن بحارته في شهر سبتمبر 1796م قاموا بالاستيلاء على سفينة تابعة للأسطول الروسي، ولم يفرج عنها إلا بعد دفع المبلغ المطلوب[4]. إن الظروف الاقتصادية التي تمر بها البلاد وقتئذ كانت وراء تصرف يوسف باشا لأنه كان في حاجة ماسة للأموال لتغطية مصاريفه والتزاماته. وبالتالي

(1) عمر بن إسماعيل، سقوط الدولة القره مانلية في ليبيا 1795 ـ 1835م، القاهرة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ص83 وما بعدها.

(2) أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب، مصدر سابق، ص328؛ وانظر كذلك ميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القره مانلي، ترجمة طه فوزي، القاهرة: معهد الدراسات العربية، 1961م، ص130.

(3) عمر بن إسماعيل، سقوط الدولة القره مانلية في ليبيا 1795 ـ 1835م، المرجع السابق، ص84.

(4) ميكاكي، المرجع السابق، ص136.

فإن جميع الأوامر والفرمانات التي أرسلها السلطان إلى يوسف باشا سنة 1797م لم تجد طريقها إلى التطبيق وطلب منه بطريقة غير مباشرة ألا يكون مثل أيالة الجزائر التي تتصرف في إعلان الحرب وعقد الصلح مع الدول الأوروبية بدون الرجوع إلى السلطان العثماني وطلب منه تجديد المعاهدة الموقعة ما بين طرابلس والدانمارك وذلك بناء على طلب القائم بالأعمال[1].

وبالإضافة إلى ذلك أهمل بعض من الفرمانات الصادرة عن السلطان العثماني بشأن إيالات المغرب رغبة منه في الانفصال والاستقلال الذاتي، حيث طلب السلطان العثماني من يوسف باشا اتخاذ موقف نحو فرنسا بسبب غزوها مصر في سنة 1798م، غير أنه تصرف وفق مصلحته وما يتطلبه الموقف السياسي في ذلك الوقت[2]، لا شك أن السياسة التي سار عليها يوسف باشا وضعت حداً لهذا التحدي، وكما أسلفنا فإن سياسته الخارجية كانت تتمشى مع ظروف البلاد الاقتصادية والسياسية التي تمر بها، وهذه العوامل جميعها ساعدت على التقارب ما بين فرنسا وباشا طرابلس، إلا أنه كان متخوفاً من الانتصارات التي حققها نابليون، لأن ذلك سيدفعه إلى التفكير في الاستيلاء على طرابلس لتكون نقطة انطلاق لحملاته التوسعية في أفريقيا في حين أن يوسف باشا كان ينشد استقلال بلاده عن كل القوى الخارجية، ورغبته في الحفاظ على استقلالها في حالة انتصار فرنسا.

مما تجدر الإشارة إليه أن الذي زاد في التقارب بين الباشا وفرنسا هو بروز طرابلس كحلقة وصل بين الجيش الفرنسي في مصر والحكومة الفرنسية من ناحية وهذا نلاحظه في الحصار الذي ضربه الإنجليز على نابليون وحملته وانقطاع اتصالاته مع فرنسا، فلم يجد من يقدم له المساعدة ويمد له يد العون سوى يوسف باشا الذي سمح للفرنسيين باتخاذ طرابلس نقطة للاتصال بفرنسا، وفعلاً استطاعت الحملة الحصول على المساعدات عن طريق طرابلس وموانيها وقوافلها

---

(1) عمر بن إسماعيل، سقوط الدولة القره مانلية في ليبيا 1795 ـ 1835م، المرجع السابق، ص85.

(2) ميكاكي، المرجع السابق، ص147.

الصحراوية التي كانت تقوم بنقل ما يرسل إلى نابليون من فرنسا براً عبر الصحراء الليبية بالرغم من أن السلطان طلب من يوسف إيقاف المساعدات التي تقدم للفرنسيين وضرورة الاستعداد للهجوم عليهم من ناحية الحدود الغربية لليبيا. وأن القوات العثمانية جاهزة للهجوم عليهم من الناحية الشرقية وكذلك الشمال والجنوب، إلا أن هذه الجهود لم تثمر، مما أجبر نلسون قائد البحرية البريطانية الاتصال بيوسف باشا، وطلب منه إيقاف المساعدات لفرنسا[1]. وعند استيلاء الفرنسيين على جزيرة مالطا وانتزاعها من يد فرسان القديس يوحنا طلبوا من يوسف باشا في سنة 1798م تزويد الجزيرة بالمواد الغذائية حتى وافق مسرعاً من أجل توطيد العلاقات مع فرنسا والاستفادة من وراء هذا المشروع، وبالتالي أصبحت طرابلس تمثل القاعدة الثانية لفرنسا[2].

وعندما لاحظ السلطان العثماني أن جميع قراراته المتعلقة بقطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع فرنسا بسبب اعتدائها على مصر لم تنفذ، اضطر إلى إرسال فرمان على شكل إنذار مؤرخ في سنة 1213هـ/ 1798م عبر فيه عن عدم رضاه من داي الجزائر ويوسف باشا وذلك لعدم التزامهما بتطبيق الأوامر الصادرة إليهما. وقد تمادى يوسف باشا في تحديه للسلطان مما دفع نلسن قائد الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط بإبلاغ السفير الإنجليزي في استنبول بتاريخ 17 شوال 1213هـ/ 1798م، بأن يوسف باشا ما زال مستمراً في عقد الاتفاقيات والمعاهدات مع فرنسا وعلى الدولة العثمانية أن تتدخل وبدون تضييع للوقت. وقد أطلع السفير الإنجليزي باستنبول السلطان العثماني على نص الرسالة بعد أن ترجمها إلى اللغة التركية[3].

---

(1) مصطفى عبد الله بعيو، ليبيا في التاريخ، المرجع السابق، ص310.

(2) عمر بن إسماعيل، سقوط الدولة القره مانلية في ليبيا 1795 ـ 1835م، المرجع السابق، ص88.

(3) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

وواصل القنصل الفرنسي جهوده لربط التواصل بين يوسف باشا والحملة الفرنسية على مصر محاولاً إقناع الباشا، بأن نابليون قد اعتنق الإسلام، ويرغب في تطبيق الدين الإسلامي، وأن لديه النية للاحتفال بالمولد النبوي الشريف، ومد يد العون للحجاج الليبيين القادمين من مكة عبر الأراضي المصرية[1]. بينما راحت بريطانيا تواصل ضغطها على الباشا لتغير سياسته اتجاه فرنسا[2].

وفي 9 مايو 1799م قامت الحكومة البريطانية بالضغط على الباشا حيث أرسل نيلسون إلى طرابلس نائبه الأميرال كمبل لإجبار الباشا على تنفيذ تعليمات السلطان، وتوجه الأميرال فور وصوله إلى القصر صحبة القنصل لوكاس لمقابلة الباشا، وطلب منه التخلي عن القنصل الفرنسي بوسيه وأفراد الجالية الفرنسية، غير أن يوسف باشا رفض الامتثال للأمر فأصدر كمبل في 13 مايو 1799م أمراً بقصف المدينة ومهاجمة السفن الراسية في الميناء. وتم فعلاً حرق سفينتين والاستيلاء على واحدة، ونتيجة لضعف موقف الباشا فقد أجبر على الدخول في المحادثات، وبدأت المفاوضات بين يوسف باشا والحكومة البريطانية وكان مفروضاً على باشا طرابلس تسليم القنصل الفرنسي بوسيه وضابطين وقباطنة وبحارة السفن الفرنسية وقد نقلوا إلى جنوة[3] ومنها إلى مرسيليا.

ولكي يعتذر يوسف باشا عما حدث نتيجة ضعفه بعث برسالة في 20 أكتوبر عام 1800م إلى دي مويس قنصل فرنسا في تونس مؤكداً فيها على سياسته الودية

---

(1) من المعلوم أن الرحالة الألماني فريدريك هورنمان لقي دعم نابليون بونابرت الذي أمر بتأمين انضمامه إلى حجيج فزان الذين وصلوا القاهرة في 1818 في طريق عودتهم من مكة، وسار مع قافلة الحج حتى مرزق متنكراً بأنه تاجر مسلم. انظر هورنمان الرحلة من القاهرة إلى مرزق، ترجمة مصطفى جودة طرابلس، ص28.

(2) بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، مرجع سابق، ص206.

(3) عبد الله الخباط، العلاقة السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وإنجلترا 1795 ـ 1832، طرابلس 1985، ص57.

نحو فرنسا معتذراً عما حدث وعازماً على الاستمرار في تقديم المساعدة للفرنسيين.

وفي عام 1801م استؤنفت المفاوضات بين يوسف باشا والفرنسيين في شكل سري حيث كلف نابليون من طرفه سوفيريو ناوودي من أصل مالطي كان يشتغل مترجماً بديوان القنصل الفرنسي بوسيه وجرت بينهما مفاوضات غير رسمية وكان نابليون وتاليران وزير الخارجية يهدفان من وراء ذلك إلى عدم لفت أنظار بريطانيا لما يجري حتى لا تتمكن من الضغط على يوسف باشا غير أن هذا الاتفاق يعتبر امتداد لمعاهدة 1799م. وفي نهاية سبتمبر 1801م فشلت الحملة الفرنسية على مصر. وفي 9 أكتوبر 1801م عاد القنصل الفرنسي بوسيه إلى طرابلس وعادت العلاقات بينه وبين الباشا[1].

والجدير بالذكر أن علاقات يوسف باشا مع فرنسا كانت تتضارب أحياناً مع مصالح سكان طرابلس الغرب، وهذا استغله الأتراك والإنجليز معاً بهدف إفشال المشروع الفرنسي.

أما صراع يوسف باشا مع أمريكا فقد جاء نتيجة لسيطرة يوسف باشا على البحر الأبيض المتوسط، وفرض سيادته عليه واتخاذه مجالاً حيوياً كما أن الأسطول الأمريكي عرف طرابلس عندما كان يمارس نشاطه في ظل العلم البريطاني، وفي عام 1776م تحصل الشعب الأمريكي على حريته من الاستعمار البريطاني، وبالتالي لا بد أن تكون لأمريكا شخصية اعتبارية تمكنها من حماية سفنها من الأساطيل التابعة للشمال الأفريقي، وفي مطلع القرن التاسع عشر الميلادي وقع خلاف بين يوسف باشا وأمريكا نتيجة مطالبته لها بدفع الجزية حتى تضمن حرية الحركة لسفنها في البحر المتوسط وبالرغم من التزام أمريكا بذلك إلا أن يوسف باشا رفض أن يعامل أقل مما يعامل به داي الجزائر[2].

---

(1) بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، المرجع السابق، ص209 وما يليها.

(2) مصطفى عبد الله بعيو، ليبيا في التاريخ، مرجع سابق، ص311.

وهذه الظروف فرضت على أمريكا الدخول في صراع ضد يوسف باشا، ففي شهر ديسمبر 1801م قامت إحدى الفرقاطات بقيادة العميد البحري دال Dale بالاستيلاء على سفينة طرابلسية تحتوي على 14 مدفعاً وفي العام التالي قدمت فرقاطة أخرى وأخذت تقصف مدينة صبراتة في غرب ليبيا لمدة يومين. وفي 31 أكتوبر 1803م جرت معركة كبيرة بمشاركة الأسطول الأمريكي بقيادة العميد البحري بريبل Preble غير أن هذه العملية كانت كارثة على الأمريكيين أنفسهم، فعندما قامت فيلادلفيا بقيادة القبطان بيبريدج بمطاردة الزورق الطرابلسي حتى وقعت مقدمتها في بداية مدخل الميناء ذي المياه الضحلة، وهذا كان يجهله القائد الأمريكي، هجمت الزوارق الليبية على الفرقاطة فيلادلفيا التي أجبرت على التسليم حيث كان على متنها ثلاثمائة وسبعة رجال من بينهم تسعة وعشرون ضابطاً ومزودة باثنين وأربعين مدفعاً. وهذا الانتصار الرائع أعطى مؤشراً لقوة يوسف باشا البحرية[1].

لقد تدخلت الوساطة الفرنسية عن طريق قنصلها بوسيه في إطلاق سراح الضباط الأمريكيين والسماح لهم بالتجول داخل مدينة طرابلس إلا أنهم استغلوا ذلك الظرف، ففي يوم 17 فبراير 1804م تمكن ضابط أمريكي برتبة ملازم يدعى ستيفن من إشعال النار في البارجة فيلادلفيا حتى لا تستفيد منها البحرية الليبية ولا تبقى شاهداً على هزيمة الأمريكان في هذا الزمن، وبالرغم من هزيمتهم في هذه المعركة إلا أنهم عادوا الكرة مرة أخرى. ففي يوم 25 يوليو 1804م رجع العميد البحري بريبل على رأس قوة مؤلفة من ثلاث سفن وثلاثة مراكب شراعية وستة زوارق مسلحة وسفينتي منجنيق حيث وقع الهجوم الأول على طرابلس يوم 3 أغسطس حيث استولى الأمريكان على ثلاثة زوارق طرابلسية مسلحة ووقع الهجوم الثاني يوم 7 أغسطس بعد قصف بالقنابل استمر زهاء ثلاث ساعات إلا أنها لم

(1) شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ت. محمد عبد الكريم الوافي، جامعة قاريونس، ط4، 1998م، ص387.

تحرز أي انتصار مما دفع بريبل إلى إرسال مفاوض يوم 9 أغسطس مقابل دفع فدية للباشا تقدر بثمانين ألف قرش مقابل إطلاق سراح الأسرى، وفي يوم 23، 24 أغسطس وقع الهجوم الثالث ويوم 27-28 أغسطس وقع الهجوم الرابع مما أجبر بريبل في يوم 29 أغسطس على العودة للمفاوضات مرة أخرى وكان متوقعاً ألا يسمح له الباشا بالدخول إلى أرض طرابلس[1].

إن هزيمة الأمريكان في هذه المعركة قد أغضبهم كثيراً لذا فقد حاولوا عن طريق الجنرال ايتون Eaton استغلال النزاع القائم بين يوسف وأخيه أحمد الذي فر إلى مصر حيث قام ايتون بتجهيز قوة بحرية في مصر انضم إليها أحمد باشا وزحف على درنة، وفي الوقت نفسه كانت البحرية الأمريكية تحاصر سواحل طرابلس وبوصول ايتون إلى درنة رفع العلم الأمريكي وهي أول مرة يرفع فيها العلم الأمريكي خارج الأراضي الأمريكية مما اضطر أن يطلب من قنصل انجلترا التوسط بينه وبين الحكومة الأمريكية وتمخض عن ذلك عقد الصلح في 4 يونيو 1805[2]. وقد أورد عبد الله الخباط رسالة القنصل الإنجليزي التي يبلغ فيها بعضاً من بنود معاهدة الصلح البالغة عشرين بنداً[3].

ومما يلفت الانتباه في هذه المعاهدة أن يوسف باشا لم يطالب بأي شيء سوى طرد أخيه أحمد وخروج القوات الأمريكية من بلاده زد على ذلك أن هذه المعاهدة لم تشتمل على أي نوع من أنواع التعويض الذي كان لزاماً على أمريكا دفعه للباشا نتيجة ضربها للمدينة بالقنابل ولا يوجد فيها أي التزام من أمريكا تجاه الباشا فيما عدا إرسال هدايا إلى الباشا مع قنصلها[4]. وبتوقيع هذه المعاهدة انتهى الصراع بين يوسف باشا والحكومة الأمريكية.

(1) شارل فيرو، الحوليات الليبية، مصدر سابق، ص387.
(2) مصطفى عبد الله بعيو، ليبيا في التاريخ، مرجع سابق، ص311، عبد الله الخباط، المرجع السابق، ص72.
(3) المرجع نفسه، والصفحة نفسها وما يليها.
(4) المرجع نفسه، ص73.

أدى هذا الصراع إلى قيام أمريكا ببناء أسطول قوي له مكانته بين الأساطيل مما دفع دول أوروبا إلى تجريب حظها في تحدي إرادة يوسف باشا بصفة خاصة وحكام الشمال الأفريقي بصفة عامة[1]. هكذا كانت مصلحة يوسف باشا الشخصية المحور الأساسي لطبيعة علاقاته الخارجية وكانت فرنسا القاسم المشترك في أكثر هذه العلاقات.

أما السياسة الداخلية في عهد يوسف باشا (1795م ـ 1830م) فقد ركزت على البناء الإداري والقضاء والتعليم والصناعة والزراعة والتجارة وبناء الجيش والأسطول.

لقد حافظت البلاد طيلة العهد القره مانلي على نفس التقسيمات الإدارية التي كانت عليها البلاد طيلة العهد العثماني الأول، حيث قسمت البلاد إلى ثلاثة ألوية هي طرابلس وبنغازي ومصراتة. وكانت طرابلس وبنغازي أهم هذه الألوية، وقد انقسم كل لواء إلى عدة أقضية وكل قضاء إلى مجموعة نواحي وكانت تسند مهمة حكم اللواء الأول إلى الباشا نفسه وحكم اللواء الثاني إلى أحد أبنائه أو من يثق فيه من أبناء أسرته.

وكان النظام الإداري يتكون من مجموعة من الوظائف في مقدمتها وظيفة البك وتسند هذه الوظيفة إلى أحد أبناء الباشا، ويمارس اختصاصات إدارة القوات العسكرية ونشر الأمن والنظام في البلاد وتحصيل الضرائب.

وتلي وظيفة البك في الأهمية وظيفة رئيس البحرية أو قبطان الميناء، وكانت مهمته الإشراف على الأسطول وتوفير كل ما يحتاجه، كما أوجد يوسف باشا وظيفتين أطلق على الأولى اسم كبير الوزراء، والثانية وزير الخارجية. وكان لهذين المركزين أهمية كبرى في الداخل والخارج، والاتصال مع الدول الأوروبية

(1) بروشين، تاريخ ليبيا، من منتصف القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، مرجع سابق، ص197 وما بعدها.

لإنهاء أي مشكلة من المشاكل، التي كانت تحدث بين يوسف باشا وبعض الدول الأوروبية.

ثم تأتي وظيفة الكيخيا والتي تنقسم إلى قسمين الكيخيا الكبير والكيخيا الصغير، ووظيفة الأول أنه مستشار الباشا الثاني، ويحل الكيخيا الصغير محل الكيخيا الكبير في حالة غيابه، وهناك وظيفة القائد وشيخ البلد والقاضي مهمته الفصل في النزاعات. وكما عرفنا أن الباشا هو الحاكم الأول في البلاد ويساعده مجلس يطلق عليه الديوان، وله اختصاصات واسعة[1]. ويترك للديوان تحديد الإجراءات الأكثر صرامة في معاقبة المجرمين، فمن حق الديوان الحكم على المجرم بقطع اليد، وقد أوضح الرحّالة الإنجليزي الكابتن ليون الذي زار طرابلس خلال حكم يوسف باشا بأن وسائل العقاب في طرابلس تطبق حسبما تنص عليه الشريعة الإسلامية، فعقاب السرقة قطع اليد، وإذا أقدم اللص على سرقة ثانية تقطع يده الأخرى أو رجله، وأفاد ليون أن عملية قطع اليد تتم بواسطة موسى. وبعد الانتهاء من تنفيذ العقوبة يغطس العضو المبتور في زيت أو سمن ساخن، وبعدها يسمح للجاني بالذهاب إلى البيت[2].

كما كانت تطبق أحكام بالسجن لفترات مختلفة في سجون القلعة الموحشة حيث يوجد سجن خاص بالأتراك وسجنان أخريان لبقية سكان الإيالة وكان طعام السجناء على حسابهم الخاص، وانتشرت عقوبة الجلد بالعصا أو السوط على الظهر أو القدمين وهذا العقاب يتساوى فيه الناس جميعاً تبعاً لمشيئة الباشا حيث يبين لنا شدة الباشا وعدالته بحيث لا تأخذه في الحق لومة لائم وكانت أحكامه تصدر على أقرب الناس إليه[3].

أما القضاء الشرعي فقد لعب دوراً بارزاً في الحياة الاجتماعية للإيالة

(1) بروشين، تاريخ ليبيا، من منتصف القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، مرجع سابق، ص158 وما يليها.
(2) جون فرنسيس ليون، المصدر السابق، ص167 وما بعدها.
(3) المصدر نفسه، ص170.

والمحاكمة كانت تجري عن طريق قاضيين يمثل أحدهما المذهب الحنفي الذي يسير عليه الأتراك ويعين لفترة طويلة من جانب السلطان العثماني ويتم اعفاؤه من استنبول. أما القاضي الثاني فهو يمثل المذهب المالكي ويعين من طرف سكان الأيالة، باستثناء الأباضية، وكان يفصل في دعاواهم القاضي الحنفي أو المالكي ويلاحظ أن القاضي الحنفي يعتبر القاضي الأول والمسؤول عن جميع القضاة في المدينة(1).

إلا أنه في عام 1768م جرى تغير في قاعدة تعيين القضاة حيث أصدر الباشا علي القره مانلي قراراً بتعين حسن بن الحاج سليمان التوغار قاضياً في طرابلس وكان من أصل تركي ومذهبه حنفي، غير أنه كان من مواليد طرابلس، وبالتالي كان تعيينه من الباشا ولم يرجع في ذلك إلى دار الخلافة(2).

كان التعليم يتم في المسجد الذي يقوم بأكثر من وظيفة فهو المكان الذي تؤدى فيه الصلوات ويجتمع فيه الناس لمناقشة أمور دينهم ودنياهم ويجتمع فيه القضاة لحل المشاكل التي تحدث بين الناس وهو المكان الذي يقصده طلبة العلم للتعليم والهداية وكان الطلبة يجلسون على هيئة حلقات دراسية في المساجد ويتوسطهم الفقيه حتى يتعلموا المبادئ الأولية في القراءة والكتابة ثم بعد ذلك حفظ القرآن الكريم.

أن حفظ القرآن يعتبر من المناسبات التي يحتفل بها، حيث تقوم أسرة الطالب بالاحتفال وإقامة الولائم بالمناسبة، وبعض هؤلاء الطلاب ممن لديهم الإمكانيات والطموح يواصلون الدراسة في الخارج، وبالتالي كان منهم الفقهاء والعلماء والقضاة.

لقد أكد المؤرخ ابن غلبون أن أحمد باشا القره مانلي كان يظهر الحب

(1) بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، مرجع سابق، ص159 وما بعدها.

(2) رودولفو ميكاكي، مرجع سابق، ص30.

للعلم وتشجيعه العلماء فيقول(1): «ومن مراعاته لخباب العلم الذي حفظ مبادئ الشريعة جمعه العلماء بين يديه لفصل الخصومة وتصريحه لهم في مجالسه بأن يحكموا بحكم الله ولو عليه شخصياً، وكان يقبل شفاعتهم في غالب الأمر».

إن نمط التعليم في مدن الإيالة لا يختلف عما هو عليه في طرابلس واللافت للنظر ما يذكره الرحّالة ليون(2) الذي كان في طرابلس الغرب في عهد يوسف باشا إذ يتحدث عن يوم للعلم في مرزق في نهاية كل عام إذ يقول: «إنه من عاداتهم أن يقام في يوم معين من كل سنة احتفال من أجل الأطفال الذين أنهوا تعليمهم، حيث يركب هؤلاء الأطفال على ظهور الخيل في أجمل لباس ثم يقف الشيخ على ربوة عالية من الرمال غربي المدينة حاملاً علماً صغيراً في يده، وفي الأخرى عصا ويقف الأطفال على مسافة منه وعندما يبسط العلم ويضعه على الأرض يتحرك جميع الأطفال جرياً للوصول إلى ذلك المكان ومن يصل إلى العلم ويرفعه من الأرض يصبح الأول على أقرانه وتعطى له الهدايا والنقود والملابس»(3).

لا شك أن الزراعة والصناعة لم تتجاوز إطار ما يتطلبه السوق المحلي وقد برزت صناعة السفن وكانت تحقق أرباحاً للدولة، وشهدت هذه الصناعة ازدهاراً في العهد القره مانلي وخاصة في عهد يوسف باشا لدرجة أن الأسطول الطرابلسي كان من أقوى أساطيل البحر الأبيض المتوسط، وبالتالي فرض هذا الأسطول سيطرته على أغلب الأساطيل التي كانت تجوب البحر المتوسط(4).

ويلاحظ أن الصناعة حدث فيها تطور في أوائل عهد يوسف باشا وجاء هذا نتيجة أن البلاد في هذه الفترة تمتعت بهدوء نسبي فأدى إلى ازدهار التجارة بين

(1) ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق الطاهر الزاوي، طرابلس، 1931م، ص206.

(2) جون فرنسيس ليون، المصدر السابق، ص187.

(3) المصدر نفسه، والصفحة نفسها وما يليها.

(4) رودلفو ميكاكي، المرجع السابق، ص137.

طرابلس الغرب وبلاد السودان ومصر وبقية الدول الأوروبية فكثرت الأسواق وتوفرت المواد الخام إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً، ففي أواخر عهده كثرت الفوضى والاضطرابات، فكسدت التجارة وانحطت الصناعة وترك كله آثاراً سلبية على مسيرة التقدم والتطور.

أما جانب الزراعة فقد مثل رخاء الإيالة غير أنه كان مرتبطاً إلى حد بعيد بتساقط الأمطار، ففي الفترات التي كانت تسقط فيها أمطار غزيرة على الإيالة تتحصل على محاصيل وفيرة لدرجة أنها تقوم بتصدير الفائض من الحبوب إلى المناطق المجاورة، وعندما يتناقص هطول الأمطار تقل المحاصيل ويصبح السكان عرضة للمجاعة مما يترتب عليه زيادة في أسعار القمح، وهذا الجفاف كان يؤدي إلى حالات الفقر وينعكس سلباً على الزراعة، حيث كانت حراثة الأرض وجمع المحصول يجريان بطريقة بدائية بالمحراث والنورج[1] يعتمدان على القوة العضلية، زد على ذلك الوسائل البدائية للزراعة كانت تقف عائقاً لتطوير القوى الإنتاجية كما نلاحظ أن نظام مقايضة السلع كان سائداً بين الناس[2].

وكما أشرنا سلفاً تزامن العهد الأول لحكم يوسف باشا مع مرحلة تطور التجارة لطرابلس الغرب، فكانت التجارة المصدر الأساسي لموارد خزينة الحاكم ولم يثر فقط أعضاء الأسرة القره مانلية على حسابها بل كانوا أنفسهم يشتغلون بالتجارة، وهو ما تشير إليه أغلب الدراسات التاريخية في هذا الجانب، كما أن تنامي تصدير البضائع إلى أفريقيا وتصدير المواد الأولية منها إلى أوروبا كان نتيجة للثورة الصناعية في فرنسا وبريطانيا ولهذا تحول حوض البحر الأبيض المتوسط إلى منطقة حركة بحرية تجارية متعاظمة وهو ما مكن حكام دول الشمال الأفريقي من أن يجبوا إتاوة كبرى كانت بالنسبة لهم أيضاً واحداً من أكبر مصادر الدخل،

---

(1) النورج: آلة زراعية تستعمل في درس الحبوب. انظر بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، مرجع سابق، ص154.

(2) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

كما أن العائدات الواردة من التجارة الأفريقية عبر الصحراء والتي تطورت بفضل المتطلبات المتنامية لأوروبا في تصريف منتوجاتها كانت تعد مصدراً للدخل لا يقل أهمية عن غيره من مصادر الدخل الأخرى[1].

الجيش والأسطول:

حاول يوسف باشا الابتعاد عن تكوين الجيش النظامي وهذا يرجع إلى كثرة المصاريف التي يحتاجها الجيش في أوقات السلم، وبالتالي كون فرق خاصة لحراسته واستعان بعدد من الإنكشارية ونهج سياسة قديمة كان قد سار عليها أسلافه من الأسرة القره مانلية وهي إعفاء سكان الساحل والمنشية من جميع الضرائب مقابل مشاركتهم في الحرب عند طلبهم.

وقد وصف ميكاكي ذلك بقوله[2]:

«لم يحتفظ [أي: يوسف باشا] بجيوش ثابتة عدا حرسه الخاص وجماعات الكواوغلية عند الضرورة، ويعين عدد الجند الذين كان على كل رئيس إرسالهم إليه عند الطلب بحيث يستطيع تأليف جيش من عشرة آلاف فارس وأربعين ألف من المشاة».

وكان يوسف باشا إذا تعرض إلى أزمات شديدة وثورات فكان ملاذه الأخير شيوخ القبائل الموالين له حيث يطلب منهم إمداده بالعدد الكافي من المحاربين، وبالتالي يلبي هؤلاء الشيوخ الطلب، فنجد الرحّالة علي بك العباسي في هذا الصدد يقول[3]:

«كان يقوم على حراسة الباشا ثلاثمائة تركي، ومئة من المماليك الخيالة ويوجد بجانبهم قوات غير نظامية ويستدعي الباشا العشائر العربية الليبية أثناء

---

(1) بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، مرجع سابق، ص156.

(2) رودلفو ميكاكي، المرجع السابق، ص134 وما بعدها.

(3) نقلاً عن خالد محمد الهدار، تراث الشعب، مرجع سابق، ص124.

الحرب فيأتون بأعلامهم وراياتهم تعلو رؤوسهم ويحشدون أربعين ألف فارس وعشرة آلاف فرس».

وبالتالي هذه القوات هي التي اعتمد عليها يوسف باشا لتقوية قبضته على جميع أجزاء ليبيا والوقوف ضد جميع التدخلات الأجنبية وكذلك لمواجهة الخلافات الأسرية وبالذات المشكلة القائمة بين يوسف وأخيه أحمد كما أن هذا الجيش استعمل في كثير من الحملات التأديبية ضد المناطق الخارجة عن القانون والطاعة لباشا البلاد والالتزام بدفع الضرائب والإتاوات.

أما أسطول الإيالة فلم يكن القوة المطلوب منها حماية البلاد من العدوان الخارجي بقدر ما كان القوة التي تؤكد هيبة الإيالة والمنبع الهام لتحصيل الأموال التي كانت ضرورية جداً من أجل إثراء الصفوة الحاكمة العليا والإنفاق على الجيش وكل النظام الحاكم بمجموعه، ولذلك كان الأسطول يمثل المهمة الأولية بالنسبة للحاكم وكانوا يهتمون ببناء السفن بالرغم من المصاعب التي تقف في طريقهم للحصول على الخشب لصناعة السفن[1].

2 ـ الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى زوال العهد القره مانلي:

شهدت ولاية طرابلس الغرب في العهد القره مانلي (1711-1835م) وضعين مختلفين، ففي مطلع الحكم القره مانلي شهدت ليبيا عهداً اقتصادياً وسياسياً مزدهراً، كما عانت البلاد في أواخره مشاكل اقتصادية وسياسية أدت على تقويض ركائز حكم الأسرة القره مانلية، وبالتالي فتحت الباب أمام التدخل الأجنبي والتغلغل الاقتصادي الاستعماري ويعتبر يوسف باشا القره مانلي في بداية حكمه القائد الناجح الذي استطاع أن يحقق الانتصارات لشعبه على مختلف مستوياته وكذلك فرض قوته على الدول الأوروبية التي اتخذت البحر الأبيض المتوسط مجالاً حيوياً لنشاطها التجاري والبحري.

(1) بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، مرجع سابق، ص164.

أما دخل خزائنه فكان يأتي من الضرائب والأتاوات السنوية التي تؤخذ من الدول الأوروبية سنوياً مقابل الحماية والأمن لسفنها من اعتداء الأسطول الطرابلسي، وكذلك من المبالغ التي تؤخذ من هذه الدول عند تعيين قناصلها في طرابلس ثم المبالغ التي يحصل عليها البحارة من غزواتهم البحرية.

ولهذا كانت مصادر الدخل متعددة ومتنوعة وبالتالي لا يمكن تحديد دخل ثابت للدولة القره مانلية لأن مصادر هذا الدخل تتغير من وقت لآخر. ويلاحظ أن الحاكم القره مانلي كان بيده مقاليد الأمور في الإقليم، ومن قلعة طرابلس كانت تصدر التعليمات والفرمانات بتعيين القيادات في مدن الإيالة مدعومين بقوة حماية وعدد من الموظفين مهمتهم حصر أموال الناس وجمع الضرائب إلى جانب المساعدة التي يقدمها المختارون ومشائخ القبائل، وبالتالي كان اختيار هؤلاء الأشخاص البارزين في كل منطقة قد ساعد إلى حد كبير في تدليل الصعاب أمام الباشا في موضوع جمع الضرائب ولما لم يستطع القره مانليون السيطرة التامة على المجتمع القبلي في الدواخل فإنهم تركوا هذه القبائل وشأنها، أما العوامل التي ساهمت في تدهور وانحطاط نظام جمع الضرائب في العهد القره مانلي فهي على النحو التالي:

أ ـ النزاعات القبلية التي انتشرت بين القبائل في مختلف أنحاء الولاية كنتيجة مباشرة لممارسات الباشوات المالية الظالمة.

ب ـ سنوات القحط والجفاف التي تعرضت لها الولاية وساعدت على تردي الأوضاع الاقتصادية واستعمالها.

جـ ـ تعاظم الصراع على السلطة بين أفراد العائلة القره مانلية، ساهم في التقليل من شأن الدولة وسطوتها وبالتالي عزز من الصراعات الجهوية والمصلحية بين حكام مختلف المدن والقرى[1].

(1) عبد المولى صالح الحرير، «نظرة تحليلية لأبعاد سياسة يوسف باشا القره مانلي الاقتصادية على العلاقات الاجتماعية في النصف الأول من القرن 19»، المجلة التاريخية المغربية، (تونس: س12، ع 37 ـ 38، جوان 1985م)، ص80.

وهذه العوامل قللت من هيمنة جباة الضرائب الذين لعبوا دور الوسيط بين الحاكم والمحكوم، وبالتالي أخذت العلاقة السياسية بين الباشوات والقبائل تتغير تغيراً جوهرياً، فنهج الولاة تمثل في ممارسات العنف والضغوط الإدارية على بعض القبائل الليبية، وهذه السياسة لم تكن سبباً في قطع الموارد الاقتصادية لخزانة الولاية بل جرّت المنطقة بأسرها إلى حروب أهلية لم يشهد لها مثيل في القرنين الماضيين.

كما أن الصراع على السلطة بين القره مانليين كانت له انعكاسات وأثار سلبية على الأوضاع السياسية والاقتصادية. ولذا فإن اشتداد الصراع على السلطة بين أبناء علي باشا القره مانلي في أواخر عهده وقبيل وفاته كانت له آثار سلبية أيضاً[1]. وكان لعلي باشا ثلاثة أولاد؛ هم حسن، أحمد، يوسف، واشتد بينهم النزاع على من يخلف الوالد العجوز الذي بدأت أيامه تدنو نحو النهاية وخوفاً من انفراد أي منهم بسلطة الوالد فقد كان لكل منهم جيشه وحرسه الخاص ولما علم علي باشا بالخلافات بين أبنائه الذين تعجلوا وفاته من أجل الوثوب على العرش، قام ببعض المحاولات التي كان الهدف منها تسوية الخلافات بين أولاده، وعندما تأكد له تعنت الابن الأصغر لموقفه الداعي إلى الانفراد بالسلطة قام بإرسال مائتي جندي من حرسه الخاص لطرده من طرابلس كما دعا علي باشا بعض من أعيان طرابلس وشرح لهم الموقف طالباً منهم إقناع يوسف بصواب رأي والده وإبعاده من حلبة الصراع مع أخوته تفادياً لأي تطورات قد تهز أركان عرش الأسرة القره مانلية.

إلا أن وفد طرابلس لم يحقق أي نتائج إيجابية، بل زادت من حقد يوسف وتطرفه تجاه والده وشقيقيه وقد استغل يوسف سخط زعماء عدد من القبائل المحيطة بطرابلس ضد والده فمدوا يد العون له وأسقطوا نظامه وتخلص من أخويه حسن وأحمد، كما أبدى يوسف بعض المخاوف من غزو الدول المسيحية

(1) عبد المولى صالح الحرير، «نظرة تحليلية لأبعاد سياسة يوسف باشا القره مانلي على العلاقات الاجتماعية في النصف الأول من القرن 19»، مرجع سابق، ص80 وما يليها.

للولاية نتيجة لتدنّي الأوضاع السياسية والاقتصادية موضحاً رغبته في الاستحواذ على عرش الوالد، كما نجح يوسف باشا في إقناع (خليفة بن عون المحمودي) شيخ قبيلة المحاميد لكي يدعم موقفه العسكري والسياسي. وبما أن يوسف هو أصغر أشقائه فهذا شكل معضلة قانونية وتقليدية في عرف الأسرة الحاكمة لأن الحكم كان يؤول للابن الأكبر ثم لمن بعده ومن هذا المنطلق قرر يوسف تصفية شقيقيه أحمد وحسن، ويعد هذا القرار بالغ الخطورة في تاريخ الأسرة القره مانلية وعاملاً جوهرياً في التعجيل بإسقاطها كما سنرى[1].

ففي يوليو 1790م بادر إلى تصفية شقيقه الأكبر حسن وإزاء هذه الحادثة انقسمت البلاد إلى قسمين متصارعين القسم الأول مؤيد ليوسف والقسم الثاني مؤيد لعلي باشا، كما أن هذه الأمور لم تنته عند هذا الحد كما اعتقد البعض، فالشيخ سيف النصر شيخ قبيلة أولاد سليمان أعلن العصيان المسلح ضد علي باشا مهدداً بغزو مدينة طرابلس إذا لم يثأر الباشا من القاتل يوسف[2].

والواقع، أن الدافع الخفي لمسلك الشيخ سيف النصر ليس بطبيعة الحال التباكي على المقتول لأن مسألة القتل في حد ذاتها كانت مسألة عائلية صرفة إلا أن هنالك عدداً من الدوافع جعلته يعد العدة للزحف على المدينة وهي على النحو التالي:

أ ـ سبق للباشا وأن عين ابنه يوسف حاكماً على مصراتة وما يتبعها جغرافياً من مساحات شاسعة احتوت أراضي قبيلة أولاد سليمان المتحكمة في تجارة القوافل التي تمر بميناء تلك البلدة.

ب ـ أن سياسة العنف التي انتهجها يوسف أثناء بقائه حاكماً في مصراتة نفرت عدداً من الزعماء منه ومن بينهم الشيخ سيف النصر المذكور.

(1) بروشين، تاريخ ليبيا منتصف القرن السادس عشر مطلع القرن العشرين، مرجع سابق، ص134 وما يليها.

(2) المرجع نفسه، ص136 وما يليها.

جـ ـ أن الامتيازات الجمركية لتجارة أولاد سليمان ازدادت تعقيداً في أثناء حكم يوسف لمصراتة.

كما أن تحالف يوسف مع الشيخ خليفة بن عون المحمودي يعد من وجهة نظر الشيخ سيف النصر خطراً داهماً على مصالحه الاقتصادية والأمنية وهذا الموقف بطبيعة الحال له خلفياته التاريخية الماثلة في الصراع القبلي القائم على المصالح بين أولاد سليمان والمحاميد، فارتباط قبيلة المحاميد مع يوسف باشا المنتظر لطرابلس سوف يغير من موازين القوى كما كان يرى الشيخ سيف النصر وبالتالي تهديد الشيخ سيف النصر بمهاجمة طرابلس كان له المنطلقات التاريخية والاستراتيجية والاقتصادية[1].

في خضم الانشغال بهذا الصراع الداخلي داهم مدينة طرابلس بحرياً المغامر الجزائري المعروف بعلي برغل أو علي الجزائري، وذلك في شهر يوليو 1793م وقد سيطر على جميع مقاليد الأمور بعد أن طرد كل أفراد الأسرة القره مانلية إلى تونس فحكم البلاد من شهر يوليو 1793م إلى يناير 1795م، غير أن علي الجزائري دخل في صراعات مبكرة مع والي تونس حمودة باشا المضيف للأسرة القره مانلية وقد تطور الصراع بين طرابلس وتونس فأدى إلى غزو علي الجزائري لجزيرة جربة ولم يسكت حمودة باشا عن هذا التوسع المفاجئ على حساب ولايته، فبادر باستغلال الأسرة القره مانلية التي اتحدت كلمتها ظاهرياً أمام عدوها المشترك علي الجزائري[2].

وبمساعدة حمودة باشا والي تونس تمكن القره مانليون من تشكيل جيش بري وآخر بحري بقيادة تونسية ومساعدة علي باشا وأبنيه أحمد ويوسف، وقد تمكن يوسف من خلال علاقاته مع القبائل الواقعة إلى الجنوب والجنوب الغربي من

(1) عبد المولى صالح الحرير، «نظرة تحليلية لأبعاد سياسة يوسف باشا القره مانلي على العلاقات الاجتماعية في النصف الأول من القرن 19»، المرجع السابق، 82.

(2) بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، المرجع السابق، ص144 وما يليها.

طرابلس من تأليبها ضد علي الجزائري، في الوقت ذاته قامت القوات البحرية التونسية من دك ميناء طرابلس وعلى أثر هذا الغزو تحررت الولاية من نير علي الجزائري وعصابته ورجعت الأسرة القره مانلية ثانية إلى سدة الحكم في طرابلس[1].

بعد استقرار الحكم للقرمانليين لم يلتزم يوسف باشا بتطبيق التزام والده تجاه حمودة باشا حاكم تونس، وأعلن الثورة ضد والده وأخيه، وبهذا أصبح يوسف باشا هو الحاكم الجديد لطرابلس إلا أن معالجة يوسف باشا لهذه المشاكل كان فيها شيء من السلبية مما ترتب عليه قيام عدد من الثورات والحروب الأهلية وبالتالي أثرت سلباً على حركة التجارة الداخلية والخارجية المرتبطة مع بلاد السودان جنوبي الصحراء، كما أن انحدار التجارة وتدهورها قد أثر على الموارد الأخرى التي كان يتحصل عليها الباشا من السكان كضرائب الدخل والعقارات وغيرها. وهذه الأزمة فرضت على الباشا اللجوء إلى احتكار الاقتصاد والتجارة، فأصبح هو المورّد والمصدّر الوحيد لدرجة أنه قد احتكر تجارة الحبوب بكافة أنواعها وكذلك كل ما يلزم جيوشه وأسطوله، ولما اشتدت الأزمة ونقصت العملة في البلاد لجأ إلى استعمال نظام مالي عرف بنظام البطاقات وهذا النظام في الواقع مكن أصحاب رؤوس الأموال الأجانب من تسديد الضربة إلى رأس المال الوطني[2] فطبقاً لنظام البطاقات كان يوسف باشا يعقد الصفقات التجارية مع بعض التجّار الأجانب وأصحاب رؤوس الأموال عندما يأتي الموعد للدفع يحال صاحب الدين إلى حاكم أحد الأقاليم بتوجيه من الباشا، وتسمى هذه البطاقات فواتير تسوية أو دفع وجرت العادة عند قدوم الرأسمالي الدائن حاملاً فاتورته موقعة من الباشا ومعه طائفة من العسكر لحمايته وحماية الجباة ويرافقهم الحاكم المحلي وهو ممثل للباشا في هذا الإقليم وأحياناً

(1) بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، المرجع السابق، ص150 وما يليها.

(2) عمر بن إسماعيل، سقوط الدولة القره مانلية في ليبيا 1975 ـ 1835م، المرجع السابق، ص231.

كانت تدفع لصاحب الدين سلع على هيئة مقايضة فمثلاً كان يخصص السمن والزبدة والعسل والجمال وغيرها من الدواب والحبوب كسلع لتسديد الديون، وأحياناً كان الباشا يخصص نوعاً أو نوعين أو ربما أكثر للرأسمالي ليستوردها تسديداً لفاتورته بعد معرفة الأسعار لكل سلعة[1].

ويلاحظ أن هذا النظام في البداية قد نُفِّذَ بدون عوائق تذكر إلا أن زيادة حاجة الباشا إلى المال للبذخ، نتج عنها مزيد من الاستدانات التي عجز عن سدادها في وقتها، فلجأ إلى بعض الحيل، منها تخصيص أقاليم بعينها لدفع الالتزامات لأكثر من مدين في وقت واحد، فأحدث ذلك إرباكاً شديداً في الوفاء بالتزامات جميع المدينين الذين طالبوا بتعويضهم، بزيادة الأرباح المركبة، فَقُبلت مطالبهم حتى ارتفعت نسبتها من 2,5% إلى 12,5%. الأمر الذي جعل وضعه الاقتصادي حرجاً وحدثت مشاكل بين أصحاب رؤوس الأموال ولجأوا إلى قناصلهم بعد أن نفدت كل حلول الباشا وكان دور القناصل في بداية الأمر دور الوسيط لحل المشاكل المالية بين رعاياهم والباشا، إلا أن هذه الاتفاقيات تطورت إلى معاهدات ذات صبغة سياسية بين يوسف باشا وعدد من الدول الأوروبية وهذا يعني أن التزاماته أخذت صبغة دولية لها أبعادها السياسية المستقبلية[2].

وفي مطلع العشرينات من القرن التاسع عشر امتنع وكيل ساردينيا في طرابلس عن تقديم الهدايا المعتادة للباشا وبالتالي أمره يوسف باشا بإنزال علم بلاده وأعلن الحرب على ساردينيا ولم يمض وقت طويل حتى ظهر أمير البحر سيفولي على رأس سفن حربية أمام طرابلس وعندها وقع يوسف في حيرة وأراد التفاوض من خلال القنصلية الإنجليزية إلا أنه بالغ في شروطه للصلح حيث طلب مبلغ 30,000 قرش فرد عليه أمير البحر سيفولي قائلاً: «يجب أن يحظى بثلاثين ألف طلقة»، وشرع في الحال بقصف المدينة وبالتالي حصل الساردينيين بعد وقت

---

(1) عبد المولى صالح الحرير، «نظرة تحليلية لأبعاد سياسة يوسف باشا القره مانلي على العلاقات الاجتماعية في النصف الأول من القرن 19»، المرجع السابق، ص84.

(2) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

قصير على ما أرادوا فقد تحطم كبرياء يوسف باشا[1].

بعد ذلك بوقت قصير ظهر أسطول نابولي أمام طرابلس للمطالبة بتعويض عن أذى لحق بهم إلا أنهم انسحبوا دون أن يفعلوا شيئاً وقد تعرضت حكومة يوسف باشا لأغلب المتاعب من جانب رعاياها وذلك بعدم رغبتهم في التخلي عن الغزو البحري الذي يدر ربحاً وفيراً، وهكذا كان شأن ثلاث سفن تبحر في ظل العلم البابوي والتي خطفت في عام 1826م والبابا لا يمتلك قوة رادعة تحميه من غزاة البحر المسلمين فتوجه إلى فرنسا التي قامت بإرسال أسطول تحت قيادة أرنوس دي سولسي الذي قام بإرجاع السفن الثلاث[2].

ويلاحظ أن موقف الممولين قد تعزز نتيجة للعمل بنظام البطاقات وتمكنوا من السيطرة على مصادر الثروة في الأيالة، ونتيجة لعدم قدرة الباشا على القيام بتسديد ديونه فإن العلاقة بينه وبينهم تطورت إلى الشكاوى التي رفعها أصحاب الديون إلى قناصلهم. ونأتي هنا لنستعرض إحدى بنود الاتفاقيات بين يوسف باشا وعدد من رعايا توسكانيا الموقعة في 17 جمادى الأول 1246هـ/ 1830م كمثال على نمط الاتفاقيات الموقعة بين الباشوات والقناصل الأجانب، وهي التي دعمت موقفهم في السيطرة على اقتصاديات الأيالة.

فعلى سبيل المثال البند الثاني من الاتفاقية بين الباشا وقنصل توسكانيا تنص على أن يقسم دين الباشا للرعايا التوسكانيين إلى ثلاثة أقسام بدفع كل قسم منها في غضون سنة من تاريخ التصديق على تلك الاتفاقية، فالجزء الأول الذي كان يشكل 42% من جملة الدين يجب أن يدفع في شهر رمضان 1245هـ/ 1830م، والجزء الثاني وهو 50% يدفع في العام الثاني، أما المبلغ المتبقي وهو 8% فكان يجب أن يدفع في العام الثالث مع إضافة أرباح قدرها 2,5% شهرياً على القسط الأخير فقط وهذا المبلغ يعجز الباشا في تسديده كما هو متفق عليه

---

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص50.

(2) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

سلفاً، وجاء في هذه الاتفاقية أن تدفع هذه الديون من عائدات مدينتي درنة وبنغازي وتعهد الباشا بعدم التصرف في هذه العائدات إلى حين تسديد الدين وأكدت هذه الاتفاقية صراحة على أن يقوم محمد بيت المال وزير مالية الباشا بجمع المبالغ التي تخص البادية في هذا الجزء من الأيالة[1].

غير أن حاجة الباشا الماسة إلى المال من ناحية وعدم تقديره لأبعاد ومخاطر السياسة المالية مع الأجانب من ناحية أخرى جعلته لا يتورع في توقيع المزيد من الاتفاقيات المتضاربة المصالح لعدد من الدول الأوروبية الأمر الذي أعطى لهؤلاء الممولين سنداً قوياً لتوسيع مصالحهم الاقتصادية في الولاية[2]، كما أن الباشا لم يلتزم ببنود الاتفاق مع القنصل والرعايا التوسكانين فنجده سرعان ما حصل على قرض من فرنسا والتزم بموجب هذا الاتفاق مع الممولين الفرنسيين نفس الحقوق التي تحصل عليها التوسكانيون وفي المنطقة ذاتها أي مدينتي درنة وبنغازي وبدون علم الطرفين وعندما اتضحت للقنصل التوسكاني حيل الباشا فرض عليه في اتفاقية أخرى بأن يدفع 10% من قيمة الدين حالاً وأن يدفع باقي ثلثي المبلغ ذهباً وفضة مع تحديد وضبط أسعار هذين المعدنين حتى لا يتلاعب الباشا في تغير الأسعار مرة أخرى والمبلغ المتبقي يدفع من محصولات بنغازي بأسعار يتم تحديدها مسبقاً، وبالتالي وافق الباشا على دفع أرباح قدرها 30% على المبالغ التي لا تسدد في موعدها ونلاحظ في هذه البنود تعاظم قوة القناصل الأجانب وانعكاس تضارب مصالح بلدانهم على مقدرات الأيالة كما يبرز لنا أن الباشا حاول أن يستفيد من هذا الصراع متوقعاً أنه سيكون الظافر والغانم[3].

ومع بداية عام 1830م بدأ الاهتمام الفرنسي البريطاني بطرابلس الغرب

(1) عمر بن إسماعيل، سقوط الدولة القره مانلية في ليبيا 1975 ـ 1835م، المرجع السابق، ص232 وما يليها.

(2) وثيقة رقم 52/ 24، ملف الأسرة القره مانلية، شعبة الوثائق والمخطوطات، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ملحق رقم (4).

(3) عبد المولى صالح الحرير، «نظرة تحليلية لأبعاد سياسة يوسف باشا القره مانلي على العلاقات الاجتماعية في النصف الأول من القرن 19»، المرجع السابق، ص85 وما بعدها.

ويعكس الصراع القنصلي بين وارنجتون البريطاني وروسو الفرنسي عن طبيعة العلاقة بين الباشا وهذه الدول ونواياها التغلغلية، فالصراع بينهما حول مسألة اغتيال الرحّالة الإنجليزي لا ينج وإدعاء القنصل الفرنسي بحقه في حماية مصالح وديون الرعايا الفرنسيين انتهى بفرنسا إلى استعمال العنف والغزو المسلح للولاية.

وعندما شعرت فرنسا بأن ميزان القوة في غير صالحها فإن غزوها لميناء طرابلس في 9 أغسطس 1830م ما هو في الواقع إلا جزء من المغامرات الاستعمارية الفرنسية هدفها السيطرة على ولاية الجزائر وقطع الطريق على التوسع البريطاني غربي الحدود المصرية.

فقائد الأسطول الفرنسي روزاميل أملى إرادته على الباشا بأن وقّعه معاهدة تعتبر مسؤولة عن الخلل الاقتصادي للأيالة وتمثل من ناحية أخرى أساس التغلغل الاستعماري والاقتصادي في أيالة طرابلس الغرب[1]، وأن الاتفاقية التي أبرمت بين يوسف باشا والقائد الفرنسي تتكون من أحد عشر بنداً وبعض الملحقات، ففي البند الثاني من هذه الاتفاقية فإن ما يعرف عند القره مانليين بالجهاد البحري وفي المصادر الغربية بالقرصنة القره مانلية، أصبحت ممارسته محرمة دولياً وهذا يعني فقد الباشا عنصراً أساسياً من مصادر خزانته[2].

أما البند الثالث من هذه الاتفاقية فقد حرم على الباشا استرقاق المسيحيين، ومنذ ذلك الحين كان على الباشا أن يعاملهم بكل احترام وتقدير، ونص هذا البند على تحريم الرق وتجارته عبر الصحراء الأفريقية، ونص البند الرابع على تقليص الباشا لأسطوله البحري، كما ألغي البند السابع جميع الامتيازات التي فرضها الباشا على الدول الأوروبية بمناسبة تعيين قناصلها وسفرائها وأعطت هذه

(1) وثيقة رقم 15/ 24 ملف محمد بيت المال، المجموعة الأولى والثانية، شعبة الوثائق والمخطوطات، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ملحق رقم (5).

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص51؛ عمر بن إسماعيل، سقوط الدولة القره مانلية في ليبيا 1975 ـ 1835م، المرجع السابق، ص239 وما يليها.

الاتفاقية الحق للدول الأوروبية في تعيين ممثلين تجاريين في كافة أنحاء الأيالة مع إعطائهم الحرية الكاملة في التنقل داخل الأيالة[1].

وقد كان من نتائج هذه الاتفاقية المذلة ما يلي:

أ - عمقت التغلغل الاقتصادي للدول الأوروبية في الإقليم.

ب - جردت في الوقت نفسه الباشا من مصادره المالية الأساسية.

جـ - جعلت الباشا يعتمد اعتماداً أساسياً على الدول الأوروبية في حل مشاكله المالية بالهبات والرشاوى.

د - دفعت الباشا إلى فرض ضرائب جديدة ومستمرة على الفلاحين والحرفيين.

هـ - خلقت تنافساً دموياً بين الفلاحين من أجل السيطرة على مصادر الثروة من أجل مواجهة طلبات الباشا المالية وتجنباً لاضطهاده وعقوباته المتكررة.

و - نفرت السكان من العمل في الزراعة والصناعة.

ز - قتلت رأس المال الوطني والطموحات الفردية لسكان الولاية أمام مزاحمة رأس المال الأوروبي القوي المدعوم سياسياً، الأمر الذي اضطر الكثير من التجار الوطنيين إلى بيع بيوتهم التجارية والتخلي عن حرفتهم إلى الأبد.

حـ - ساعدت هذه الاتفاقية على إعطاء الحرية التامة للتجار الأوروبيين بجلب الأسلحة النارية والاتجار بها بشكل لم تشهده الولاية، الأمر الذي من شأنه أن يساعد على تعميق الصراع بين القبائل التي تضاربت مصالحها بعد استفحال الأزمة الاقتصادية[2].

في ظل الأزمة المالية ليوسف باشا ولكي يكتمل مصابه ظهر الأسطول الإنجليزي في عام 1832م وطالب بتسديد الديون المتأخرة للرعايا الإنجليز بقيمة

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص242 وما يليها.

(2) عبد المولى صالح الحرير، «نظرة تحليلية لأبعاد سياسة يوسف باشا القره مانلي على العلاقات الاجتماعية في النصف الأول من القرن 19»، مرجع سابق، ص87.

200,000 قرش إسباني ولم يمنح الباشا سوى مهلة 48 ساعة، ولما كان من المحال أن يجمع هذا المبلغ في هذه المهلة لأن الأزمة النقدية بلغت من الحدة حيث قام ببيع برونز مدافع القلعة إلى التجار النصارى عندئذ أنزل القنصل العام البريطاني علمه وتوجه على متن السفينة الحربية وفي ظل هذه الظروف اندفع يوسف باشا للبحث عن حلول تخرجه من الأزمة لكنه فشل[1].

ولهذا نلاحظ أن الأزمة السياسية والاقتصادية في أواخر العهد القره مانلي انعكست سلباً على كل طبقات الشعب الليبي وساهمت في فتح الباب على مصراعيه للتغلغل الاستعماري المبكر في أيالة طرابلس الغرب كما أن هذه الأزمات دفعت يوسف باشا إلى فرض ضرائب جديدة وبالذات على بعض القبائل التي كانت معفية من دفع الضرائب مما ترتب عليه رفض هذه الضرائب وتصاعد الفوضى والاضطرابات، مما أدى إلى تمكين العثمانيين من العودة مرة أخرى لحكم البلاد وتذمر الأهالي[2]، واستغلال بعض زعماء القبائل لهذه السياسة فقاموا بعدد من الثورات والحركات المناهضة فيما بعد.

3 ـ العهد العثماني الثاني وإصلاحاته الإدارية والاقتصادية والاجتماعية:

في عام 1835م تدخل العثمانيون لحكم الولاية التي كانت مستقلة استقلالاً ذاتياً وتحكم حكماً مباشراً ووجدوا البلاد قد دمرتها الحرب الأهلية وتعطلت التجارة والزراعة بسبب النزاعات، أما الوحدة السياسية والاستقرار فقد دمر نتيجة

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص51 وما بعدها.

(2) وثيقة رقم 145/ 24 ملف الفقيه حسن العهد العثماني الثاني، شعبة الوثائق والمخطوطات، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ملحق رقم (6). ولمزيد من المعلومات حول يوسف باشا وعصره وعلاقاته بالقناصل الأجانب ودولهم، انظر مجموعة الوثائق رقم 10/ 24 الأسرة القرمانلية ورقم 8/ 24، و11/ 24، و14/ 24، و32/ 24، و48/ 24 محمد بيت المال المجموعة الأولى والثانية، شعبة الوثائق والمخطوطات، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ملاحق رقم (7 ـ 8 ـ 9 ـ 10 ـ 11 ـ 12).

الإهمال لسنوات طويلة من قبل الحكومة والإقطاع المحلي، وبالتالي كان الحكام الجدد في حاجة إلى ما يقرب من عشرين عاماً لإعادة تثبيت النظام والاستقرار وفي منتصف الخمسينيات من القرن التاسع عشر الميلادي أصبحت الولاية أرضاً خصبة لإجراء الإصلاحات التي ظهرت ثمارها خلال حركة الإصلاح أو عصر ما يسمى بالتنظيمات[1].

إن الأسباب الرئيسة التي حتمت على الدولة العثمانية الدخول في مسألة الإصلاحات تعود إلى تشجيع وضغوط الدول الكبرى على الباب العالي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بهدف إدخال تعديلات جديدة على جميع المؤسسات وكذلك القوانين السائدة في الإمبراطورية والتي تتمشى مع النظم والمفاهيم الغربية الحديثة بهدف تقديم الخدمات وحماية مصالح الرعايا المسيحيين والواقعين تحت نفوذ السلطان العثماني بينما البعض الآخر كانت له أهداف أخرى فمثلاً بريطانيا كانت تسعى لضمان مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية في الدولة العثمانية والشرق الأقصى، ورأت بريطانيا أن إجراء الإصلاحات يقود إلى تقوية الدولة العثمانية، وبالتالي تتمكن من الوقوف في وجه التوسع الروسي الذي حاول مراراً السيطرة على المضايق حتى تؤمن لأساطيلها حرية العبور إلى البحر الأبيض المتوسط وحماية التجارة في حوض المتوسط.

وبهذا تستطيع أن تنافس بريطانيا في تلك المناطق ونتيجة للضغط الأوروبي والتهديدات العسكرية الروسية تبنت الحكومة العثمانية برنامج الإصلاح، فقام بعض من رجال السياسة العثمانية بمهمة تنفيذ المشاريع الإصلاحية المختلفة في الفترة (1839 ـ 1856م) أمثال الوزراء مصطفى رشيد باشا (1800 ـ 1858م)، وعلي باشا (1815 ـ 1871م)، وفؤاد باشا (1815 ـ 1869م).

تمثلت المشاريع الإصلاحية في نصوص المرسومين السلطانيين اللذين

(1) عبد الله علي إبراهيم، «مجلس الإدارة في ليبيا في العهد العثماني الثاني»، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، 1، 1980م، ص11.

صدرا في تلك الفترة، الأول خط شريف كلخانة الذي أعلن في نوفمبر 1839م وقام بإعداد مواده مصطفى رشيد باشا (1800 ـ 1858) الذي كان وزيراً للخارجية وقتئذ ومن بين القضايا التي تناولها ذلك المرسوم هي تنظيم جباية الضرائب وتحسين النظم الإدارية والتجنيد وتوفير الأمن لكافة سكان الإمبراطورية وحماية ممتلكاتهم، أما المرسوم الثاني فهو خط همايون وجاء إعلانه في نوفمبر من عام 1856م أي بعد انتهاء حرب القرم وأهم ما جاء فيه التأكيد على ما ورد في خط شريف كلخانة وأوصى بضرورة تأكيد مبدأ المساواة بين جميع فئات شعوب الإمبراطورية في الحقوق والواجبات شاملاً في ذلك شغل الوظائف والخدمة العسكرية ونادى المرسوم بضرورة تحسين الأوضاع الاقتصادية وتنظيم قوانين العقوبات وإنشاء المحاكم المختلطة وغير ذلك.

ومن أهم ما يميز حركة الإصلاح في الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر هو إعادة هيكلة وإصلاح المؤسسات الإدارية وبالفعل انعكس ذلك على جميع مرافق الدولة الإدارية وشمل جميع المناطق والأقاليم التابعة للدولة العثمانية في أوروبا وبلدان المشرق العربي وشمال أفريقيا بما في ذلك ولاية طرابلس الغرب وبرقة، وإن الهدف من وراء برنامج الإصلاحات الإدارية الشاملة هو بناء قاعدة الحكم المباشر وسيطرة الحكومة على جميع أنحاء الإمبراطورية وهذا يترتب عليه وضع حد لنفوذ الولاة في الترتيب الأول وثانياً تمكين المشائخ والأعيان في مشاركة الحكومة المحلية ومساعدة الولاة لإدارة شؤون بلدانهم ولو بصفة رمزية[1].

ففي 8 نوفمبر 1864م وفي إطار السعي لتحسين مستوى أداء الأجهزة الإدارية، أصدرت الحكومة قانوناً يقضي بإلغاء نظام الإيالات وإحلال نظام الولايات محله وكذلك إنشاء مجالس إدارية في عواصم الولايات والفروع الإدارية الداخلية التابعة لكل منهما.

ويبرز لنا أن إصلاحات الدولة العثمانية لم تظهر أثارها في ليبيا إلا في

(1) عبد الله علي إبراهيم، «مجلس الإدارة في ليبيا في العهد العثماني الثاني»، مرجع السابق، ص12.

النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولعل من أهم الأسباب التي كانت عائقاً أمام حركة الإصلاح في هذا القطر هو عدم الاستقرار السياسي الذي تمثل في بعض الثورات الداخلية ومن بينها ثورة الشيخ غومة المحمودي ومؤيديه في الجبل الغربي عام (1835 ـ 1858م) وهذه الثورة في الواقع لم تقتصر على مواجهة توسع السلطة العثمانية في منطقة الجبل وشل الوضع السياسي في البلاد بشكل عام بل كانت لها نتائج سلبية على المدى البعيد ساهمت في تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

ويلاحظ أن قانون الولايات الصادر في عام 1864م لم يقتصر على استعمال الاسم الجديد (ولاية طرابلس الغرب) وإنما ظهرت بعض المظاهر بشكل واضح في قطاع المجالس الإدارية والبلدية والقضائية[1] ففي العهد القره مانلي كانت ليبيا مقسمة إلى أربع قائمقاميات أو متصرفيات هي الجبل الغربي، الخمس، بنغازي وفزان، أما المناطق القريبة لمدينة طرابلس فكانت تابعة لنفس مدينة طرابلس عاصمة الإيالة وبعد عودة البلاد للحكم العثماني المباشر في عام 1835م استمرت القيادات العثمانية على تلك التقسيمات حتى عام 1864م الذي تزامن معه إجراء تعديلات إدارية جديدة.

وبعد عام 1864م الذي نقلت فيه طرابلس من إيالة إلى ولاية جرت تعديلات جديدة على المناطق الإدارية في البلاد حيث قسمت البلاد إلى مناطق عرفت باسم الألوية (جمع لواء) وهذه الدوائر نفسها قسمت إلى فروع أصغر وينضوي تحت اللواء عدد من الأقضية (جمع قضاء) وفي كل قضاء عدد من المديريات والقرى وبناء على ذلك أصبحت ليبيا تقسم إدارياً إلى الفروع الأساسية الآتية: لواء طرابلس وفيه مقر حكومة الولاية لواء بنغازي، لواء الخمس، لواء فزان، لواء الجبل الغربي[2].

«وقد جرى تحسين التقسيمات الإدارية للولاية طبقاً للإصلاحات التي

---

(1) عبد الله علي إبراهيم، «مجلس الإدارة في ليبيا في العهد العثماني الثاني»، المرجع السابق، ص12 ـ 13.

(2) المرجع نفسه، ص14.

أدخلت على الحكومة المركزية حتى انتهت إلى النظام الذي ظل سائداً ومطبقاً غداة الاحتلال الإيطالي»[1].

ويلاحظ أنه عند حدوث التغيرات الإدارية في الولاية تزامن معها إنشاء مجالس البلدية ومجالس المحاكم والمجالس الإدارية وهي من الظواهر الهامة التي برزت في ليبيا وعند إنشاء مجلس الإدارة الذي تأسس في مدينة طرابلس وصار يعرف بمجلس إدارة الولاية وتأسست مجالس مصغرة في الفروع الإدارية الداخلية في الألوية والأقضية وبهذا أصبح هناك مجلس إدارة في مركز كل لواء ومقر كل قضاء وإلى جانب مجلس الإدارة يوجد مجلس عموم الولاية في مدينة طرابلس يمثل هيئة استشارية عليا تساعد الولاية في مناقشة بعض الأمور الهامة غير أن هذا المجلس قبل صدور قانون الولايات كان يتكون من بعض رجال الحكومة والقضاء ورجال الدين وبعض المشائخ والأعيان الذين يعينون من طرف الوالي[2].

وهذا المجلس كان موجوداً قبل إنشاء مجلس الإدارة ويعود تأسيسه على عهد الوالي محمد أمين باشا (1842 ـ 1846)[3].

وبعد استحداث النظام الإداري الجديد حدث تغير في طريقة اختيار الأعضاء الذين يمثلون المشائخ والأعيان حيث أصبحت طريقة الاختيار تتم بواسطة الانتخاب من خلال مجالس الأقضية التابعة لمركز لواء طرابلس وهذا ينطبق على الدواخل قبل إنشاء مجلس الإدارة حيث كان يوجد بها مجالس محلية على غرار المجلس العمومي تضم في عضويتها بالإضافة إلى ممثلي الحكومة العثمانية عدداً من كبار الوجهاء والمشائخ والأعيان[4].

---

(1) أنوري روسي، مرجع سابق، ص456.

(2) عبد الله علي إبراهيم، «مجلس الإدارة في ليبيا في العهد العثماني الثاني»، المرجع السابق، ص15.

(3) أحمد النائب الأنصاري، المصدر السابق، ص350.

(4) عبد الله علي إبراهيم، «مجلس الإدارة في ليبيا في العهد العثماني الثاني»، المرجع السابق، ص16.

ويحدثنا رولفس في رحلته من طرابلس إلى الإسكندرية عن الوضع الإداري لطرابلس الغرب: «منذ 1835م يتولى إدارة إيالة طرابلس الغرب في ظل الحكومة والي برتبة مشير واختير لهذا المنصب رجال من صفوف المدنيين والعسكريين لا بل من البحرية، فقد جرى اختيار أمراء بحر ولاة على طرابلس الغرب ويمكن أن يستدعي الوالي حسب رغبة الباب العالي وغالباً ما أقدمت الحكومة العثمانية على مثل ذلك في بداية فرض سيطرتها إلا أنها الآن غالباً ما تدع المشير الذي تم تعينه أربع سنوات في منصبه كما أسلفت بحيث يتعرف على جميع الأوضاع في البلاد وعلى السكان»[1].

أما عن عام 1864م والذي تحولت فيه طرابلس الغرب من أيالة إلى ولاية فقال رولفس: «ولم تعد سلطة الوالي حالياً مطلقة يمتلك حق التصرف بجباة الناس فقد وضع إلى جانبه في إدارة الولاية مجلس كبير ومجلس مشورة وهذا المجلس يضم الأشخاص الذين يشغلون أعلى المناصب مثل القاضي وقائد الجيش والمفتي إلخ، وعلاوة على ذلك يمكن التوجه بالشكوى ضد المشير إلى الوزارات في اسطنبول وحتى إلى الخليفة ذاته، ويتلقى المشير راتبه كوالي ويزعم أنه يحصل على دخل قدره خمسين ألف فرنك»[2].

وجاء في وصف رولفس للفترة السابقة لعام 1864م قوله: «إن منطقة طرابلس تعتبر ولاية تابعة للحكومة العثمانية (إيالة) تتشكل من سبع ألوية أو نواحي وهي تطابق الأقضية وتشعباتها لدينا في ألمانيا وإن عدد وحجم هذه الوحدات الإدارية يتبدل تكراراً حسب مزاج المشير أو الوالي وكان يتولى المشير[*] تعين حاكم اللواء ويعين حالياً حكام الأقضية من اسطنبول لكنهم في الأمور الإدارية خاضعون للمشير في منطقة طرابلس والألوية المختلفة هي

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص61.

(2) المصدر نفسه والصفحة.

(*) رتبة عسكرية في العهد العثماني.

طرابلس ذاتها وما يجاورها المنشية وتاجوراء.. إلخ، الخمس وهي تضم غرب خليج سرت وجبال ترهونة الواقعة جنوبي طرابلس حتى مزدة. غدامس مع بعض الواحات المجاورة لها فزان، برقة وهي تضم مجمل قورينا القديمة وواحات أوجلة ويتولى اللواء قائمقام وغالباً ما يحمل أيضاً لقب باشا وينقسم اللواء إلى مديريات يقوم على رأس كل منها مدير»[1].

أما فيما يتعلق بالنواحي الاقتصادية فقد بدا الاهتمام بجميع مرافق ومصادر الدخل الذي يشكل عائداً للحكومة مثل المعادن والمنتجات الزراعية المحتكرة من قبل الإدارة العثمانية كالملح والنطرون والتبغ وبدا الاهتمام بكافة العمليات الخاصة بالمبيعات والمشتريات الحكومية حيث قاموا بإبرام العقود الخاصة بالتأجير أو بيع العقارات والأراضي الزراعية العائدة للحكومة وكذلك عقود مبيعات المحاصيل الفائضة من الضرائب والأعشار التي تباع عن طريق المزاد العلني وكذلك الاهتمام بالقروض الممنوحة للمزارعين من المصرف الزراعي أو صندوق المنفعة العامة وذلك من حيث تقديرها وضمان تسديد المبالغ المقترضة عن طريق كفالات تم تحديد الأراضي الصالحة للزراعة التي تستحق منح القروض[2] وشجع رجال الإصلاح أو التنظيمات تطوير الزراعة وتسجيل الأراضي والتوسع في الملكية الخاصة طبقاً لقانون الأراضي العثماني 1858م وبالرغم من أن تسجيل الأراضي كان مقصوراً على منطقة طرابلس ومناطق المدن في برقة وبالتالي حدث تغير كبير في البنيان التجاري والإداري للبلاد[3].

وفي أواخر القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين بدأت

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص75.

(2) عبد الله علي إبراهيم، «مجلس الإدارة في ليبيا في العهد العثماني الثاني»، المرجع السابق، ص22 وما بعدها.

(3) ليزا اندرسون، «آراء غربية في إصلاح عثماني»، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، 2، 1985م، ص117.

المحاولات الجادة للاهتمام بقطاع التعليم حيث أنشئت بعض المدارس والمعاهد وبالتعاون مع إدارة المعارف تم تزويدها ببعض الأثاث والمعدات المدرسية والمعلمين.

وإن الإصلاحات التي تمت في مجال التعليم كانت تهدف إلى تخريج موظفين مدربين تدريباً مناسباً للأعمال الإدارية كما أنشئت أول مدرسة رشدية على غرار المدارس الثانوية الحديثة في طرابلس غير أن تعطيل الدستور العثماني في عام 1876م كان بداية السنوات الثلاثين لحكم الاستبداد في اسطنبول، وفي هذه الفترة أخذت الإصلاحات تسير ببطء غير أنها لم تقتصر على ولاية طرابلس الغرب حيث ساهمت الدعوة إلى فكرة الجامعة الإسلامية التي كان السلطان عبد الحميد يرمي من ورائها إلى الحفاظ على وحدة الإمبراطورية في وجه الحملات المتصاعدة إلى تأكيد الوحدة الداخلية لولاية طرابلس الغرب وارتباطها بالإمبراطورية [1].

إلا أننا نلاحظ بعض السلبيات في العلاقة بين الإدارة العثمانية والأهالي في الفترة ما بين (1835 ـ 1858م) وهذا في الواقع كان سببه الثورات ضد الوجود العثماني، وبالتالي ولدت تجربة مريرة لدى السلطات العثمانية أجبرتها على ضرورة إيجاد نمط للعلاقات مع سكان البلاد تضمن بواسطته السيطرة على البلاد بدون تحدي أو مقاومة ومن أجل ذلك بادرت حكومة طرابلس إلى استيعاب العناصر القوية في المجتمع والفئات صاحبة النفوذ والمصالح في المؤسسات الإدارية وجعلهم ينتمون إلى الطبقة الحاكمة وتمثل ذلك في الوجهاء والأعيان والقضاة وغيرهم من ذوي الكيان الاقتصادي والاجتماعي [2].

كما أتيحت لهؤلاء الفرصة للمشاركة في إدارة شؤون البلاد وراعت السلطات العثمانية المصالح الاقتصادية لهؤلاء تمثل في الإعفاء من الضرائب

(1) ليزا اندرسون، المرجع السابق، ص116 ـ 117.

(2) محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة عبد السلام أدهم، محمد الأسطى، بنغازي: الجامعة الليبية، كلية الآداب، 1970م، وثيقة رقم 56 ـ 115.

ودفع المعاشات وبعض المزايا الأخرى [1] وبالتالي وجدت الطبقة صاحبة النفوذ في المجتمع أن مهمة الحفاظ على مصالحها الخاصة تتطلب التعاون والتأييد للنخبة الحاكمة.

4 ـ الثورات المحلية خلال العهد العثماني الثاني أسبابها ونتائجها الاقتصادية والاجتماعية:

أولاً/ ثورة عبد الجليل سيف النصر:

ينتسب عبد الجليل بن غيث سيف النصر إلى الجبائر أحد بيوت قبيلة أولاد سليمان الأربعة وهي الجبائر واللهيوات والشريدات والميايسة الذين يرجعون إلى قبيلة بني سليم [2] العربية، وهم أولاد سالم بن وهب بن رافع بن دياب بن مالك بن بكر بن بهتة بن سليم ولسالم أخ اسمه سليمان وهو جد أولاد سليمان وكانوا يسكنون في جنوب غريان وكانت رياستهم في ولد نصر [3] ولد عبد الجليل بن غيث سيف النصر عام 1797م بمنطقة هراوة بسرت حيث كان جده سيف النصر في ذلك الوقت يواجه الهجمات القره مانلية المتوالية مما أدى إلى قتله في عام 1804م بمنطقة سرت ثم قتل ابنه أحمد وغيث في عام 1808م، وبالتالي تمكن القره مانليون من أسر أبناء غيث الثلاثة وهم عمر وعبد الجليل وسيف النصر الذين كانت أعمارهم بين الحادية عشر (عمر) العاشرة (عبد الجليل) والتسع سنوات (سيف النصر)، وبعد أن فقدت قبيلة أولاد سليمان أبرز قادتها هاجرت إلى مصر ونقل أبناء غيث الثلاثة إلى قصر يوسف باشا بمدينة طرابلس الذي سمح لهم بمواصلة تعليمهم والاختلاط مع الناس مما ساعد على ظهور مواهبهم [4].

(1) أحمد النائب الأنصاري، المصدر السابق، ص25.

(2) ابن غلبون، المصدر السابق، ص24.

(3) الطاهر أحمد الزاوي، معجم البلدان الليبية، ليبيا: طرابلس، 1968م، ص179.

(4) محمد الطوير، «ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني في ليبيا 1831م ـ 1842م»، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، 1، 1998م، ص144 وما بعدها.

وفي عام 1831م أعلن عبد الجليل الثورة[1] لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية ومن بينها مؤامرة رجال بلاط يوسف باشا على حياة عبد الجليل الذي آثار غيرتهم لما تميز به من كفاءة وقدرات قيادية أدت إلى تكليفه من الباشا بقيادة قوة لدعم محمد الأمين الكانمي في برنو ونفذ المهمة بكفاءة مما جعل رجال البلاط يعملون على التخلص منه إلا أنه كان على علم بما يحاك ضده من خلال عيون قصر الباشا حيث اقنعوا يوسف باشا بقيام عبد الجليل بحركة ضده محاولاً اغتصاب الحكم وبالذات بعد عودته من برنو منتصراً وازدياد شعبيته[2].

أما العامل الثاني: جاء نتيجة لتدهور الأحوال الاقتصادية في ولاية طرابلس الغرب وخاصة بعد أن تحالفت الدول الأوروبية ضدها بعدم الالتزام بدفع الإتاوات السنوية لخزينة الوالي يوسف باشا وحلوا محلها قطعاً حربية من أسطولهم حاملة التهديد والوعيد وخاصة في عام 1825م عندما قامت قطع حربية تابعة لسردينيا بمهاجمة شواطئ مدينة طرابلس وكذلك السفن الفرنسية بقيادة روزاميل في سنة 1830م بهدف المطالبة بدفع 800 ألف فرنك فرنسي كمصاريف للحملة مع دفع ديون رعايا فرنسا وعدم تطوير قوة يوسف باشا البحرية والسماح له بتجديد القائم منها على أن يكون بالحجم نفسه والمواصفات ذاتها.

ثالثاً: تردي الأوضاع الاجتماعية في الولاية بسبب إهمال التجارة والصناعة والزراعة وكذلك انتشار الأمراض والطاعون والجدري وسائر الأمراض الأخرى

---

(1) لمزيد من المعلومات حول الثورة وصاحبها، والظروف التي أحاطت بها، انظر وثيقة رقم 12/ 24 ورقم 13/ 24، ورقم 58/ 24، ملف محمد بيت المال، المجموعة الأولى والثانية، شعبة الوثائق والمخطوطات، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ملاحق رقم (13 ـ 14 ـ 15)، ووثيقة رقم 66/ م2/ ح1 ملف الشؤون الداخلية دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، ملحق رقم (16)، ووثيقة بدون رقم مكتبة خاصة لصاحبها مختار بن يونس، طرابلس، ليبيا، ملحق رقم (17).

(2) محمد الطوير، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني في ليبيا، المرجع السابق، ص148 وما بعدها.

وهذا يرجع لعدم وجود السكن الصحي وقلة الطعام وانعدام المستشفيات والدواء، زد على ذلك انتشار الجهل والفقر[1].

وأشار رولفس إلى ذلك في كتابه رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية بقوله: «...وعلاوة على المصاعب الخارجية التي جعلت ثروة الباشا تتضاءل والتي كانت تؤدي إلى إلحاق الهوان الدائم بحكومة طرابلس الغرب وأضعفت هيبتها في دواخل البلاد تأتي حركات التمرد والعصيان من جانب رعاياه ذاتهم وبذلك أصبح من الممكن التنبؤ بسقوط يوسف العجوز وأن شخصاً يدعى عبد الجليل قائد أولاد سليمان أعلن عصيانه في 1831م وزحف على فزان واستولى على البلاد وأرسل يوسف باشا ولديه علي وإبراهيم كي يلاحقوه وما أن عبروا جبل غريان حتى تمردت قبائل الجبل واضطرتهما إلى الإسراع في العودة إلى طرابلس»[2].

وأورد شارل فيرو في كتابه الحوليات الليبية أيضاً أنه بمجرد ما أعلن عبد الجليل عن ثورته طلب منه يوسف باشا الحضور إلى طرابلس إلا أن عبد الجليل يعرف أسرارهم ومكائدهم وبالتالي أرسل لهم عبد الجليل رسولاً تمثل في أحد أعوانه وبعد قتل هذا الرسول حصل عبد الجليل على مبرر الثورة، حيث قام يوسف باشا بتحريض أعدائه عليه، إلا أن عبد الجليل تمكن من هزيمة البعض واستمالة البعض الآخر إلى صفه وعندما وجد نفسه أقوى من ذي قبل بعث أخوته إلى فزان حيث تم الاستيلاء على هذا الإقليم وعندما علمت طرابلس أن حاكم فزان محاصر جهزت حملة من جند الساحل والمنشية والحامية النظامية بطرابلس بقيادة ابنه البكر سيدي علي وأخوه الأصغر إبراهيم[3].

---

(1) محمد الطوير، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني في ليبيا، المرجع السابق، ص149.

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص51. انظر أيضاً وثيقة رقم 20/ 24 ملف الأسرة القرمانلية، شعبة الوثائق والمخطوطات، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ملحق رقم (18).

(3) شارل فيرو، المصدر السابق، ص421.

وكان خط سير الحملة على النحو التالي في يوم الثامن من أكتوبر 1831م خرج إبراهيم بن يوسف باشا من طرابلس متجهاً إلى بني وليد ولحق به أخوه علي بك على رأس حملة كبيرة خرجت من طرابلس يوم 29 أكتوبر 1831م وفي منطقة زليتن تمت عملية اللحاق بين الحملتين المتجهتين إلى منطقة بني وليد، والتي بلغ تعدادها نحو عشرين ألف رجل من بينهم (4000) أربعة آلاف فارس وخمسة عشر مدفعاً، وفي الوقت ذاته كانت قوات عبد الجليل لا تزيد عن 5310 مسلحاً موزعين على المناطق والقبائل التالية:

1 - ورفلة 2400 شخص.

2 - القذاذفة 950 شخص.

3 - أولاد سليمان 350 شخصاً .

4 - منزاوة 350 شخصاً.

5 - المناصير 400 شخص.

6 - أولاد بريك 60 شخصاً.

7 - بعض القبائل الأخرى 900 شخص[1].

وعندما تأكد عبد الجليل سيف النصر من وصول قوات الباشا إلى جنوب بني وليد في المكان المعروف بقليعات الحطابة قرر الهجوم عليهم في ليلة السبت السابع من جمادي الآخرة 1247 الموافق 13 نوفمبر 1831م مستغلاً في ذلك ظروف الإنهاك والتعب التي كانت عليها الحملة، وكذلك الظلام الدامس حيث دارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس استمرت حوالي ثلاث ساعات، تراجع بعدها عبد الجليل ناحية بني وليد تاركاً وراءه بعض القتلى والجرحى قدّرتهم

(1) محمد الطوير، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني، مرجع سابق، ص151 وما بعدها.

القيادة القره مانلية بنحو 150 شخصاً وفي المقابل خسرت قوات يوسف باشا أحد عشر رجلاً[1].

ثم زحفت قوات الباشا باتجاه بني وليد إلى عند ظهرة الشيخ السوداني حيث تمركزت قوات عبد الجليل في موقعين هما موقع السرار (الصراري) في الوسط وموقع سيدي القائد في الغرب، وقام كل من علي بك وأخوه إبراهيم بالهجوم على الثائرين في موقع السرار، ثم توسعت أرض المعركة حتى شملت ظهرة القائد، غير أن الهزيمة كادت أن تلحق بالقوات القره مانلية بالرغم من احتلالها لأهم مواقع الثائرين إلا أنها فقدتها أمام صمود المدافعين العرب.

واستمر القتال إلى غروب شمس ذلك اليوم بعد تدخل أفراد أولاد أبي سيف حيث أسفرت المعركة عن مصرع 140 رجل من قوات الباشا مع جرح 300 رجل و80 قتيلاً من قوات عبد الجليل. وفي صبيحة يوم 15 نوفمبر 1831م واصلت قوات الباشا شن هجماتها، حيث قامت بقطع أشجار المواطنين وتهديم منازلهم والزحف على الجهة الشمالية من وادي بني وليد حيث دارت معركة بين الطرفين طوال ذلك اليوم وامتد القتال حتى شمل موقع التربة ووسط الوادي وكذلك الجزء الجنوبي من الوادي وموقع السرار واستمر القتال حتى مساء ذلك اليوم وبعدها تدخل أولاد بن مريم وزوي غريان وأولاد أبي سيف بوقف القتال بعد أن خسرت قوات عبد الجليل 212 قتيلاً و300 من الجرحى مقابل 150 شخصاً من القوات القره مانلية[2].

ونتيجة لتدخل المرابطين بين الطرفين وارتفاع مصاريف الحملة القره مانلية وكثرة الخسائر في الأرواح والمعدات حيث حصل انقسام في صفوف قوات الباشا بناء على رغبة البعض منهم في العودة إلى مناطقهم سالمين وقبل انتهاء

(1) محمد الطوير، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني، مرجع سابق، ص152 وما بعدها.

(2) المرجع نفسه، ص153.

موسم الحرث مما فرض على الباشا إعدام البعض منهم. وفي يوم 29 نوفمبر 1831م قام المرابطون بمقابلة الباشا ونقلوا مطالب عبد الجليل ورحب القنصل البريطاني وارنجتون بالمشاركة في المفاوضات التي حدد لها يوم 10 ديسمبر 1831م وزار وارنجتون بني وليد يوم 7 يناير 1832م وقدم شروط الباشا إلى عبد الجليل والتي تتضمن الآتي:

1 - أن يسلم عبد الجليل إلى الباشا 1500 رأس من الإبل أو ما يعادلها نقداً بمعدل خمسة عشر قرشاً للجمل الواحد.

2 - أن يتحصل الباشا على 4000 حمل من الشعير أي نحو 8000 قنطار.

3 - أن يدفع عبد الجليل 15,000 قرش إلى الباشا نقداً.

4 - أن يسلم عبد الجليل عدداً من الرهائن إلى الباشا شريطة أن يكون من بينهم اخوته لضمان الصلح.

5 - انسحاب عمر سيف النصر من فزان.

6 - أن يُعيد العرب الثائرون ما استولوا عليه من غنائم إلى الباشا.

7 - أن يعترف الباشا في مقابل ذلك بزعامة عبد الجليل الدائمة على بني وليد وسرت، أما فزان فتكون زعامته عليها لمدة سنة فقط يتم تحديدها فيما بعد[1].

غير أن القنصل البريطاني لم يوفق في إقناع عبد الجليل لقبول الشروط التي طلبها الباشا بسبب وقوف القبائل إلى جانب عبد الجليل وعجز قوات الباشا في مواصلة القتال بوادي بني وليد لمدة طويلة.

وبالإضافة إلى شروط الباشا فقد قدم عبد الجليل هو الآخر شروطاً أيضاً :

(1) كولا فولايان، المرجع السابق، 161؛ عبد الله الخباط، المرجع السابق، ص187 وما بعدها.

1 - يجب كتابة شروط السلام مع ضامن ويفضل أن يكون القنصل البريطاني وارنجتون.

2 - على الباشا أن يسحب قواته التي يقودها علي باي إلى طرابلس.

3 - يجب على الباشا ألا يرجع المكني والياً على فزان.

4 - وأنه يجب على من يرسل إلى هناك أيّاً كان ألا يكون له أكثر من خمسين مرافقاً، وعليه إدارة الإقليم جنباً إلى جنب مع جيش يعسكر هناك مع عبد الجليل.

5 - وأخيراً يجب جمع الضرائب من الإقليم بمشاركة ممثلي الباشا وضابط من جيش عبد الجليل[1].

إلا أن يوسف باشا قام بتقديم كل ما تحتاجه قواته الرابضة في بني وليد من سلاح وذخيرة وتموين ورجال رفقة الجنود النظامين في اليوم الخامس من فبراير 1832م غير أن القتال في بني وليد لم يستأنف وذلك لانضمام قبائل أولاد أبو سيف إلى قوات عبد الجليل واقترح المكني على الوالي بترك المعارك في بني وليد والتوجه جنوباً لاسترجاع فزان وخاصة مرزق التي ما زال ولاؤها للباشا وتؤيد حكمه.

وقام علي بك باختيار 2500 رجلاً مسلحاً من بين أفراد قواته مع 200 من الجنود النظامية وأمرهم أن يتوجهوا تحت قيادة المكني إلى فزان لإعادة سلطة الباشا ورجع مع أخيه إبراهيم إلى مدينة طرابلس التي وصلها في 2 أبريل 1832م.

وواصل محمد المكني سيره صوب فزان عن طريق الجفرة حيث وجد فيها عمر سيف النصر فاتجه مسرعاً إلى الزيغن وسمنو وسبها التي اصطدمت فيها قوات المكني بمقاومة عنيفة دامت عشرين يوماً[2].

(1) كولا فوليان، المرجع السابق، ص161.

(2) حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، الجزء الأول، تحقيق محمد الأسطى، عمار جحيدر، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1984م، ص568 وما بعدها.

وبينما كان عبد الجليل يستعد لمواجهة الأيام الصعبة بعد أن سيطرت قوات محمد المكني على فزان إذ به يتنفس الصعداء على أثر اندلاع ثورة مسلحة بالمنشية (إحدى ضواحي مدينة طرابلس) والتي قادها المشائخ والأعيان بسبب ارتفاع الضرائب المفروضة عليهم من أجل تغطية الديون الإنجليزية والفرنسية ولتغطية مصاريف الحملة العسكرية السابقة على بني وليد وفزان التي زادت قيمتها عن 600,000 فرنك فرنسي[1]، وقد ردوا على الفور بإعلان التمرد ولم يقفوا عند هذا الحد بل أعلنوا خلع يوسف باشا وتعيين محمد القره مانلي خلفاً له ولما علم يوسف بالأمر سحب قراره بخصوص المنشية ولكن فات الأوان فبعث ولديه إلى الزاوية كي يتوليا قيادة عرب الساحل الذين أعلنوا تأييدهم له ولكن دون جدوى وظلت المنشية في حالة، تمرد وهرب ولداه عائديْن بالسفينة إلى طرابلس بالرغم أنه كان لديه في المدينة 1200 من العساكر بقوا على ولائهم له، إلا أنه كان عليه أن يخضع للظروف وأعلن تنازله لصالح ابنه علي القره مانلي[2].

في حين أن زعماء ثورة المنشية بادروا باختيار محمد ثم أحمد ابني محمد يوسف باشا القره مانلي لتسلم الحكم اعتباراً من يوم 28 يوليو 1832م، الأمر جعل الوالي الجديد علي باشا يطلب من محمد المكني العودة من فزان إلى طرابلس مما ساعد عبد الجليل وأنصاره في السيطرة على فزان وبني وليد وخاصة بعد قتل محمد المكني أثناء عبوره لمصراتة وهو في طريقه إلى طرابلس على يد عثمان الأدغم آغا مصراتة[3].

لقد أجرى القناصل الأوروبيون اتصالاتهم مع علي وما إن علم وارنجتون القنصل العام البريطاني باستقالة يوسف باشا حتى عاد إلى طرابلس ولكن بدلاً من

(1) رودلفو ميكاكي، المرجع السابق، ص236 ـ 247؛ انظر كذلك عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص52 وما بعدها.
(2) رودلفو ميكاكي، مرجع سابق، ص236 ـ 247؛ وانظر كذلك شارل فيرو، المصدر السابق، ص423 وما بعدها.
(3) المصدر نفسه، ص423.

أن يتخذ مقره في طرابلس فالمدينة ما زالت محاصرة، لذا نزل في بيته الريفي الواقع في المنشية وهكذا كان وسط المتمردين وبالطبع يمكن أن يفترض أن هذا قد جرى قصداً، وعلى كل حال فقد استوحى المتمردون الأمل في تأييد قضيتهم لأنهم كانوا على حق واعتقدوا أن إنجلترا تدعم قضيتهم بواسطة شخص يدعى محمد بيت المال وزير يوسف باشا السابق[1].

أما عبد الجليل سيف النصر فقد كان يراقب اشتعال الحرب الأهلية بين أفراد الأسرة القره مانلية حول مدينة طرابلس دون الدخول فيها مما حدا بالوالي الجديد علي باشا إلى الاعتراف به حاكماً على فزان وبني وليد وسرت بشرط ألا ينضم إلى جانب أبناء أخيه محمد ولم يورط عبد الجليل نفسه في أي معركة حتى سقطت الأسرة القره مانلية سنة 1835م، وعادت البلاد للحكم العثماني المباشر الذي دخل في مفاوضات مباشرة مع عبد الجليل من أجل الحصول على الأموال وأن يساعدهم في بسط سيطرتهم على أرجاء البلاد غير أن كل محاولات الصلح لم تنجح، فدارت معركة مسلاتة الطاحنة بين قوات العثمانيين وعبد الجليل في 25 ديسمبر 1839م أسفرت عن انسحاب عبد الجليل وأنصاره من مسلاتة إلى فزان بعد أن لقي 600 شخص من أنصاره مصارعهم و1000 شخص آخرين وقعوا أسرى[2].

ونعود إلى الأسباب التي أدت إلى هزيمة عبد الجليل سيف النصر في مسلاتة حيث إصرار الدولة العثمانية على القضاء على ثورته وخاصة أن الرجل ظل متمركزاً في الجزء الأوسط والجنوب في ولاية طرابلس الغرب دون أن يتعرض إلى هجمات قوية منذ سقوط حكم الأسرة القره مانلية في سنة 1835م أيضاً قيام عبد الجليل بعقد مجموعة من الاتفاقيات مع التجار الفرنسيين في 5 ديسمبر 1839م حول استغلال مناجم الكبريت الموجودة بمنطقة سرت والبريقة

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص52.
(2) محمد الطوير، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني، المرجع السابق، ص156.

ورأس لانوف مقابل حصوله على ريال نمساوي واحد، المعروف بالتالر مقابل كل أربعة قناطير من الكبريت يتم تصديرها مما أثار غضب الوالي عليه[1].

لقد عجل توقيع الاتفاق المذكور بالهجوم على قوات عبد الجليل وإلغاء الاتفاق المعقود بينه وبين الأتراك العثمانيين مقابل أن يدفع 25 ألف قرش لخزينة الدولة وذلك في الثاني من نوفمبر 1838م مقابل أن يعترف له بحكم بني وليد وفزان إلا أن الوالي علي عشقر باشا نقض هذا الاتفاق خوفاً من تقوية مركز عبد الجليل الاقتصادي والسياسي خاصة بعد ما وصل على رأس قواته إلى مسلاتة القريبة من مدينة طرابلس.

كما أن حالة الاستعداد العسكري التي ظهرت بها القوات العثمانية وخاصة استخدام سلاح المدفعية والسفن البحرية في نقل الجنود وبث الخلافات بين مؤيدي عبد الجليل كان لها أكبر الأثر في هزيمة قوات عبد الجليل بمسلاتة.

انتهزت القوات العثمانية انسحاب عبد الجليل من مسلاتة وتراجعه باتجاه مرزق فتعقبته حتى وادي بني وليد ولم تواصل الزحف خوفاً من إلحاق الهزيمة بهم، في الوقت نفسه أسرع عبد الجليل إلى إعادة تنظيم قواته وتزويدها بالأفراد والسلاح والذخيرة وعين كبار الموظفين على المناطق الخاضعة له مثل الجفرة وسبها ومرزق وسمنو وهذا ساعده على منع تقدم قوات الباشا باتجاه الجنوب وظلت تراقبه عن كتب حتى تمكنت من رصد تحركاته بمنطقة سرت في فصل الربيع سنة 1842م أثناء قدومه إلى هناك لمقابلة القنصل وارنجتون والذي كان هو أيضاً تحت مراقبة العثمانيين وكان سبب المقابلة رغبة القنصل البريطاني في التحدث مع عبد الجليل بشأن إلغاء تجارة الرقيق [2].

---

(1) محمد الطوير، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني، المرجع السابق، ص156.

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص56 وما بعدها؛ انظر كذلك محمد الطوير، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني، مرجع سابق، ص156.

ولما تأكدت الإدارة العثمانية من وجود عبد الجليل بمنطقة سرت خلال شهر مايو 1842م أرسلت بقوات برية وبحرية للمنطقة وأسندت قيادتها إلى حاكم مصراتة حسن عبد الله المعروف باسم البلعزي وطلب منه القبض على عبد الجليل حياً أو ميتاً، تحرك حسن عبد الله من مصراتة في يوم 14 مارس 1842م صوب وادي بي، فَجَرت معركة حامية بين الطرفين استمرت حوالي ثماني ساعات مما أجبر قوات عبد الجليل على الانسحاب إلى قارة البغلة بوادي بي وتكبدوا خلالها خسائر كبيرة نتيجة لاستخدام العثمانيين المدافع، وكان هدف قوات عبد الجليل من تواجدها في قارة البغلة على أمل وصول الإمدادات من مرزق إلا أن القوات العثمانية تمكنت من الحصول على الإمدادات الهامة التي بعث بها الوالي العثماني كالتموين والذخيرة والرجال مما مكنهم من فرض الحصار على قارة البغلة مع قطع الطريق على قافلة قادمة من مرزق لعبد الجليل بقيادة ابن عمه الساعدي الذي دخل في معركة مع العثمانيين وبعدها تمكن البلعزي من الاستيلاء على القافلة وتشتيت شمل القوة المرافقة لها[1].

أمام ازدياد الحصار وعدم وصول الإمدادات إلى قوات عبد الجليل أخذت المياه في النقصان ودب الخوف والذعر بين مؤيدي عبد الجليل الذين أرسل البعض منهم إلى حسن عبد الله البلعزي من أجل إجراء مباحثات ولكن زعماء ترهونة وورفلة ومصراتة المتحالفين مع عبد الجليل أجبروا على عقد صلح منفرد دون ضمان لحياة عبد الجليل وأفراد أسرته وانسحبوا من ميدان القتال وتركوا الرجل يلقى مصيره[2] وانتهز حسن عبد الله البلعزي هذه الفرصة بانسحاب المذكورين وقام بعد مرور أقل من ساعة بشن هجوم على قارة البغلة التي حوصرت من جميع الجهات وحاول عبد الجليل الاستمرار في المقاومة ولكن مصرع أخيه سيف النصر والبعض من أنصاره دفعه إلى الخروج والتقدم نحو القوات العثمانية من أجل الاستسلام وكان يسير معه ابنه وثلاثة من أبناء أخيه

---

(1) محمد الطوير، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني، مرجع سابق، ص158.

(2) المرجع نفسه، ص159.

سيف النصر وزوجاتهم، فقبض عليه الرائد عبد الرحمن آغا أوقية الذي أراد أخذه حيّاً إلى الوالي، إلا أن النار أطلقت عمداً من طرف جنود الباشا دون هوادة فسقط صريعاً في يوم السبت 18 من شهر ربيع الآخر 1258هـ الموافق 29 مايو 1842م منهياً الثورة التي دامت اثني عشر عاماً[1]. ونجم عن ذلك هجرة أولاد سليمان بعيداً عن المناطق التابعة للدولة العثمانية وقد استقروا في المنطقة الواقعة شمالي بحيرة تشاد في كانم.

ثانياً/ ثورة الشيخ غومة المحمودي:

يعود الشيخ غومة بن خليفة بن عون المحمودي إلى قبيلة المحاميد، وهي قبيلة من القبائل الكبرى بليبيا ويعود المحاميد في أصولهم إلى قبائل بني سليم العربية وينقسم المحاميد إلى قسمين، القسم الأول هما أولاد سعيد بن صولة، وكان مقر إقامتهم الرابطة وكذلك الجزء الواقع ما بين ككلة وغريان، أما القسم الثاني للمحاميد فهم أولاد مرموري وموطنهم الأصلي الزاوية وصرمان وإلى هذا الفرع الأخير ينتسب غومة[2].

في العهد القره مانلي كان الشيخ خليفة والد غومة زعيماً للمحاميد وكانت له علاقات طيبة بحكام العهد القره مانلي، وفي عام 1793م عندما استولى علي برغل على طرابلس وأجبر الأسرة القره مانلية على اللجوء إلى تونس فإن الشيخ خليفة قدم المساعدة للأسرة القره مانلية وهي في طريقها إلى تونس وعندما قام حمودة باشا بإرسال قواته إلى طرابلس للانتقام من علي برغل في 1795م وإعادة الحكم للقره مانليين، انضم الشيخ خليفة بقواته إلى القوات التونسية وكتب لهم النصر على جيش علي برغل، وعودة الحكم إلى أصحابه وعندما حاول يوسف باشا إزاحة أخيه أحمد من السلطة فإنه لم يقدم على تنفيذها إلا بعد أن حصل

(1) شارل فيرو، الحوليات الليبية، المصدر السابق، ص459؛ انظر كذلك محمد الطوير، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني، المرجع السابق، ص159.

(2) علي مصطفى المصراتي، غومة، فارس الصحراء، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1960م، ص55.

على موافقة وتأييد الشيخ خليفة، وهذا الدور جعل يوسف باشا يحفظ الجميل للشيخ المذكور فعينه حاكماً على منطقة الجبل وزوده بصلاحيات واسعة في إدارة المنطقة وكذلك جمع الضرائب والأعشار وبعد وفاة الشيخ خليفة ترك ابنيه أبو القاسم وغومة وسار هؤلاء على سياسة والدهم ونظراً لأن أبو القاسم هو الأكبر فقد تولى قيادة المحاميد بعد وفاة والده[1].

في عام 1817م رفضت قبائل نالوت دفع الضرائب فاستنجد أبو القاسم بيوسف باشا فأرسل له حملة تحت قيادة ابنه أحمد واستطاعت هذه الحملة إجبار قبائل نالوت بدفع ما عليها من ضرائب. وبعد رجوع أحمد إلى طرابلس بين أهمية الجبل وخيراته، ففكر يوسف باشا في وضع منطقة الجبل الغربي تحت تصرفه وقام بإعداد خطة لا تثير شكوك المحاميد. ففي عام 1820م قدّم أبو القاسم إلى طرابلس واستقبله يوسف باشا استقبالاً حاراً، وقدّم له الهدايا وخصص له منزلاً بالقرب من قصره وأمر بقتله وحتى يخفي يوسف باشا الجريمة قام بإلقاء القبض على اثنين من الخبازين من منطقة الجبل بتهمة اغتيالهم للشيخ أبو القاسم وأعدمهما بدون محاكمة زد على ذلك أن يوسف باشا ترك شيوخ القبائل في منطقة الجبل يتصارعون حتى عام 1826م حيث بعث قواته بحجة إعادة الأمن والهدوء إلى المنطقة وكذلك جمع الضرائب المتأخرة غير أن القبائل في منطقة الجبل تناست خلافاتها واتحدت كلمتها على مقاتلة القره مانليين وعندما عجز يوسف باشا عن تحقيق آماله تظاهر بصداقة المحاميد وطلب من بعض المرابطين بالتدخل لعقد صلح بين يوسف باشا وأهالي الجبل اعترف فيه يوسف باشا بزعامة غومة المحمودي للمحاميد ولمنطقة الجبل معاً[2].

واستمر غومة زعيماً لمنطقة الجبل وصديقاً وفياً ليوسف باشا إلى أن سقطت الأسرة القره مانلية، ووقعت ليبيا في سنة 1835م تحت الحكم العثماني المباشر

(1) أحمد النائب الأنصاري، المصدر السابق، ص328.

(2) عمر بن إسماعيل، التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا من 1835 ـ 1882م، القاهرة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1966م، ص127 وما بعدها.

قدم غومة إلى طرابلس لإعلان ولائه للدولة العثمانية غير أن مصطفى نجيب باشا أمر بالقبض على غومة وأودعه السجن إلى أن قدم رائف باشا وأطلق سراحه، وذلك من أجل مساعدته في بسط نفوذه على المناطق الداخلية من ليبيا. إلا أن الأهالي كانوا يعقدون آمالاً كبيرة على الشيخ غومة المحمودي، وعندما قامت ثورة أهالي غريان طلبوا من غومة مساعدتهم فهب لنجدتهم وبمساعدته تمكن الثوار من الانتصار على طاهر باشا قائد الحملة العثمانية والاستيلاء على الكثير من المؤن والعتاد الحربي وإجبار طاهر باشا على الانسحاب نحو مدينة طرابلس.

في عام 1837م تولى علي عشقر باشا أمور البلاد حيث قام بعقد اتفاق مع غومة حتى يتمكن من القضاء على ثورة عبد الجليل سيف النصر وطلب من غومة القدوم إلى طرابلس وعينه حاكماً لمنطقة الجبل الغربي ووعده بأنه سيعمل على مساعدة الفقراء وتخفيض الضرائب والدفع بالمتعلمين من أبناء الشعب للمشاركة في تحمل مسؤولية إدارة البلاد وفي المقابل تعهد الشيخ غومة بدفع مبلغ مالي كضريبة سنوية [1].

كان علي عشقر باشا دائماً تراوده الشكوك التي كانت سبباً في متاعب الناس وآلامهم ونتيجة لتأخر غومة عن دفع الضرائب المقررة انتهز الوالي العثماني هذه الفرصة وجهز حملة وأمرها بالتحرك نحو الجبل وفي وادي الهيرة كان أول لقاء بين قوات علي عشقر باشا وأنصار الشيخ غومة، وتمكن غومة من الانتصار على قوات علي عشقر واستولى على أقضية الزاوية والعجيلات وزوارة.

ولما تأكد الوالي العثماني أن قواته لم تستطع الصمود أمام قوات الشيخ غومة حاول بث الفرقة بينه وبين القبائل الموالية له ولما نجح الباشا في إغراء بعض القبائل بالمال مقابل تخليه عن الشيخ غومة، عندئذ جهز حملة حربية تحت قيادة أحمد باشا الذي تمكن من إخراج الثوار من مدينة الزاوية مما فرض على غومة الانسحاب إلى مدينة ترهونة.

(1) أحمد النائب الأنصاري، المصدر السابق، ص344.

وفي عام 1818م جهز علي عشقر حملة ثانية تحت قيادة أحمد باشا وطلب منه الهجوم على الثوار في ترهونة وبهزيمة الثوار مرة أخرى فرَّ غومة ناحية غريان، إلا أن عام 1841م كان هو آخر لقاء بين أنصار الشيخ غومة وقوات علي عشقر وبهذا يعتبر عامي 1841، 1842م فترة هدوء نسبي بين قوات الدولة العثمانية من ناحية وغومة وأنصاره من ناحية أخرى[1].

وفي شهر يوليو من عام 1842م وصل محمد أمين باشا إلى طرابلس خلفاً لعلي عشقر فقدر له أن يجني على الفور ثمار ما حققه سلفه وتمكّن الوالي الجديد عن طريق عهود الآمان التي قطعها على نفسه لغومة المحمودي من استدراجه إلى مدينة طرابلس فاستقبل فيها في البداية بكل احترام، ثم قرر الوالي نفيه مما أدى إلى سخط الجميع فقد رفض أهالي غريان والجبل دفع ضريبة الخراج وعادوا إلى رفع أسلحتهم في وجه الباشا الجديد وسارع محمد أمين باشا الذي لم يتوقع العصيان في الحال إلى حشد قواته وقوامها ما بين ثمانية وعشرة آلاف تحت قيادة اللواء أحمد باشا وخرجت الحملة في 3 أبريل 1843م وهاجمت المتمردين على الفور إلا أنهم وقد احتموا في جبالهم، فقد فشلت هجمات قوات الباشا ولحسم الأمر بسرعة ركن أحمد باشا إلى الخداع والغدر فاستقطب إلى معسكره كبار المشائخ متظاهراً بالإنعام عليهم ببرانس التشريف التقليدية ثم اغتالهم بدون شفقة أو رحمة، ثم أرسلت إلى طرابلس في 20 مايو 1843م أكثر من ستين من رؤوسهم حيث ظلت معروضة يوماً كاملاً وقد ألصقت برأس كل شيخ ورقة كتب عليها اسمه والتهم الموجهة إليه، أما أولادهم وأقاربهم، فقد اقتيدوا بعد ذلك أسرى إلى طرابلس حيث تم تجنيد بعضهم في الجيش في حين كبل بعضهم الآخر بالسلاسل، فكان ابن غومة الذي كان ما يزال عندئذ غلاماً تتراوح سنه ما بين 12، 13 سنة، وأحد أبناء عمومته في عداد أولئك الذين لحقوا بالخدمة العسكرية وهذه الحادثة قد أوقعت الرعب

(1) عمر بن إسماعيل، التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا، مرجع سابق، ص132 وما بعدها.

في نفوس الأهالي فاستسلموا وألقوا السلاح ودفعوا مبلغاً مالياً قدر بأكثر من خمسين ألف فرنك[1].

وفي سنة 1844م حدث عصيان جديد بقيادة الشيخ ميلود في منطقة الجبل الغربي قمعه اللواء أحمد باشا الذي اقترف بهذه المناسبة أعمالاً وحشية جديدة، والشيخ ميلود هو معاون غومة المحمودي كان قد نفي إلى الأستانة، وبعد سنة أطلق سراحه حيث سافر إلى جربة ومنها قدم إلى الجبل لتحريض أهله على الثورة وبعد إخضاع هذه المنطقة للمرة الثانية رجع ميلود إلى جزيرة جربة، فطلب باشا طرابلس من باي تونس تسليمه إليه فرفض فاستاء العثمانيون كثيراً مما أدى إلى انتشار إشاعات مفادها أن الباب العالي يتأهب لتوجيه حملة ضد تونس[2].

لقد استمرت الثورة متأججة ثم تفجرت فجأة ذلك أن الزعيم الذي كانت هذه الثورة في حاجة إليه وهو الشيخ غومة الذي كان مبعداً في الأستانة منذ ثماني سنوات قد استغل الفوضى التي واكبت حرب القرم والتي انتشرت في جميع أرجاء الإمبراطورية العثمانية وتمكن من الهرب من منفاه وعاد إلى الظهور في وطنه من جديد وألتف من حوله الطرابلسيون الساخطون على السلطة العثمانية مرحبين بعودته، وبايعوه زعيماً عربياً وسرعان ما خرج طابور من العساكر العثمانيين، وتوجه إلى معقل الثورة لمحقها، وتريث غومة فترك العثمانيين يتقدمون عبر دواخل البلاد في مسيرة طويلة وشاقة، وعندما وصل هؤلاء إلى المكان الذي استدرجهم إليه أمر بالانقضاض عليهم فتشتتت فلولهم. ولولا تدخل غومة بنفسه لما قدر ولو تركي واحد أن يفلت من تلك الكارثة لشدة الرغبة في الانتقام في صدور العرب واكتفى غومة بسلب أسلحة من كان على قيد الحياة، وكون منهم موكباً وأمدهم بالبغال لنقل جرحاهم وأمر باقتيادهم حتى أبواب مدينة

(1) شارل فيرو، الحوليات الليبية، مصدر سابق، ص460 وما بعدها؛ انظر كذلك عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص57 وما بعدها.

(2) شارل فيرو، الحوليات الليبية، مصدر سابق، ص462 وما بعدها.

طرابلس مدحورين مهزومين، وهذا يدل على ما تتمتع به نفسه من نبل. وعندما استولى على القلعة وأسر فيها عدوه اللدود حسن باشا العويشي الذي كان هو السبب في كل ما لحقه من مآسي حيث اضطهد عائلته وقطع رؤوس الكثيرين من أقاربه إلا أن غومة أطلق سراحه[1].

وبعد ذلك بمدة قصيرة علم الناس بمقتل غومة الذي قيل أنه قتل في إحدى المعارك دون معرفة تفاصيل، كانت تلك هي الرواية التي بثها الأتراك غير أن الحقيقة سرعان ما ظهرت حيث أن أحد أفراد قبيلة المحاميد ويدعى بيري كان قد ملّ الحياة القاسية التي كان يحياها متنقلاً مع سيده غومة فصمم على أن يضع حداً لذلك، فأشار على القوات العثمانية بمغادرة مدينة طرابلس حيث انضم إليها بعد ذلك كمرشد وجاسوس لمباغتة غومة ووقع الهجوم ليلاً بناءً على مشورة بيري ففطن لهم غومة والتقط سلاحه فاكاً عقال جواده حيث امتطاه بدون سرج أو لجام ثم أمر خدمه بالحذو حذوه والإسراع إلى داخل الجبال بينما سيقوم هو بتغطية انسحابهم ولحق بهم بجواده فكاد أن يفلت من الكمين الذي نصبه العثمانيون له لولا أنه سمع وسط الظلام الدامس صراخ ابنته مستغيثة به حيث أن رصاصة طائشة قد أصابت فخذ البغلة التي كانت تمتطيها فكسرته وسقطت الابنة أرضاً مصابة برضوض بليغة فهرع والدها إليها في الاتجاه الذي انبعث منه صراخها وسط الظلمة، إلا أنه تلقى هو نفسه في كتفه عياراً نارياً فسقط من فوق صهوة جواده وبقي حيّاً حتى لفظ أنفاسه ثم حمل رأسه على الفور إلى طرابلس وأرادت السلطات العثمانية أن تعرضه على الناس غير أنها عادت فتراجعت عن ذلك التصرف الوحشي تحت تأثير الاحتجاجات العنيفة التي وجهت إليهم من قبل القنصل الفرنسي وقتل غومة المحمودي سنة 1858م[2].

وبالقضاء على الثائر العربي الكبير الشيخ غومة، بعد ثورة دامت ما يقرب

(1) شارل فيرو، الحوليات الليبية، مصدر سابق، ص481 وما بعدها.

(2) المصدر نفسه، ص491 وما بعدها.

من عشرين عاماً تنفس ولاة الدولة العثمانية الصعداء ومضوا في تنفيذ ما أسموه خطط الإصلاح العثماني التي استهدفت تقوية قبضة الدولة على ولاياتها. ولا بد من إبداء بعض الملاحظات بخصوص ثورة غومة من أبرزها:

1 ـ أن الشيخ غومة لم يكن يهدف من وراء ثورته التي راح ضحيتها العديد من الأبرياء إلى دفع أعباء السيادة العثمانية عن كاهل الشعب الليبي وإنما كان هدفه هو حمل ولاة الدولة العثمانية على الاعتراف بمكانته الاجتماعية وزعامته السياسية وتعيينه حاكماً على منطقة الجبل الغربي بأكمله.

2 ـ ويلاحظ أنه لم يكن هناك أي تنسيق أو تعاون بين ثورتي سيف النصر والشيخ غومة بل كان من الممكن أن يتولى الشيخ غومة قتال عبد الجليل نيابة عن الجيوش العثمانية مقابل الاعتراف بزعامته على منطقة الجبل الغربي.

3 ـ لم يكن جميع ولاة الدولة العثمانية على درجة واحدة من السوء.

4 ـ لقد حاول قناصل كل من بريطانيا وفرنسا بسط نفوذ دولتيهما على ليبيا عن طريق تأييد القنصل الإنجليزي لعبد الجليل والقنصل الفرنسي للشيخ غومة، غير أن فشل كل من عبد الجليل والشيخ غومة في ثورتيهما أدى إلى فشل مخططات قناصل كل من بريطانيا وفرنسا في تحقيق أحلامهما في ليبيا.

5 ـ جاءت ثورة كل من هذين الزعيمين في وقت عزمت فيه الدولة العثمانية على إصلاح أحوالها بتقوية جيوشها وتشديد قبضتها على ولاياتها والقضاء على العصبيات المحلية فيها والوقوف أمام التدخل الأجنبي في شئون ولاياتها حتى تحافظ على التبعية للدولة العثمانية[1].

وبعد أن تناولنا ثورتي عبد الجليل سيف النصر والشيخ غومة المحمودي والدور الذي لعبته هذه الثورات في دحر القوات العثمانية والتصدي لها في أي مكان، نعرض بعض الانتفاضات التي جرت عقب هاتين الثورتين ـ وعلى سبيل

(1) عمر بن إسماعيل، التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا، مرجع سابق، ص164.

المثال لا الحصر ـ فإن الثورة في فزان تجددت في عام 1844م في أنحاء المنطقة، وكادت أن تطرد الأتراك العثمانيين من جديد بعد أن كان قد مضى على وجودهم بها أقل من سنتين وقد استطاع أولاد سليمان بزعامة أبناء عبد الجليل وأقاربه أن يشعلوا نار عدة معارك في أم الأرانب ووادان ومرزق حيث تم تكبيد القوات العثمانية بعض الخسائر تمكنوا على أثرها من التوجه نحو مناطق الكفرة والسرير والجبل الأخضر إلا أنهم سرعان ما عادوا إلى فزان لشن غاراتهم من جديد على معسكرات الجيش العثماني وتؤكد المصادر التاريخية بأن معركة عنيفة قد جرت في أم الأرانب بين الثائرين والقوات العثمانية والتي انتهت بهزيمة الثائرين وأسر أعداد كبيرة منهم حيث أرسل إلى الأستانة 94 شخصاً من الأشخاص المقبوض عليهم عقب المعركة حيث تم تقييد أسمائهم في دفاتر وأرسلت قوائم أسمائهم إلى القائد الأعلى بعد أن صاروا من منتسبي كتائب المدفعية العثمانية[1].

ومن أسباب هذه الانتفاضة ما يلي:

1 ـ امتداد الحكم العثماني المباشر على واحات فزان في سنة 1842م عقب رفع سيطرة عبد الجليل سيف النصر.

2 ـ ارتكاب الحكم العثماني الأعمال الانتقامية ضد أولاد سليمان وحلفائهم عقب مصرع عبد الجليل في قارة البغلة سنة 1842م.

3 ـ عودة البعض من أولاد سليمان وأنصارهم إلى فزان من أرض القبلة (تشاد) بعد نزوحهم إليها في سنة 1842م هرباً من ملاحقة القوات العثمانية لهم.

4 ـ ظهور زعماء محليين جدد لأولاد سليمان عقب مذبحة قارة البغلة في سنة 1842م مثل الشيخ أبو زهرة الذي يعتبر من المحرضين على الانتفاضة من المبايسة والشيخ إبراهيم المخشخش من اللهيوات والشيخ علي الفطيمي

(1) محمد امحمد الطوير، «الانتفاضات الوطنية ضد الحكومة العثمانية»، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس: 1985م، ص179 وما بعدها.

حيث حرض هؤلاء الزعماء المواطنين على الوقوف في وجه الصلف العثماني[1].

ولعل السبب المباشر في اختيار واحة أم الأرانب لتكون المقر الرئيسي لحركة المقاومة في سنة 1844م ضد العثمانيين يرجع إلى وجود العديد من أولاد سليمان الذين يعيشون داخل واحة أم الأرانب إلى جانب ما تمتاز به من موقع استراتيجي بين منخفض واحات الشرقية بصفة خاصة والواحات الليبية الأخرى بصفة عامة، ومن نتائج معركة أم الأرانب ما يلي:

1 - صب حسن عبد الله البلعزي شديد غضبه على أهالي أم الأرانب حتى يكونوا عبرة لغيرهم وذلك حينما أمر بقتل الأهالي ونفيهم وتشريدهم وهدم أسوار الواحة ومنازلها.

2 - كانت خسائر العرب الثائرين مرتفعة في الأرواح والأموال إذ زاد عدد الأشخاص الذين لقوا مصرعهم عن 46 شخصاً.

3 - نفي أربعة وتسعين شخصاً من الذين اشتركوا في معركة أم الأرانب إلى استنبول ثم إلحاقهم بالخدمة العسكرية الإجبارية هناك ولم يسمح لهم بالعودة إلى واحة أم الأرانب.

4 - هجرة الكثير من أولاد سليمان والقبائل المتحالفة معهم عقب معركة أم الأرانب إلى مصر وتشاد هروباً من انتقام العثمانيين لهم.

5 - أظهرت انتفاضة أم الأرانب في سنة 1844م أن جور الأتراك العثمانيين ما زال مستمراً ضد سكان إيالة طرابلس الغرب بالرغم من مقتل عبد الجليل سيف النصر سنة 1842م[2].

---

(1) محمد امحمد الطوير، «انتفاضة واحة أم الأرانب سنة 1844م ضد العثمانيين»، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس: 1991م، ص150.

(2) المرجع نفسه، ص157.

5 - دور قناصل الدول الأجنبية في التأثير السياسي والاقتصادي على باشا طرابلس ونتائجه:

لا شك أن حرب نابليون بونابرت في البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة وحملته على مصر بصفة خاصة، كانت من العوامل الأساسية والمهمة التي أظهرت أهمية موقع ليبيا الاستراتيجي تلك الأهمية التي دفعت بريطانيا لمحاولة الحصول على أي تقارب بينها وبين طرابلس الغرب لكي تقيم نوعاً من التوازن في العلاقات الدولية وحتى لا تكون لفرنسا الأسبقية، وبالتالي يمكنها إحباط محاولات فرنسا لكسب طرابلس لجانبها خاصة بعد أن نجحت في توثيق نفوذها في مصر.

من أجل هذا، عملت بريطانيا بكل ما لديها من وسائل لتوطيد علاقاتها مع حكام الأسرة القره مانلية، وخاصة (يوسف باشا) بعد أن دخلت حلبة المعركة في حوض البحر المتوسط.

من أجل هذا فقد اختارت أحد رجالها المشهورين بالكفاءة والخبرة والنشاط ليكون قنصلاً عاماً في طرابلس هو الكولونيل (وارنجتون) الذي سبق أن حارب ضد نابليون في إسبانيا واستطاعت بريطانيا بفضل نشاط هذا القنصل أن تتغلب على النفوذ الفرنسي عند يوسف باشا وأن تعوض ما فقدته في مصر من نفوذ بفضل المسيو دوفتني القنصل الفرنسي هناك الذي استطاع محمد علي باشا بمساندته أن يكسب الكثير[1] ومنذ أن وصل هذا القنصل إلى طرابلس في الثلاثين من نوفمبر 1814م أخذ يعمل بكل ما لديه من قوة لغرض فرض سيطرته على الباشا بعد أن أصبح النفوذ الإنجليزي قد بلغ ذروته بعد الأحداث الأخيرة وبالتالي أصبح هذا القنصل مصدر إزعاج للباشا.

---

(1) ليبيا في التاريخ، المؤتمر التاريخي 1968م، ص312؛ انظر كذلك عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة إلى الكفرة، مصدر سابق، ص235؛ مصطفى عبد الله بعيو، دراسات في التاريخ اللوبي، مرجع سابق، ص188، وكذلك Grothe, op. cit., P. 11 .

ففي شهر سبتمبر 1816م وقعت حادثة تدل على مدى تغلغل النفوذ الإنجليزي في البلاد عندما شاهد هذا القنصل من مسكنه المطل على البحر سفينة ليبية تدخل الميناء وهي تقتاد سفينة صغيرة كانت قد استولت عليها أثناء رحلتها البحرية فخيل إليه أنها سفينة إنجليزية تحمل العلم البريطاني فغضب من ذلك وعلى الفور ذهب إلى الباشا وطلب منه دون التحقق من ذلك أن يصدر أمراً بشنق قبطان السفينة تحت الموضع الذي يرتفع فوقه علم السفينة المخطوفة وقد تم هذا بالفعل في أقل من ربع ساعة ثم اكتشف بعد ذلك أن السفينة لم تكن إنجليزية كما يدعي وارنجتون بل هي ألمانية، لأن هانوفر لم تكن لها معاهدة مع طرابلس ولذا فإن هذا القبطان لم يخالف أي قانون وذلك حسب المبدأ الذي كانت أوروبا قد تغاضت عنه مدة طويلة[1]. ويلاحظ أن بريطانيا طالبت الباشا بعقد معاهدات مع الدول التي كانوا يدافعون عنها[2].

وبالرجوع إلى الحادثة سالفة الذكر يتضح ضعف الباشا وما وصل إليه التدخل الأجنبي في البلاد الذي لم يكن معروفاً في المجال الدولي، ولكن عدم قدرة الباشا على التصدي لمثل تلك الأعمال جعل النفوذ الأجنبي يتضاعف بشكل عجز الباشا عن مواجهته، وفي الوقت الذي وصل فيه التدخل الإنجليزي قمته في البلاد نجد أن فرنسا تعمل أيضاً جاهدة على إبقاء نفوذها في البلاد التي استفادت كثيراً من موقعها المهم خاصة أثناء حملتها على مصر وأهمية الأهداف التي حققتها عن طريقها ولكن بعد أن طردت من مصر بدأ نفوذها في البلاد يتضعضع خاصة بعد أن استطاعت إنجلترا فرض هيمنتها على الباشا عن طريق قنصلها وارنجتون[3]، غضب يوسف باشا من تدخلات وارنجتون الكثيرة في الشئون الداخلية للإيالة وخاصة فيما يتعلق بعلاقة طرابلس والدول الأوروبية الأخرى، وأبلغ يوسف باشا هذه التدخلات إلى الملك الإنجليزي جورج الثالث في رسالة

(1) شارل فيرو، الحوليات الليبية، المصدر السابق، ص577.
(2) المصدر نفسه، ص578.
(3) المصدر نفسه، ص591.

مطولة له بتاريخ 5 رجب 1233هـ/ 10 مايو 1818م عرض فيها مجموعة من القضايا نسبت إلى وارنجتون كان من بينها ـ على سبيل المثال:

إنه ذات مرة تمكن أحد البحّارة الطرابلسيين من غزو سفينة صقلية صغيرة تحمل قمحاً في مياه حوض البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الشواطئ الطرابلسية وباع البحّار هذه البضاعة بمبلغ أربعمائة وخمسين دولار ولم يكن البحار على علم بمعاهدة الصلح المبرمة بين حكومة الإيالة والحكومة الصقلية لخروجه بسفينته قبل توقيع هذا الصلح[1].

وعندما تناهت أخبار هذه السفينة إلى وارنجتون طلب من الباشا إطلاق سراح السفينة في الحال، ودفع المبلغ المالي الذي تحصل عليه البحّار ولكنه لم يكتف عند هذا الحد بل أنه بعد مدة طلب من الباشا دفع مبلغ مالي آخر هو ثلاثة عشر ألف دولار بخصوص ثمن القمح المباع رغم أن يوسف باشا قد دفع له في السابق ثمانية آلاف دولار، وأمام هذه التصرفات طلب يوسف باشا من الملك الإنجليزي إبداء النصح والإرشاد إلى وارنجتون وأن يكف يده عن التدخلات لدى حكومة إيالة طرابلس الغرب في المستقبل[2].

أما فرنسا فإنها سارعت في إرسال المسيو روسو Rousseau خلفاً للقنصل الفرنسي السابق مير الذي كان طاعناً في السن ولم يكن في استطاعته فرض النفوذ الفرنسي في البلاد وإرجاع هيبتها الأولى لدى الباشا[3].

وبوصول القنصل الفرنسي روسو في الثلاثين من يوليو 1825م إلى طرابلس أخذ يضاعف من نشاطه لدرجة أنه تمكن من إجبار الباشا على احترام السياسة الفرنسية بدرجة لا تقل عن القنصل الإنجليزي (وارنجتون) خاصة وأن روسو كان من المستشرقين المعروفين، وبالتالي كان يتمتع بميزة القدرة على التحدث مع

(1) عبد الله الخباط، المرجع السابق، ص120.
(2) المرجع نفسه، ص121.
(3) شارل فيرو، الحوليات الليبية، المصدر السابق، ص591.

الباشا مباشرة دون الحاجة إلى مترجم لأنه يتقن اللغة العربية[1].

ومن المؤكد أن الخارجية الفرنسية كانت على مستوى المسئولية حينما اختارت روسو قنصلاً لها في طرابلس، فبمجرد أن وصل إلى البلاد واستلم مهام عمله أخذ يعمل بكل همة لإرجاع مكانة فرنسا وهيبتها، وفي الوقت نفسه فقد حرص على أن يكسب ود الباشا ذلك الود الذي جعل الأخير يرسل خطاباً إلى وزير خارجية فرنسا عبر فيه عن امتنانه وإعجابه بروسو لما يمتاز به من حسن السياسة والمعرفة بأحوال الرياسة[2].

وقد استطاع روسو أن يسوي الكثير من الأمور المتعلقة وأن يعيد السلام بين البلدين وقد لاحظ مدى المكانة التي تتمتع بها بريطانيا في البلاد وأن قنصلها له الأسبقية على كل القناصل المعتمدين في طرابلس ومدى السياسة التي يسلكها مع الباشا بما يتمشى ومصالح بلاده مما أثار خنق القناصل الآخرين إلا أن مجريات الأمور قد تغيرت بعد قدوم روسو الذي لم يكن يقل أهمية أو غيرة على مصالح بلاده من وارنجتون حيث حاول بكل وسيلة إعادة المركز الممتاز الذي كانت تتمتع به فرنسا من قبل في طرابلس[3].

ووفقاً لمجريات الأحداث فإن روسو قد نجح في مهمته لدرجة أثارت القنصل الإنجليزي الذي أخذ يعمل من جانبه على تدعيم مركز بلاده مما أوجد نوعاً من التنافس بين القنصل الإنجليزي من جانب والقنصل الفرنسي من جانب آخر بهدف السيطرة والاستحواذ على الباشا وكانت وسيلة كل منهما مضاعفة النشاط الاقتصادي والسياسي وبدا واضحاً ما يعرف في الدبلوماسية الحديثة بالتسلط القنصلي.

(1) شارل فيرو، الحوليات الليبية، المصدر السابق، ص591.

(2) محمد الهادي أبو عجيلة، «التنافس الإنجليزي الفرنسي حول ليبيا في عهد يوسف باشا القرمانلي»، البحوث التاريخية، طرابلس: 1 - 1993م، ص163.

(3) ردولفو ميكاكي، المرجع السابق، ص209.

ولعل هذا التنافس كان سبباً في ارتباك الباشا وخلق العديد من المصاعب أمامه مما أفقده في النهاية قدراً كبيراً من سلطته وهيبته ولما كانت بريطانيا لا تريد أن تواجه فرنسا مباشرة فقد حاول القنصل الإنجليزي أن يشكك في النوايا الفرنسية لدى الباشا، ففي الوقت الذي أرادت الدول الأجنبية أن تنتزع من الباشا موافقة كتابية بإبطال ما يسمى بالقرصنة في البحر المتوسط وفقاً لمؤتمر (أكس لاشابل) فإن القنصل الإنجليزي قد حاول أن يفهم الرأي العام الأوروبي بأن فرنسا وراء تشدد الباشا[1]. وإن السياسة الفرنسية قد هيمنت على الباشا في محاولة لتضليله والسيطرة عليه بهدف أن تكون السياسة الفرنسية هي السائدة وأن تضطلع فرنسا بالمهمة القيادية باعتبارها صاحبة الحظوة عند الباشا[2].

وهكذا راحت كل من الدولتين تنافس الأخرى في البلاد لفرض هيمنتها وسيطرتها على الباشا وكان من العوامل الأساسية التي ضاعفت من التدخل الأجنبي وزيادة حدة التنافس بين إنجلترا وفرنسا حركة الكشوف الجغرافية والوصول إلى أواسط أفريقيا، بينما رأت بريطانيا أن تجعل طرابلس قاعدة لها في حركة الكشوف الأفريقية[3].

كما أن السياسة الفرنسية لم تعجز في الحصول على امتيازات تعادل ما حصلت عليه بريطانيا، حيث نجحت الدبلوماسية الفرنسية في الحصول على امتياز يمكنها من دراسة هيدرولوجية مياه خليج سرت سنة 1821م عن طريق قنصلها مير وتعهد الباشا بتقديم كل المساعدة الممكنة واللازمة للرحّالة الفرنسيين الذين استطاعوا المجيء إلى طرابلس وقاموا بزيارات لبعض مناطق ليبيا[4].

لقد كان إحساس طرابلس الغرب بتدخل القناصل الأوروبيين في الشئون

(1) محمد الهادي أبو عجيلة، المرجع السابق، ص164.

(2) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(3) المرجع نفسه، ص166.

(4) شارل فيرو، الحوليات الليبية، المصدر السابق، ص582.

الداخلية كبيراً وبخاصة قنصلي فرنسا وبريطانيا وأن أثر هذا التدخل لم يقتصر على الشئون الداخلية بل تعدى ذلك الأمر إلى علاقات طرابلس ببلاد السودان لذلك كان هدف حسونة الدغيس الذي تولى منصب رئاسة الحكومة ووزارة الخارجية بطرابلس في عهد يوسف باشا القره مانلي هو تقوية السلطة المركزية لكبح تلك المزايا التي يتمتع بها أولئك القناصل وكان أهم عمل قام به في هذا الاتجاه هو إلغاؤه بعض النظم التشريفية والمزايا الدبلوماسية والتي أعطت مؤشراً بأنه منذ ذلك الوقت فصاعداً يتحتم على القناصل الأوروبيين أن يؤدوا أعمالهم في طرابلس على أساس الاتفاقيات المعقودة بين طرابلس الغرب والدول التي يمثلونها على نحو دقيق.

غير أن تدخلات القناصل في السياسة الداخلية والخارجية كان لها مردودها السلبي على الجوانب الاقتصادية للبلاد الأمر الذي جعل باشا طرابلس ألعوبة في يد هؤلاء القناصل فعقدوا الاتفاقيات وفقاً لتوجهاتهم وما يخدم مصالح بلادهم، الأمر الآخر هو تضارب مصالح هؤلاء القناصل مما ولد نوعاً من الصراعات التي تركت مردودها السلبي وهذا التطاحن قد أفقد البلاد وضعها الاقتصادي والسياسي وبالتالي كانت سبباً في نهاية العهد القره مانلي وعودة البلاد للتبعية العثمانية مرة أخرى.

الفصل الرابع

النشاط الاقتصادي في ليبيا وروافده

منذ مطلع القرن التاسع عشر ازدادت أهمية طرابلس الغرب الاقتصادية بالنسبة لتجارة العبور الصحراوية، بفضل موقعها المتميز جغرافياً كمركز تنصب فيه طرق القوافل الفرعية والرئيسة الوافدة من الشمال والجنوب والشرق والغرب وأصبحت الواحات الليبية الداخلية مثل مرزق وغات وغدامس محطات رئيسة لاستراحة القوافل التجارية واستجمامها، وبالتالي صارت مستودعاً لسلع تجارة العبور الصادرة والواردة تسويقاً وتوزيعاً.

لقد نشطت تجارة العبور في طرابلس الغرب خلال القرن التاسع عشر استيراداً وتصديراً. وكان لمجيء يوسف باشا للحكم في إيالة طرابلس الغرب أثر كبير في تنشيط العلائق الاقتصادية بين هذه الإيالة وبين أسواق بلاد السودان الأوسط والغربي من جهة وبين أسواق حوض البحر المتوسط والأسواق الأوروبية من جهة أخرى. وهناك عدة عوامل ساعدت إيالة طرابلس في أن تشارك بصورة فعالة في التجارة الصحراوية خلال الفترة المعنية ومن بين هذه العوامل ما يلي :

أولاً : إن إيالة طرابلس الغرب وواحاتها الداخلية كانت بمثابة جسر يربط بين البحر المتوسط وبين بلاد السودان الأوسط والغربي أي أنها تعتبر أقرب المناطق لهذا البحر من أية منطقة أخرى بالنسبة لتلك النواحي. وقد سهلت هذه الأهمية لاستيراد السلع الأجنبية بكميات كبيرة ولذا، كانت معظم السلع الموجودة في البلاد ذات منشأ غير محلي. كما لم يكن هدف هذه السلع الاستهلاك المحلي أيضاً، بل كانت موجهة للعبور إلى أسواق مناطق الاستهلاك الصحراوية وما ورائها[1]، ومن بينها مناطق الطوارق والتبو وبرنو والهوسا وغيرها.

---

(1) Mark, F. Dyer, op. cit. PP. 105-106.

ثانياً: إن إيالة طرابلس الغرب وواحاتها وأسواقها الداخلية كانت تعتمد على تجارة العبور للمحافظة على توازن ميزانها التجاري خاصة سلع بلاد السودان ومنتجاتها التي تعد أساسية في تغطية نفقات ما يحتاجه أهل البلاد من الحبوب المستوردة التي تشح في مواسم الجفاف والقحط[1].

ثالثاً: لقد سارع بعض كبار التجار ونخبة من ملاك الأراضي في الساحل الليبي ومناطق الواحات الداخلية في الاشتراك في تجارة العبور بأنفسهم أو عن طريق وكلاء تجاريين لهم وجنوا الأرباح الوفيرة منها[2] ولكن هذا العائد لم يستغل بصورة فعالة في تنمية البلاد الاقتصادية بسبب ضيق فرص الاستثمار وشح المواد الخام المحلية والإنتاج الزراعي ولذا كانت معظم الطبقات الاجتماعية التي أصابها الثراء من التجارة تنفق أموالها في شراء الكماليات والأشياء الاستهلاكية[3].

رابعاً: فقد أصبحت تجارة العبور من أهم مصادر الدخل بالنسبة لمعظم المنتجين والمستهلكين الذين كانوا يتعاملون خارج الإطار النقدي أي عن طريق المقايضة وكانت سلع العبور تشتمل على نوعين الأول ما تنتجه ليبيا محلياً والثاني سلع أجنبية مستوردة من الخارج وأهم السلع المحلية الحبوب والزيوت، أما السلع الأجنبية الهامة، فتنقسم إلى قسمين فمن حوض المتوسط تأتي سلع مصنعة ومواد خام في شكل ملابس ومعادن وتوابل وبهارات وعطور[4].

ومن المناطق الصحراوية وبلاد السودان تستورد البضائع المصنعة وريش النعام والعاج والرقيق وغيرها ويلاحظ أنه بالنسبة للسلع الكمالية والاستهلاكية فكان معظمها يأتي من إيطاليا وشرق البحر المتوسط[5]. وهي مناطق توفر أنواعاً

(1) Mark, F. Dyer, op. cit. P. V.

(2) Ibid. P. V.

(3) Ibid. P. V.

(4) Ibid. P. 142- 143.

(5) Ibid. P. 144- 149.

مختلفة من السلع التي كان يسهل وصولها إلى طرابلس عن طريق البحر ونقلها للدواخل بواسطة طرق القوافل التجارية.

خامساً: هنالك سبب نابع من وجود يوسف باشا القره مانلي على قمة السلطة في أيالة طرابلس الغرب خلال الفترة 1795م ـ 1832م فقد استطاع يوسف باشا التحكم في تجارة القوافل الصحراوية خاصة بعد إقامته لعلاقات وطيدة مع كل من الشيخ محمد الأمين الكانمي حاكم برنو والسلطان محمد بللو سلطان إمبراطورية سوكوتو في نيجيريا[1].

وقد ساعد هذا العمل السياسي على سيطرة يوسف باشا القره مانلي على الطريق المؤدي بين طرابلس وبرنو منذ عام 1818م[2].

وتمخض هذا العمل السياسي أيضاً عن تصاعد حجم المعاملات التجارية وكذلك عن زيادة السلع الواردة والصادرة عبر الواحات الليبية[3].

والجدير بالذكر أن الحلف السياسي الذي أقامه يوسف باشا القره مانلي خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر بينه وبين محمد الأمين الكانمي شيخ برنو والذي تمثل في تزويد الأخير بالبنادق والذخيرة[4] دعماً له في حربه مع باجرمي(*) قد أدى إلى خصوصية التعامل بين أيالة طرابلس من جهة وبين برنو من جهة أخرى.

سادساً: لقد حرص يوسف باشا على أن يعطي ضمانات للرحالة الأوروبيين لحمايتهم للوصول إلى برنو عبر الواحات الليبية الداخلية[5] فاتجهت أنظار

(1) A. A. Baohen, op. cit., P. 46.

(2) Ibid. P. 46.

(3) Ibid. P. 46.

(4) Ibid. P. 46.

(*) باجرمي: إحدى ممالك حوض بحيرة تشاد وكانت تقع جنوب شرق مملكة برنو ولديها صراع معها من أجل السيطرة والنفوذ على المناطق المجاورة لكل من برنو وباجرمي.

(5) A. A. Baohen, op. cit., P. 46.

الرحّالة الأوروبيين إلى الواحات الليبية باعتبارها تمثل مركزاً تجاريا هاماً تتوافد إليه القوافل التجارية القادمة من بلاد السودان الأوسط والغربي وأسواقها[1].

وبالتالي فإن طرابلس تعتبر أهم المدن التجارية الليبية منذ العهد الروماني حيث كانت المحطة الرئيسية التي تلتقي فيها سلع أواسط أفريقيا مع سلع الشرق وسلع أوروبا ومنها يتم تبادل هذه السلع ونقلها إلى أماكن استهلاكها كما تعتبر مركزاً هاماً للوكلاء التجاريين لأغلب دول العالم من عرب وأوروبيين وأفارقة. فمدينة طرابلس الغرب مدينة تقع في وسط الساحل للبحر الأبيض المتوسط وتعود أهميتها التجارية إلى موقعها الاستراتيجي ولا تفصل بينهما وبين المراكز التجارية أي معوقات طبيعية[2].

1 ـ الجهاد البحري وموارده الاقتصادية:

قُدِّر للبحرية الليبية أن تلعب دوراً بارزاً في إطار الصراع البحري في حوض البحر الأبيض المتوسط في العصر الحديث وخاصة في العهد العثماني الأول والعهد القره مانلي الذي اهتم ولاته بدعم النشاط البحري وتقويته زيادة في تمكين دولتهم الفتية مع ما رافق ذلك من تطورات وتيارات دولية ساهمت في بلورة ذلك الصراع البحري بين الجانبين المشرقي الإسلامي والغربي المسيحي فيما عرف عند الغربيين باسم «القرصنة» وهي مفهوم غربي يقابله لدينا «الجهاد البحري» ولا زالت هذه الظاهرة المزدوجة مثيرة لاهتمام الباحثين وقضية ملحة تستدعي ضرورة دراستها وتقييمها من جديد.

لقد شهد النصف الثاني من القرن السابع عشر تزايد نشاط البحرية الطرابلسية وبالذات في فترة انشغال القوى الأوروبية بالحرب الدائرة بين الأتراك والبنادقة (1645 ـ 1669) في جزيرة كريت وبالتالي استغل البحارة الطرابلسيون هذه الأحداث لتقوية نشاطهم البحري وتوسعوا في مطاردة السفن الأوروبية وأسر

(1) A. A. Baohen, op. cit., P. 46.

(2) تيسير بن موسى، مرجع سابق، ص170 وما بعدها.

من فيها. ففي عام 1669م وصل عدد الأسرى الأوروبيين بطرابلس 1559 أسير وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على خطورة النشاط البحري الطرابلسي في ذلك الوقت على الرعايا الأوروبيين ومصالح دولهم، مما دفع بالدول الأوروبية للقيام بالتحرش بالأسطول الطرابلسي في عرض البحر الأبيض المتوسط بل كان هدفهم الرئيسي مدينة طرابلس وميناءها وهذا النشاط الأوروبي ساهم في انخفاض عدد الأسرى الأوروبيين حتى وصل عددهم في عام 1677م إلى ثمانمائة أسير فقط، لقد دفع الجهاد البحري ولاة طرابلس إلى الاهتمام بالأسطول البحري وبناء الأبراج والحصون من أجل الوقوف أمام التهديدات البحرية الخارجية[1].

وأشار أتوري روسي في كتابه ليبيا منذ الفتح العربي إلى أن مسرح العمليات للبحرية الطرابلسية كان يتركز بصورة أساسية في وسط وشرق البحر الأبيض المتوسط[2].

أما مواعيد خروج الحملات الطرابلسية في عرض البحار كان مع بداية فصل الربيع في كل عام أي عند انتهاء فصل الشتاء وما يحمله من تقلبات جوية وعدم استقرار ولم يقتصر نشاط هذا الأسطول على مياه البحر الأبيض المتوسط بل تعداها إلى سواحل المحيط الأطلسي مروراً بمضيق جبل طارق[3]، وأوضح لنا شارل فيرو في كتابه الحوليات الليبية أنه في عهد يوسف باشا وهي الفترة التي تمتعت فيها البحرية الطرابلسية بقوة ونشاط متلازمين وفي فترة قصيرة لا تتجاوز الثلاث سنوات استلم مبالغ مالية كان قد فرضها على الدول الأوروبية وكانت على النحو التالي (41 ألف قرش من إسبانيا، 5 آلاف قرش من نابولي، 23 ألف قرش من البندقية، 49 ألف قرش من أمريكا، 4 آلاف قرش من راجوس

(1) سعيد علي حامد، المرجع السابق، ص130 وما بعدها.

(2) أتوري روسي، المرجع السابق، ص302.

(3) امحمد سعيد الطويل، البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي (1795 ـ 1832م)، دار الكتاب الجديدة المتحدة، طرابلس، ط1، 2000، ص186 وما بعدها.

اليوغسلافية، 47 ألف قرش من الدانمارك، 77 ألف قرش من السويد، بالإضافة إلى حمولة العتاد الحربي وقيمتها 26 ألف قرش أي أن جملة ما تلقاه الباشا من هذه الدول هو 322 ألف قرش)[1].

وكانت أعمال الغزو بالدرجة الأولى تهدد سفن الدويلات الصغيرة مثل السويد والدانمارك وهولندا ومملكة ساردينيا مما دفع بهذه الدول من أجل سلامة سفنها إلى دفع مبالغ سنوية للباشوات وكذلك دفع مكافآت عند استبدال القناصل لتلك الدول[2] ومع بداية القرن التاسع عشر بدأت أعمال الغزو تواجه معارضة شديدة من قبل الدول الأوروبية. وبالتالي تمكنت هذه الدول من اتخاذ قرار لصالحها في مؤتمر اكس لاشبيل المنعقد في عام1821م بإجبار يوسف باشا على إيقاف أعمال الغزو[3] وبالتالي فقدت ليبيا ركناً هاماً من اقتصادها القوي ونهاية نشاط البحرية الليبية التي كانت تدر عليها دخلاً وفيراً وتزامن أيضاً معها إلغاء تجارة الرقيق هي الأخرى ذات المورد الاقتصادي الهام.

2 ـ تجارة القوافل الصحراوية:

عند الحديث عن تجارة القوافل الصحراوية لا بد من تسليط الضوء على أهمية طرق القوافل التجارية الرئيسية التي ساهمت في بروز طرابلس مركزاً رئيسياً لتجارة العبور وحلقة اتصال عن طريق دعم العلاقات الاقتصادية بين أسواق السواحل الليبية ومراكزها التجارية الداخلية من ناحية، وبين بلاد السودان الأوسط والغربي من ناحية أخرى. وما ارتبط بهذه الطرق من مسائل حيوية مثل كيفية تنظيم القوافل التجارية وحمايتها وكذلك سلع العبور الصادرة والواردة من الشمال إلى الجنوب وبالعكس.

---

(1) شارل فيرو، المصدر السابق، ص376.

(2) محمد مصطفى الشركسي، «بعض ملامح تجارة طرابلس الغرب مع الخارج خلال العهد العثماني الثاني»، مجلة الشهيد، طرابلس، 11، 1990م، ص257.

(3) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

أ ـ طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء الكبرى

لقد استطاعت طرابلس الغرب بحكم موقعها الجغرافي الممتاز وعلاقاتها الحضارية المتواصلة ببلاد ما وراء الصحراء الكبرى أن تتحكم بتجارة القوافل عبر الصحراء وأن تنقل مظاهر الحضارة العربية الإسلامية إلى تلك البقاع. وقد ساعدت طرابلس في ذلك عدداً من المميزات الفريدة منها:

أولاً: تفرعت منها شبكات لطرق القوافل التجارية التي ظلت تربطها بالصحراء الكبرى وبلاد السودان الأوسط والغربي ردحاً من الزمن وكانت مراكزها التجارية في الجنوب حلقة وصل هامة في دعم هذا التواصل المتصاعد، كما أصبحت نقطة انطلاق للرحّالة الأوروبيين نحو دواخل القارة الأفريقية.

ثانياً: لقد لعب الساحل الليبي الطويل الممتد بطول 1900 كيلومتراً من حدود تونس غرباً إلى الحدود المصرية شرقاً وموانئه الصالحة للملاحة طوال العام دوراً هاماً ليس في تجارة طرابلس الداخلية فحسب، بل في التجارة الدولية أيضاً.

ثالثاً: ساعدت الواحات المنتشرة في فزان وكذلك الواحات الليبية الأخرى مثل أوجلة وزويلة وسوكنة والكفرة في ازدهار طرق القوافل التجارية الخارجية بين المناطق الليبية وبين بلاد ما وراء الصحراء الكبرى، فضلاً عن مصر والسودان الشرقي وأقطار الشمال الأفريقي.

رابعاً: تمتعت مدينة طرابلس باستراتيجية اقتصادية هامة أصبحت بموجبها أكبر سوق للتعامل التجاري مع أوروبا استيراداً وتصديراً وتوزيعاً[1] كما أصبحت المراكز التجارية في الواحات الليبية محطات تجميع وتوزيع للقوافل التجارية وملتقى لتبادل البضائع والإشعاع الحضاري على بلاد السودان[2].

وقد أدت طرق القوافل التجارية إلى الاحتكاك المباشر بين سكان طرابلس

---

(1) Mark. F. Dyer, op. cit., PP. IV-IX

(2) Ibid.

وبين شعوب بلاد السودان الأوسط والغربي[*] عن طريق التجارة. وترتب على ذلك تداخل اللهجات واللغات والعادات والتقاليد نتيجة لهذه المستجدات[1] وبديهي، إن الذي تحقق عن طريق القوافل التجارية عبر الصحراء من وحدة في التفكير وانسجام في التعاون وتبادل المنفعة كان أكثر فعالية عما تحقق عن طريق السياسة[2] ولذا يتعين علينا عند تناول أهمية طرق القوافل التجارية الرئيسة التي تربط طرابلس الغرب بمناطق ما وراء الصحراء الكبرى أن نبرز عنصرين هامين:

أولاً/ أهمية العامل الاقتصادي والعنصر البشري في دعم أواصر العلاقات بين المنطقتين أي ليبيا وبلاد السودان الأوسط والغربي.

ثانياً/ ضرورة معرفة الدور الذي لعبته طرابلس في تجارة العبور الصحراوية دعماً للروابط التاريخية والاقتصادية مع المناطق الصحراوية وما ورائها.

إن أول من اهتم بدراسة طرق القوافل التجارية هم الرحّالة والجغرافيون والمؤرخون العرب الذين سجلوا في كتاباتهم ورحلاتهم بداياتها ونهاياتها ومنهم ابن حوقل في القرن العاشر والبكري في القرن الحادي عشر، والإدريسي خلال القرن الثالث عشر، وابن بطوطة، وابن فضل الله العمري، وابن خلدون في القرن الرابع عشر، والحسن الوزان في القرن الخامس عشر وغيرهم. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر استرعى النشاط التجاري الواسع بالصحراء الكبرى انتباه الرحّالة الأوروبيين والدوائر الاستعمارية، خاصة البريطانية والفرنسية منها والتي اهتمت بالتعرف على طرق القوافل الصحراوية القديمة وإرسال البعثات الاستكشافية والحملات العسكرية معتمدة في ذلك على ما سجله

(*) بلاد السودان الأوسط تشمل مناطق حوض بحيرة تشاد وشمال نيجيريا. أما بلاد السودان الغربي، فتقع بين حوض نهر السنغال والحوض الأوسط لنهر النيجر والمجرى الأعلى لنهر الفوتا.

(1) محمد زنبير، «تجارة القوافل في المغرب» تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، بغداد: معهد البحوث والدراسات العربية، 1984م، ص165.

(2) المرجع نفسه، ص162.

الكتّاب العرب من معلومات غزيرة ومن الذين اهتموا بذكر هذه الطرق من الرحّالة الأوروبيين ـ ليون، بارث، رولفس، ناختيجال، جيمس ريتشاردسون، بويرمان، فوجل ـ . . . . وغيرهم[1].

ويتضح أن طرق القوافل الرئيسية التي تعبر ليبيا إلى ما وراء الصحراء الكبرى ذهاباً وإياباً هي:

أ ـ طريق طرابلس ـ برنو:

يبدأ هذا الطريق من طرابلس إلى برنو ويعتبر من أسهل الطرق التي تعبر الصحراء وذلك من حيث وفرة المياه والأمن وكان يسمى طريق الجرمنت وكان هذا الطريق يتفرع إلى فرعين فرع إلى بلما وأقاديم وماو وكوكا عاصمة برنو والفرع الآخر إلى مدينة أبشا الواقعة في شرق وداي، علماً بأن هذا الطريق سلكه فوجل في رحلته عام 1854م، وكذلك الرحّالة بارث عام 1855م، وبويرمان عام 1862م، ورولفس عام 1866م، وناختيجال عام 1870م[2].

وخلال القرن التاسع عشر فإن هذا الطريق كان مطروقاً وأكثر أماناً من غيره، وخاصة في فترة ازدهار إقليم كانم برنو[3] غير أنه مع بداية الأربعينيات من القرن التاسع عشر ضعفت أهمية هذا الطريق بسبب المشاكل السياسية[4] وبالذات في الفترة التي حدثت فيها صراعات في منطقة تشاد وخلال صراعات أولاد سليمان مع العثمانيين وسيطرتهم على طرق القوافل[5].

---

(1) اتيلو موري، المرجع السابق، ص20.

(2) يحيى بو عزيز، «طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى» تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، بغداد: معهد البحوث والدراسات العربية، 1404هـ/ 1984م، ص129.

(3) بوفيل، المرجع السابق، ص397.

(4) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(5) المرجع نفسه، ص397 ـ 398.

والجدير بالذكر، أن ليك اهتم في دراسته عام 1885م بوصف طريق طرابلس برنو غير أنه توسع في وصف هذا الطريق وتفرعاته وأن له ثلاثة اتجاهات حيث يسير جنوباً مباشرة اتجاه برنو، أما شرقاً فيتجه إلى وداي ودار فور في السودان الشرقي ويتجه غرباً إلى بلاد الاير، وغات.

ويذكر أن طريق طرابلس برنو يعد الأصعب على الإنسان والحيوان فلا توجد سوى الكثبان الرملية التي تجعل الأرض متموجة ولا تقع عين الإنسان على أي نوع من النبات وكثر الخوف من مخاطر الحاجة للماء[1].

ويذكر هزماير (Hzimmer) في كتابه «طرابلس والتجارة على طريق القوافل» إن القوافل المتجهة إلى بلاد السودان الأوسط كانت تنطلق من طرابلس[2] ويقول فرنشيسكو كورو أن القوافل التجارية التي تأخذ طريق طرابلس برنو تستغرق رحلتها ذهاباً وإياباً حوالي ستة أشهر[3] ويؤكد أن هذا الطريق تتخلله مناطق تتوفر فيها المياه والتمور التي تعتبر غذاءً رئيساً لرجال القوافل[4] كما يذكر أن سهولة هذا الطريق أدت إلى ازدهار التجارة بين برنو وطرابلس التي تعتمد في تجارة العاج على منطقة برنو حتى انهيار هذا النوع من التجارة في أعقاب غزو رابح الزبير لبرنو ما بين عامي 1892م - 1893م[5].

ويشير عبد اللطيف حميدة إلى أن طريق (طرابلس - برنو) يعد من أهم أربعة طرق قوافل تجارية في الشمال الأفريقي خلال القرن التاسع عشر الميلادي[6].

---

(1) Ivan Leyk, Die Nord A Frikanischen, Handels und Karawanenstras sen Export 7 (1885), P. 780-781.

(2) Hzimmerer, Tripolitanien und derkaravanenhandlo Beilagezur Allgemeinen Zeitung Nr 219 (28.9.1898) P.1-3

(3) فرانشيسكو كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي، (طرابلس: دار الفرجاني، 1971م)، ص86 وما يليها.

(4) المرجع نفسه، ص87.

(5) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(6) علي عبد اللطيف، مرجع سابق، ص46.

بيد أن طريق طرابلس برنو بدأ يفقد أهميته تدريجياً، خاصة بعد وفاة الشيخ محمد الأمين الكانمي في عام 1837م وتصاعد الحروب في منطقة تشاد بين برنو ووداي وباجرمي، مما أدى إلى تفشي الفوضى والاضطرابات في تلك المنطقة وقد انعكس كل هذا سلبياً على الطريق المذكور.

ولقد أدت الأحداث السياسية التي شهدتها طرابلس خلال الفترة 1830 - 1842م والتي تمثلت في الصراعات بين الإدارة العثمانية وعبد الجليل إلى شل الحركة التجارية في طريق طرابلس برنو، وذلك نتيجة لعاملين هامين:

1 - إن إدارة العهد العثماني الثاني التي حلت محل القره مانليين في طرابلس عام 1835م لم تستطع أن تمد نفوذها على المناطق الواقعة إلى الجنوب الأمر الذي جعل الطوارق والتبو أكبر سكان الصحراء عدداً يستعيدون قوتهم ونشاطهم في ممارسة أساليب النهب والغارات ليس ضد القوافل التجارية العابرة فحسب، بل ضد بعضهم بعضاً ونتيجة للحروب التي دارت بين الطوارق والتبو فإن طريق برنو قد قفل تماماً بين أبريل 1851م - ويونيو 1852م[1].

2 - وقد ترتب على شل الحركة التجارية في الطريق المذكور إلى تحول معظمها إلى الطريق الشرقي ببنغازي ووداي وإلى طرق بلاد السودان الأخرى[2] وعندما قام هانس فيشر في عام 1906م بالسفر من طرابلس إلى برنو أفاد بأن الغارات ما زالت مستمرة وهذه الحروب والغارات اشتدت أوارها، نتيجة لنشاط أولاد سليمان الذين استقروا في المناطق الشمالية لتشاد في أربعينيات القرن التاسع عشر ومارسوا السلب والنهب[3].

وقد ذكر عقيل البربار أن التجار اليهود والأوروبيون ووكلاءهم في النصف

---

(1) A. A. Boahen, op. cit., P. 106.

(2) Ibid. P. 106.

(3) Ibid. P. 107.

الأخير من القرن التاسع عشر كانوا يفضلون استخدام طريق طرابلس برنو [1].

أما عبد الله إبراهيم فقد فضل أن يطلق على الطريق اسم الطريق الأوسط، حيث أشار أنه يبدأ من طرابلس إلى برنو وأفاد بأن هذا الطريق كان نشطاً حتى منتصف القرن التاسع عشر وبدأ يفقد أهميته منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر[2].

ب ـ طريق وداي:

لقد ورد في كتابات وتقارير الرحّالة الأوروبيين من إنجليز وفرنسيين وألمان معلومات عن طرق القوافل التجارية المارة بالمناطق الوسطى والغربية أكثر من ما ورد عن طريق وداي الذي لم يعرف عنه في القرن الماضي سوى القليل وقد وصفه Hzimmer طريقين مؤدين إلى وداي إحداهما ينطلق من طرابلس محاذياً الساحل حتى سرت ثم يتجه جنوباً إلى الجفرة وزلة ومنها إلى الكفرة ثم وداي بأنه من أطول الطرق الشرقية الجنوبية وأصعبها لشح المياه على هذا الطريق وقلة الأمان وطول المسافة[3].

أما الطريق الآخر الذي يبدأ من بنغازي منطلقاً إلى جالو ثم الكفرة حيث يلتقي بالطريق الأول المتجهة إلى وداي[4].

والمعروف أن الرحّالة الأوروبيين وجدوا مشقة شديدة في الوصول إلى وداي والتعاون مع أهلها بسبب عدم ثقتهم في النصارى الأوروبيين[5] ومن هؤلاء

---

(1) Agil, M. AlBarbar, Economics of Colonialism The Italian Invasion of Libya and The Libyan Resistance, 1911-1912. Asocio Economic Analysis Triopoli, Markaz Jihad Al Libyin Studies Center, 1992. P. 55.

(2) Abdallah, A. Ibrahim,: Government and Society Intripolitania and Cyrenaica (Libya) 1835. 1911. The Ottoman Impact Tripoli Markaz Jihad Allibyin Studies Center 1989, P. 262.

(3) H. Zimmerer., op. cit., PP. 1-3.

(4) Ibid. PP. 1-3.

(5) Ibid. PP. 1-3.

ناختيجال الذي وصل وداي عام 1869م وفوجل الذي أعدمه سلطان وداي عام 1853م بسبب أجهزته الفلكية التي اعتبرها أدوات ممارسة السحر[1].

جـ ـ الطريق الغربي (طرابلس ـ تمبكتو):

ويصف يحيى بوعزيز طريق طرابلس ـ تمبكتو بأنه يمر من طرابلس على سيناون وغدامس ثم يدخل الأراضي الجزائرية عند ثماسين والبيوض حيث يلتقي بطرق قسنطينة المؤدية إلى تمبكتو[2].

وقد عرف الطريق المذكور عند الباحث عبد الله إبراهيم باسم الطريق الغربي[3] غير أن عقيل البربار يعطي هذا الطريق أهمية كبيرة ويعتبره بالرغم من صعوبته وما يحيط به من مشاكل فإنه يعد بالنسبة للطريقين الآخرين أوفر عائداً من الناحية المادية[4] ويبدو أن الطريق الغربي كان أيضاً أوفر حظاً من الناحية الأمنية وذلك نسبة لأن قبائل الطوارق قد اهتمت بالتجارة الصحراوية وقامت بحماية القوافل التجارية المارة عبر منطقة غات والأير إلى كانو[5].

د ـ الطريق الشرقي (طرابلس ـ مصر):

ويشير يحيى بوعزيز إلى الطريق الساحلي المتجهة شرقاً من طرابلس إلى بنغازي ثم يميل باتجاه الجغبوب ومنها إلى سيوة والفرافرة والأقصر بصحراء مصر الغربية ويتصل هذا الطريق بعدة طرق متفرعة آتية من المراكز الساحلية العامرة مثل سرت وبنغازي ودرنة والقصر الجديد[6].

---

(1) H. Zimmerer., op. cit., PP. 1-3.

(2) يحيى بو عزيز، طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص129.

(3) Ibdalla, Ali Ibrahim., op. cit., P. 262.

(4) Agil, M. AL barbar, op. cit., P. 54.

(5) Ibdallah, Ali Ibrahim., op. cit., P. 263.

(6) يحيى بو عزيز، طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص130.

3 ـ البيوتات التجارية:

اشتهرت عدد من البيوتات التجارية في تنسيق وتسيّر القوافل التجارية ونقل سلعها وبضائعها إلى أماكن تصريفها فضلاً عن القيام بدور الوساطة التجارية بين التجار وموكليهم وعادة ما يشرف البيت التجاري على مهمة عقد الصفقات التجارية بين التجار وبين المستوردين والمصدرين ويورد غروته أن البيت التجاري يسند مهمة الإشراف أحياناً إلى تاجر من أصل عربي يمتلك بيوتاً أو عقارات تمثل رهن مقابل البضائع التي يؤتمن[1] عليها إلا أن هذا الضمان لا يؤخذ به دائماً ويقدم البيت التجاري جميع البضائع والجمال وكل ما هو ضروري لتجهيز القافلة ولا يخضع قائد القافلة لأي أوامر فيما يتعلق بمدة الرحلة والإقامة في الأسواق أماكن البيع والشراء مواد المقايضة كل ذلك يخضع لتقديرات دائماً بعد عودة القافلة وتقدير البضائع التي اصطحبتها يسحب صاحبها المبلغ الذي اتفق عليه قبل انطلاق القافلة وإذا وقعت خسارة يجري تحميلها بصورة جماعية ولهذا يكون الراهن بمثابة ضمانة وإن قادة القوافل لا يتحملون أي مسئولية عن الخسائر التي تنجم عن ظروف غير طبيعية كالسلب أو الحرب وأن أي خلل من قائد القافلة يؤدي بطبيعة الحال إلى إنهاء عمله[2].

وقد ذكرت ماريون جونسون Marion Johnson في تقريرها بيتاً تجارياً يعد من أحد البيوت التجارية الهامة في طرابلس والتي تتعامل في التجارة الصحراوية ويمتلكه الحاج محمد الذي يقيم والده في غات وأحد أبنائه محمد الأسود في غدامس وله سبعة أبناء يزاولون التجارة في بلاد السودان وتعود أصولهم إلى بلاد الهوسا[3].

ويمتلك بيتاً تجارياً ولديه حوالي ألفين من الجمال ويتكفل بالترحيل وهناك إشارة أخرى إلى بيت تجاري آخر تمتلكه عائلة من زندر هي عائلة الأخوة قنابة

---

(1) L. H. Grothe., op. cit., P. 16.

(2) Ibid. P. 16.

(3) Marion Johnson, Calico Caravans the Tripoli, Kano trade after 1880. Journal of African History Vol. XVII, 1. 1976. P. 110.

وكان أخوهم الأكبر يدير مصالحهم التجارية في طرابلس وهناك عائلة الثني في غدامس وهي عائلة معروفة مدة منتصف القرن التاسع عشر وتصاهروا مع الطوارق[1].

وقد اشتهر التجار الغدامسيون بعلاقاتهم التجارية الواسعة بالمناطق الصحراوية وما ورائها وفي الواقع كانوا المحركين الرئيسين للحركة التجارية ويمتلكون وكالات تجارية في طرابلس وبعضهم لهم ارتباط مع البيوتات اليهودية في طرابلس ومنها بيت أربيب وحنونة التي تستورد البضائع الأوروبية بالتعاون مع بعض الشركات في مالطا وليفرنو[2] وكانت القوافل الكبيرة تضم حوالي 230 جمل أما الصغيرة فيصل حجمها إلى 50 جملاً[3].

والجدير بالذكر أن كبار تجار طرابلس كانوا يمتلكون بيوتاً تجارية تعمل لحسابهم الخاص ومن بين هؤلاء التجار أفراد من الجاليات الأوروبية واليهودية المستقرة، فالبيوتات اليهودية بطرابلس ملئة بالوكلاء التجاريين وكبار التجار وخاصة الذين استفادوا من نظام الامتيازات في الدولة العثمانية ووفروا لأنفسهم من ذلك حماية القوى الأوروبية وكانت مهمتهم الرئيسة عقد الصفقات التجارية وقد كان للتجار اليهود أملاك واسعة ونشاطات كبيرة ساعدتهم على تسيير عدد من القوافل التجارية التي تقوم بنقل البضائع من مركز الولاية بطرابلس إلى الدواخل وعلى سبيل المثال كانت هناك قافلة «براخة بن نسيم» اليهودي التي كانت تتعامل بشكل خاص مع جنوب غرب ليبيا وقافلة أخرى تعرف بقافلة مسلاتة مؤجرة للتاجر اليهودي معتوق المالطي وهي أسبوعية تنقل الخمور والشاي وتأتي بالزيت والصناعات الحديدية مختلفة الأنواع[4].

---

(1) Marion Johnson, op. cit., P. 110.

(2) Miege, J. L., Lalibye et la commerce transsaharien Aux xixsiecle Roma isem 1975. P. 138.

(3) Ibid. P.139.

(4) خليفة محمد الأحول، الجالية اليهودية بولاية طرابلس الغرب من 1864 ـ 1911م، رسالة ماجستير غير منشورة، (طرابلس: كلية التربية بجامعة الفاتح، 1985م)، ص275.

كما عرف إسحاق لأبي وهو أيضاً يهودي من طرابلس وكان يتولى التمثيل القنصلي لعدد من الدول الأوروبية ومنها ألمانيا منذ 1889 ـ 1907م بإشتراكه بتجارة القوافل ويذكر فون باري أن مصطفى زميت الذي رافقه أثناء رحلته إلى غات كان يشترك مع تاجر إيطالي في طرابلس في التجارة ويمكن القول أن أصحاب التجارة الصحراوية في طرابلس هم تجار من مدينة طرابلس ومن غدامس وكذلك تجار أوروبيون وعادة ما كان بعض اليهود من أبناء طرابلس يمثلون بعض البيوتات التجارية ويتولون أيضاً تجهيز القوافل من بضائع الشركات التي يمثلونها أو مما يجدونه يدر أرباحاً[1].

وإذا اصطحب قائد القافلة بضائع لحساب تجار آخرين فإنه يحاول أن يبيعها في مراكز الأسواق المختلفة مقابل دفعة نقدية أو بالمقايضة وتمثل القافلة سوقاً تجارياً مغلقاً ينضم إلى القافلة الكبيرة التي ينظمها أحد البيوتات التجارية.

وقبل وصول القافلة إلى إحدى الأسواق الكبيرة بيوم أو بيومين كانت تحرص على إبلاغ نبأ مجيئها الوشيك وذلك بإيفاد شخص يمتطي مهرياً سريعاً والهدف من ذلك إعطاء مهلة لتجار ذلك السوق لترتيب بضائعهم وسلعهم التي يريدون تسويقها نقداً أو مقايضة وفي الغالب تمكث القافلة في هذا السوق التجاري مدة يحددها قائد القافلة تتناسب مع حجمها وما تحمله من سلع[2] وما تتطلع إليه من تعامل تجاري مجزي بيعاً أو شراءً. فقد ذكر كاكيا أن التجار المساهمين في سلع القوافل التجارية كانوا يشتركون في تنظيم هذه القوافل بالمال اللازم والبضائع[3] ولكنهم كانوا يوكلون مهمة الإشراف على القافلة التجارية لشخص مسلم يثقون فيه ويطلق عليه اسم (باشي القافلة) أو شيخ القافلة[4] وعادة

(1) خليفة محمد الأحول، مرجع سابق، ص275.

(2) L. H. Grothe, op. cit., P.18. 19.

(3) أنتوني جوزيف كاكيا، ليبيا خلال العهد العثماني الثاني 1835 ـ 1911م، ط1، (طرابلس: دار الفرجاني، 1975م)، ص137.

(4) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

ما كان لأصحاب البضائع والمؤسسات التجارية عربية كانت أم يهودية وكلاء تجاريون ومكاتب فرعية لها في أسواق الواحات الليبية الداخلية مثل مرزق أو أسواق ما وراء الصحراء[1].

وكان لتجار تونس دور هام في تجارة طرابلس الغرب[2] وخاصة تجار جربة في القرن التاسع عشر حيث اشتهر عدد كبير منهم ومارسوا التجارة وكونوا عدد من المحلات التجارية في أسواق طرابلس خاصة سوق الرباع وكان على رأس الوكلاء المعينون من قبل الحكومة التونسية لرعاية شئون مواطنيهم وتمثل حكومة الباي في طرابلس ومن هؤلاء الوكلاء رجب بن علي قاسم وأخوه محمد بن علي قاسم، ثم قاسم البقار الذي شغل منصب الوكالة في فترة السبعينات[3].

ولما كانت معظم البضائع المتجهة من أسواق طرابلس جنوباً تخضع لنظام المقايضة فإن المشرفين على القوافل التجارية كانوا يحددون لها أسعار أعلى من أسعارها في طرابلس تحسباً لمواجهة التكاليف الإضافية المتمثلة ـ مثلاً في أجرة النقل والضرائب ومخاطر الطريق[4] وكانت الأرباح بعد التسويق تقسم مناصفة بين التجار أصحاب البضائع وبين المشرفين عليها[5].

والموضوع الآخر هو قضية تنسيق التجارة وتوطيدها بين المراكز التجارية وهذا أمر يحتاج إلى طول إقامة وهذا لا يمكن أرباب الأموال تقسيم جهودهم على عدة مناطق لصعوبة مواصلات ذلك الوقت لذا عينوا عليهم وكلاء يكلفهم

(1) أنتوني جوزيف كاكيا، المرجع السابق، ص137.

(2) وثيقة رقم 145. م6. ت ج، ملف التجارة، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، ملحق رقم (19).

(3) صلاح الدين حسن السوري، الضرائب في ولاية طرابلس الغرب وفي متصرفية بنغازي في العهد العثماني الثاني، مشاكل الضغط والتوتر، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ2ـ 1984م، ص411.

(4) أنتوني جوزيف كاكيا، المرجع السابق، ص138.

(5) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

بعض كبار التجار أصحاب رؤوس الأموال المتعددة بالمتاجرة وفقاً لشروط واتفاقات ترضي الجميع ودورهم تسلم سلع موكليهم وصيانتها هناك للمتاجرة بها في سعة من الوقت وبهذا ضمن التجار تعاملهم مع بلدان داخل الوطن وخارجه وقد بلغت أهمية الموكلين إلى حد جعل الحكومة التركية توكلهم هي نفسها يمثلون تجار طرابلس الغرب داخل تراب بلدان أخرى التابعة منها للسلطة العثمانية أو البلدان الأفريقية الأخرى[1].

أما بالنسبة لتعريفه النقل فإن الرحّالة بويرمان ينقل صورة واضحة للعقبات التي واجهته عند انضمامه للقافلة والتي اصطحبها في 28 أبريل 1862م وقد ورد في نص تقريره حول رحلته تلك ما يلي:

«لم يكن تأمين الجمال للرحلة أمراً سهلاً بسبب المبالغة في أجرة النقل التي كانت باهظة وبالرغم من الاتفاق مع المجابرة أصحاب الجمال على أسعار النقل وتحرير عقد بيننا ودفع نصف قيمة الأجرة مقدماً، فإنهم لم يلتزموا بالعقد ولم يستطع محرر العقد إلزامهم بما تم الاتفاق عليه . . .»[2].

وفي إطار الإعداد للرحلة والترتيبات التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار أشار إدوارد فوجل في رسالته إلى ريتربونزن Bunsen أثناء توجهه إلى بلاد السودان بتاريخ 4/ 11/ 1853م من تجرهي «. . .إننا نستعد لمغادرة فزان مع الحدود العثمانية وكان علينا أن نقضي هنا يومين بحيث نأخذ معنا التمر اللازم وقد اشتريت لوحدي حمولة 6 جمال أي حوالي 25 قنطاراً لأن طريقنا سيمر منطقة عديمة النباتات وتستغرق الرحلة عشرة أيام.. لقد قضينا في القطرون 8 أيام، لأن صهر الباشا الذي غادر مرزق بعد يومين قد تاه لمدة ثلاثة أيام في صحراء مستوتة وحاول أن يجد الطريق إلا أن العواصف حالت دون ذلك وكنا

(1) خديجة باعلي الشريف، «طريقة تقويم تجار القوافل الغدامسية للسلع والبضائع»، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1988م، ص95.

(2) Beurmann Karl, Moritz Von Voyages et Explorations 1860. 1863, Stillide. 1973,P. 72.

سنتعرض للحالة نفسها لولا معرفة دليلنا الدقيقة للمنطقة والذي استطاع أن يوصلنا بأمان إلى نخيل يدعى بالقصر الأحمر وهو موضع يبعد عشرة أميال شمالي القطرون[1].

أما حماية القوافل التجارية فنجد أنها تواجه مشاكل عديدة أهمها تلك الناجمة عن الاضطرابات السياسية وعمليات النهب والسلب التي تقوم بها جماعات اتخذت من هذه العمليات مصدراً للرزق ومنهم بعض البدو الرحل والطوارق الملثمين وقد تعرضت بعض القوافل التجارية للهلاك وفقدان الأموال ناهيك عن المتاعب والأهوال[2] وقد عانت الحركة التجارية الكثير من الاضطرابات والقلاقل التي سببها أولاد سليمان في الطريق الواصل إلى برنو وذلك أثناء نزاعهم مع السلطات العثمانية في الأربعينيات من القرن التاسع عشر[3].

ولا يخفى أيضاً دور عبء الطبيعة على القوافل التجارية بشراً وحيواناً نتيجة لشح المياه وزحف الرمال وهو أمر يتطلب ضرورة وجود دليل وقائد حاذق للتغلب على مشاكل الطبيعة والإنسان[4].

ولصيانة سمة البيت التجاري وقائد القافلة التجارية كان الطرفان يحرصان على تحقيق الحماية اللازمة للممتلكات التي تحملها القافلة وتأمين سلامتها على طول الطريق وفي أثناء المعاملات التجارية داخل الأسواق والمراكز التجارية الصحراوية وما ورائها في بلاد السودان ومن الإجراءات التي تنظم حماية القوافل التجارية ما يلي[5]:

(1) Eduard Vogel's Reise nach Central Afrika Jan. 1854, Petermanns (z) Geographische Mitteilungen 2 1855, P. 251.

(2) L. H. Groth, op. cit., P. 193-195.

(3) جيمس ريتشاردسون، المرجع السابق، ص510.

(4) يحيى بو عزيز، طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص132.

(5) المرجع نفسه، ص133.

1 - تسليح رجال القافلة بالأسلحة اللازمة لصد العدوان وإرغام المعتدين بدفع تعويض عن ما أحدثوه من خسارة أو ضرر.

2 - تجنيد رجال أشداء محاربين ذوي انتماءات قبلية مختلفة لمرافقة القافلة وحمايتها.

3 - الحرص على أن تكون الأسواق والمراكز التجارية مفتوحة أمام القوافل التجارية وتعاملها بإعطاء ضرائب نقدية أو عينية لزعماء القبائل من أصحاب النفوذ.

4 - تكليف بعض العائلات ومشائخ القبائل الصحراوية بمهمة تنظيم بعض الجماعات الموالية لها لحراسة القوافل التجارية والدفاع عنها حتى تضمن سلامة الوصول وفي المقابل تتولى هذه القوافل دفع مُنح وامتيازات مالية لهؤلاء الزعماء المعنيين.

5 - تعيين أدلاء مخلصين أهل دراية واسعة بمسالك الطرق ومفازاتها وأماكن تواجد المياه فضلاً عن تفادي مناطق العصابات وقطاع الطرق ومعرفة كيفية كسر شوكتهم .

وبالتالي لم يرض أصحاب القوافل وحدهم على تأمين سلامتها فحسب، بل إن سلاطين وحكام المناطق الصحراوية وبلاد السودان الأوسط والغربي كانوا أنفسهم يحرصون أيضاً على سلامة هذه القوافل وتدفقها تحقيقاً للانتعاش الاقتصادي في مناطق نفوذهم. ونلاحظ أن إعادة تشكيل التجارة مع تلك المناطق كسر الاحتكار الذي كانت تمثله بعض البيوتات الطرابلسية الكبيرة وأمام ازدياد أمان الطريق للقوافل فإنه يفسح المجال أمام الرأس المال الأوروبي أن يدخل عبر طرابلس إلى مجال التعامل التجاري مع بلاد السودان وفي الوقت ذاته ازداد تأثير فاعلية تجار الواحات الجنوبية وأصبحوا الوسطاء الوحيدين لحاجات بلاد السودان[1].

(1) L. H. Grothe, op. cit., P. 22.

وبالتالي فإن المؤسسات الاقتصادية خلال القرن التاسع عشر كانت تهيمن عليها الجاليات الأجنبية حيث تؤكد العديد من المصادر أن أغلب المؤسسات التجارية والصناعية الكبيرة وكذلك المصانع والمطاحن ومعاصر الزيت ووكالات الاستيراد والتصدير وشركات الحلفاء وغيرها، كلها كانت في يد العنصر الأجنبي المتمثل في البريطانيين والمالطيين واليهود والإيطاليين والفرنسيين وغيرهم وكانت إقامة هؤلاء تتركز في المدن الكبيرة ذات النشاط التجاري الواسع مثل طرابلس وبنغازي ومصراتة والخمس وزليتن وكذلك بعض مدن الدواخل والواحات وكثرة هؤلاء ساعدتهم في سيطرتهم على المرافق التجارية في البلاد ويلاحظ أن أغلب هؤلاء الأجانب كانوا يتحكمون في عمليات التصدير والاستيراد مع أوروبا ويمارسون عملية البيع والشراء جملة وقطاعي كمواد البناء والمواد الغذائية والأقمشة والملابس والأدوات المنزلية ومن الجاليات التي كان لها السبق في هذا المضمار هم المالطيون وكان تركزهم في طرابلس وبنغازي[1].

والجدير بالذكر أن هيمنة المؤسسات التجارية الأجنبية على النشاط التجاري في الولاية أدى إلى خلق طبقة راقية في المجتمع أصبحت تتحكم في أهم مرافق البلاد الاقتصادية ومن بينهم القناصل وأتباعهم إلى جانب مهماتهم السياسية يقومون بدور الوكلاء التجاريين لبلدانهم وكذلك فئة التجار الأغنياء الذين استقروا في المدن وخاصة طرابلس هؤلاء جميعاً كونوا طبقة متميزة من الأوروبيين في البلاد.

وأدى هذا التدخل إلى خلق التوتر بين الطرفين وضرب التجار المحليين مما ساعد التجار الأوروبيين للقيام بممارسات في حق التجار الصغار كالمضاربة في أسعار بعض المواد واحتكار أنواع معينة من السلع وتطفيف الموازين والمكاييل وغيرها، الأمر الذي كان يحز في نفوس صغار التجار المحليين وعامة

(1) صلاح الدين حسن السوري، الضرائب العثمانية في ولاية طرابلس الغرب وفي متصرفية بنغازي في العهد العثماني الثاني، المرجع السابق، ص408 وما بعدها.

المستهلكين من أبناء البلاد كانت هذه الممارسات واضحة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي[1].

وبالرغم من أن التجار المحليين قد تعرضوا للمنافسة الشديدة من الأجانب كما أسلفنا إلا أنهم قد شاركوا بنصيب لا يستهان به في مجال الأعمال التجارية سواء في المدن أو الدواخل وخير مثال على ذلك التجار الوطنيين في كل من غدامس ومرزق وتجار المجابرة والزوية في مناطق الكفرة وبنغازي وجالو وأوجلة الذين كان جزء كبير من تجارتهم يتكون من البضائع الأفريقية القادمة عن طريق القوافل والتي كان قسم كبير من هؤلاء التجار يتعامل بها أيضاً وفيما يبدو أن بعض التجار المحليين كانوا يمارسون الأعمال التجارية الصغيرة في المناطق القريبة من المدن أو في المناطق الداخلية كانوا يأخذون البضائع من تجار الجملة ثم يبيعونها لسكان الدواخل بطريقة التجزئة ولكن بأسعار مربحة[2].

لقد حرصت سلطات العهد العثماني على توطيد علاقاتها بحكام المناطق الصحراوية وما ورائها وذلك تأميناً لطرق القوافل التجارية ودعماً للعلاقات الاقتصادية بين ليبيا وتلك الجهات وخاصة بعدما تأكد للعثمانيين الدور الخطير الذي لعبته فرنسا من جراء الامتيازات التي منحتها لتجار الطوارق مما حدا بالوالي العثماني بطرابلس في إصدار تعليمات بإعفاء تجار غدامس من أداء الضرائب سوى رسوم العبور التي تقدر بحوالي 2% وشجعتهم على إقامة علاقات تجارية مع تمبكتو وبرنو وفي الوقت ذاته حذرت الحكومة التجار من مغبة التوجه بقوافلهم إلى الأسواق الجزائرية.

ويلاحظ أن اهتمام الفرنسيين بمسألة توجيه القوافل إلى الأراضي الجزائرية زاد بعد تولي شارل فيرو مهام القنصل العام الفرنسي بطرابلس عام 1879م حيث

(1) صلاح الدين حسن السوري، الضرائب العثمانية في ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بنغازي في العهد العثماني الثاني، المرجع السابق، ص409 وما بعدها.
(2) المرجع نفسه، ص410 وما بعدها.

حاول القنصل منذ وصوله إلى استمالة بعض تجار القوافل ومنحهم الجنسية الفرنسية وحرض شارل فيرو تجار القوافل على ربط علاقات مباشرة مع الغرف التجارية والوكالات التجارية الفرنسية وجند بعض تجار القوافل على تزويده بالمعلومات التي تخص التجارة مثل أهم الطرق، وأهم التجار، وأهم السلع الأوروبية والأفريقية والأسعار والقبائل البدوية التي تمارس السطو ضد القوافل[1] حتى يتمكن من تحويل وجهة القوافل.

4 ـ الأسواق:

اشتهرت طرابلس بكثرة أسواقها وتعدد صناعاتها حتى أن الجغرافي الشهير المعروف الشريف الأدريسي قد ذكر في كتابه (نزهة المشتاق من اختراق الآفاق) ما يدل على إعجابه الشديد بأسواق طرابلس في عبارة قصيرة ولكنها قوية التعبير نفكر فيما وراءها أن مدينة طرابلس البيضاء الحسنة الشوارع هي مدينة متقنة الأسواق وبها صناع وأمتعة يتجهز بها إلى كثير من الجهات، ونحن نفهم من هذه العبارة الكثير فقد كان بطرابلس أسواق منظمة عبَّر عنها بأنها أسواق متقنة وأن المدينة كانت مدينة تجهيز للقوافل التي تخترق الصحراء إلى أفريقيا وهي محط الرحال بين المشرق والمغرب وملتقى الحجاج في ذهابهم وإيابهم وقد سبب ذلك لها نمواً في الصناعة والتصنيع وتعدد الأسواق السلعية التي تعرف باسم السلع التي تباع فيها المصنوعات المتنوعة ومعنى هذا أن الحركة الاقتصادية كانت نشطة في مدينة طرابلس منذ زمن بعيد وكانت الأسواق بها متعددة سواء لبيعها أو لصناعتها ومتخصصة في سلع معينة وكانت هناك أسواق أسبوعية وأسواق موسمية تقام عدة أيام عند وصول القوافل وتقام خارج المدينة؛ أي: أن هناك أسواقاً صناعية مثل سوق القزدارة لصناعة الأواني النحاسية وسوق الحدادة وسوق النجارة وسوق البنادق وسوق الحرير لصناعة الأردية الحريرية وأسواقاً لبيع السلع مثل سوق

(1) سعيد الحنديري، المحاولات الفرنسية لتحويل وجهة القوافل العائدة من السودان إلى الجزائر، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1996م، ص97.

الخرداجية وسوق الخبز وسوق الخضرة... إلخ. وترد أسماء هذه الأسواق وسواها لدى مجموعة ممن زاروا طرابلس وسجلوا مشاهداتهم وملاحظاتهم حولها. وربما كان من المناسب إيراد نبذة عن عدد من أسواقها الشهيرة[1]:

1 - **سوق الترك**: هو أوسع شوارع طرابلس وهي سوق تركية مستقيمة وتوجد بها أعداد من الدكاكين ويستطيع المرء أن يشتري منها كل شيء وواجهات هذه الدكاكين هي واجهات زجاجية وقد أنشأ هذا السوق محمد باشا المعروف بشائب العين (1687 ـ 1701). ويتميز هذا السوق بأنه تباع فيه المعروضات الأوروبية إلى جانب السلع المختلفة[2].

2 - **سوق الربع**: أنشأ هذا السوق عثمان باشا قرب القلعة وهي سوق مغطاة، تعرف الآن بسوق الربع وتقع بالقرب من مسجد أحمد باشا القره مانلي وكان يعرف بسوق العرب وقد أنشأ هذا السوق لتوفير الراحة للتجار وتمكينهم من تخزين بضائعهم بمنحى من الشمس والمطر ويجلس الباعة في هذا السوق وهم في زوايا صغيرة ويبيعون الحوالي والبرانيس ويقال بأنها عرفت باسم سوق الربع نسبة إلى الرباع التي بنيت فوقها للسكنى، والرباع جمع ربع وهي الدار.

3 - **سوق فم الباب**: وكانت تباع فيه سلع صانعي السروج وصانعي العتاد كما يجلس فيه صناع الأحذية العربية المطرزة والمطعمة بالذهب[3].

ويشير د. صلاح الدين السوري في بحثه بعنوان مشاكل الضغط والتوتر أن الأسواق في المدن الساحلية كانت ذات طابعين أسواق تقليدية دائمة وتشتمل على العديد من المتاجر الصغيرة والحوانيت الكبيرة، أما الطابع الآخر فكان يتألف من

(1) خالد نوفل، لمحة عن الأسواق بطرابلس، طرابلس القديمة، العدد الرابع، الفصل الرابع 11/ 5/ 1987م، ص7.

(2) المرجع نفسه والصفحة.

(3) المرجع نفسه والصفحة.

أسواق شعبية تقع في ساحات أو أطراف المدن بالنسبة لأسواق الطراز الأول كانت توجد في وسط المدن وغالباً ما تكون مسقوفة وتضم متاجر الجملة والقطاعي وكذلك الدكاكين والأكشاك الصغيرة وفي مثل تلك الأسواق كانت تباع جميع أنوع البضائع المستوردة منها والمحلية وخير مثال هو سوق الترك وسوق الرباع في مدينة طرابلس وسوق الظلام، أما الأسواق المفتوحة والتي كانت تعقد في مناطق تجمعات مكانية معينة معدّة في الغالب لبيع وشراء المنتجات المحلية وأغلب هذه الأسواق العامة كانت تعقد إما يومياً أو في عدد معين من أيام الأسبوع أو بصفة أسبوعية ومن هنا فيما يبدو جاءت تسمية بعضها بأحد أيام الأسبوع التي كانت تعقد فيها مثل سوق الثلاثاء وسوق الجمعة في مدينة طرابلس وفي غيرها من الأماكن الأخرى.

كما أن هناك أسواقاً أخرى كانت تعرف باسم المنتجات التي تباع فيها مثل سوق الخضر وسوق الخبز في طرابلس وسوق المواشي[1].

والجدير بالملاحظة هنا هو أن تلك الأسواق الشعبية كان لها دور فعال بالنسبة للنشاط التجاري والحياة الاقتصادية اليومية وذلك لأنها كانت الأماكن الأساسية لبيع وتبادل جميع المنتجات المحلية، حيث كانت ترد إليها كل المواد الغذائية والاحتياجات اليومية الضرورية لعامة الناس وكان يرتادها جمع غفير من الأهالي ومن ثم كان التبادل التجاري نشطاً ورائجاً[2].

وأشار الرحّالة ليون في رحلته من طرابلس إلى فزان بأنه يعقد كل أسبوع سوقان كبيران أحدهما يوم الثلاثاء في مكان رملي خلف طرابلس والآخر يوم الجمعة على بعد أربعة أميال من المدينة وفي حدائق المنشية تحتل رقعة مساحتها أربعة أميال تتوسط الشاطئ والصحراء.

(1) صلاح الدين حسن السوري، الضرائب العثمانية في ولاية طرابلس الغرب وفي متصرفية بنغازي في العهد العثماني الثاني، المرجع السابق، ص400 وما بعدها.

(2) المرجع نفسه، ص401.

ويوجد بالمدينة حوانيت كثيرة تفتح كل يوم كما توجد شوارع مغطاة رصت على جانبيها بعض المحال الصغيرة وهناك يقف المزايدون يبيعون العبيد وبعض السلع الأخرى ويحدثون جلجلة وضوضاء وينادي الكل محدداً آخر سعر[1].

ويأتي وصف رولفس في رحلته من طرابلس إلى الإسكندرية حيث يقول: «وعلاوة ما يشتري ويتجر به يومياً ينعقد أسبوعياً سوقان أمام أبواب المدينة وهما سوق الثلاثاء أمام الباب الجنوبي للمدينة وسوق الجمعة أمام الباب الغربي ويجتمع فيها يومياً آلاف الأشخاص من جميع أرجاء الأيالة وهي تقوم في هذه الأيام واحدة من أهم وأطرف الصور التي يمكن تصورها عن الحياة في أفريقيا»[2].

ويؤكد محمد بن عمر التونسي في كتابه رحلة إلى وداي أنه يعقد سوق بين طرابلس والمنشية في يوم الثلاثاء من كل أسبوع وهو سوق يعمه البدو وأهالي طرابلس وضواحيها بالإضافة إلى سكان المنشية ويستطرد قائلاً: قد يجد المرء صعوبة في المشي لكثرة الازدحام بالسوق وتباع فيه جميع السلع[3].

وهذا بانزة الذي زار طرابلس في مطلع القرن العشرين أجرى حصراً للأسواق التي تعج بالحركة وتباع فيها سلع مختلفة قائلاً : لكل سوق وضع خاص ومن بينها سوق الخبزة وهو عبارة عن ميدان مكشوف تتفرع منه عدة شوارع، ثم سوق التركة وهو يتألف من حجرات مبنية من خشب قديم أو صفيح التنك أو من حصر حديثة تثبت إلى بعضها بمسامير حسب مقتضى الحال وتباع فيها سلع متنوعة وكل متطلبات الناس، أما سوق الثلاثاء (التلات) يمكن مشاهدة هذا السوق من مبنى السرايا على أفضل وجه حيث تلاحظ نصف سكان منطقة طرابلس طالما أن أحدهم قادر على أن يحضر خروفاً أو طماطماً حيث تشاهد السوق

---

(1) جون فرنسيس ليون، المرجع السابق، ص15.

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص83.

(3) محمد بن عمر التونسي، المصدر السابق، ص413.

مقسم إلى قواطع وكل قاطع تعرض فيه سلعة. وإلى جوار الحديقة يقوم سوق الخيل ومقابل له سوق الجمال والمهارى. وأمام... الميناء حيث تشحن بآلاف الحلفاء الصفراء والخضراء وإلى الغرب من الميناء تمتد سوق الحمير وكذلك باعة الخضراوات واللحوم والبيض. أما سوق الجمعة فهو نظير لسوق الثلاثاء إلا أنه قليل الأهمية ويلبي حاجات الفلاحين والبدو المجاورين[1].

5 ـ سلع العبور وروافدها المتدفقة في ما وراء البحر الأبيض المتوسط والصحراء الكبرى:

أن الأوضاع الاقتصادية في ليبيا في القرن التاسع عشر يجب أن تراعى في دراستها العوامل الطبيعية والأسس الجغرافية للبلاد لأن تلك العوامل والأسس أثرت في توزيع السكان وحددت بشكل كبير أنماط حياتهم المعيشية، فإن طرابلس الغرب كانت تحتوي على أعلى نسبة من الكثافة السكانية وتشكل أهم المراكز التجارية لتبادل السلع والمنتجات المحلية. وتحتل مركزاً مهماً للتجارة الخارجية فبحكم موقعها الجغرافي كان يتم عن طريقها عمليات التصدير والاستيراد وكل ما يتعلق بأمور التجارة الخارجية.

أ ـ سلع العبور من ما وراء البحر الأبيض المتوسط إلى الصحراء الكبرى:

إن السلع التي تنقل إلى الأسواق الصحراوية في الواحات الليبية وأسواق بلاد السودان الأوسط والغربي يجب أن تتوفر فيها الشروط التالية:

أولاً: يجب أن تكون هذه السلع متوفرة وأسعارها رخيصة في أسواق حوض المتوسط لأن تجار غرب ليبيا ليست لديهم الإمكانيات للحصول عليها من مناطق أبعد من ذلك أو شراء سلع غالية الثمن وبكميات كبيرة وكانوا ما يجدونه بأسعار مناسبة في تونس وليفرنو والإسكندرية وأزمير يأخذونه إلى برنو وبلاد الهوسا وغيرها من المناطق الأخرى.

---

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، أفالد بانزة، المصدر السابق، ص137.

ثانياً: إن ترحيل البضائع بالجمال يجب أن يكون مقصوراً على البضائع التي يمكن حزمها على ظهورها شريطة أن تتحمل مدة السفر الطويل والمناخ الحار.

ثالثاً: فإن السلع التي تحمل إلى المناطق الصحراوية يجب أن يكون لها عائد مجزٍ حتى تغطي تكلفة الجهد الذي يبذله التاجر ومصروفات الترحيل عبر الصحراء وأخيراً فيكون من السهل للتجار توزيع تجارتهم في مجموعات صغيرة حتى يسهل توزيعها والمساومة في أسعارها وعادة ما يحمل الجمل حمولة وزنها 500 رطلاً[1].

كانت البضائع التي تنقل عن طريق تجارة القوافل الصحراوية في التسعينيات من القرن التاسع عشر شبيهة بدرجة كبيرة بتلك البضائع في مطلع القرن نفسه وقد حدد القنصل البريطاني في طرابلس في عام 1891م أن منسوجات مانشستر القطنية تمثل 70% من الإجمالي[2] وهنالك تقرير فرنسي في الفترة كتبه ميري وضع فيه الأقمشة بنسبة 6 إلى 7 أعشار الإجمالي[3] وكان معظم المصدرين من طرابلس إلى الجنوب من جنسيات أوروبية مختلفة بالإضافة إلى اليهود المقيمين في طرابلس[4] أما باقي البضائع فتشتمل على مواد منها السكر من النمسا والشاي الصيني الوافد عبر مالطا والأرياح من بلغاريا عبر الأستانة وشرق أوروبا والخرز والجواهر وكميات محدودة من الأدوات المعدنية وبعض الأسلحة والذخيرة التي أصبح تصديرها محظوراً بالنسبة إلى ليبيا[5].

إن التقرير الدبلوماسي القنصلي الإنجليزي عن تجارة طرابلس يبين أن عدد الجمال التي انطلقت من طرابلس إلى بلاد السودان خلال عام 1892م قد بلغ 2827 جمل وبلغت قيمة البضائع التي تحملها حوالي مليون ونصف فرنك وإذا ما

(1) Mark. F. Dyer. op. cit., P. 108.
(2) Marion Johnson op. cit., P. 100.
(3) Ibid. P. 100.
(4) Ibid. P. 100.
(5) Ibid. P. 100.

أضيف إلى ذلك النشاط التجاري للمراكز الأخرى وعلى وجه التحديد بنغازي وإذا ما أخذت بعين الاعتبار صعوبة الإحصائيات الدقيقة فإن حجم التعامل يمكن أن يبلغ ضعف العدد المذكور إذا ما ضمت برقة إلى ذلك[1].

وفي عام 1897م قام القنصل البريطاني بإعداد قائمة بحجم التجارة المرسلة من طرابلس عن طريق القوافل التجارية وكانت قيمتها الإجمالية 54766 جنيهاً إسترلينياً تمثل المنسوجات القطنية البريطانية أكثر من نصف هذه القيمة تقريباً، أما المنسوجات النمساوية فقيمتها 2210 جنيها إسترلينياً وقيمة الحديد الوافد من فرنسا وألمانيا قدر بما قيمته 560 جنيها إسترلينياً بالإضافة إلى 6716 جنيهاً إسترلينياً قيمة خام الحديد المستورد من إيطاليا وفرنسا[2] وأكد القنصل أن 84% من هذه البضائع المرسلة من طرابلس متجهة إلى كانو[3].

وعند الاحتلال البريطاني لنيجيريا فرض الحاكم العام البريطاني لوجارد ضرائب باهظة على تجارة القوافل القادمة من طرابلس[4] وبالرغم من ذلك، فإنه وجد في عام 1904م أن بضائع طرابلس التي فرضت عليها الضريبة بلغت 156 طناً واشتملت على المنسوجات الإنجليزية والخرز والسكر والمرايا والإبر والخردوات وكميات كبيرة من الورق[5].

لقد حاول قنصل بريطانيا في طرابلس تحديد حجم الواردات والصادرات وبالرغم من وجود بعض الإحصائيات الرسمية التي تحاول تحديد هذا الحجم فإنه كان من المستحيل التأكد من صحة البيانات الواردة في هذه التقارير، خاصة قبل تسعينيات القرن التاسع عشر وذلك لأن أغلب واردات طرابلس كانت تأتي عبر

(1) L. H. Grothe, op. cit., P. 122.
(2) Marion Johnson, op. cit., P. 100.
(3) Ibid. P. 100.
(4) P. Staudinger Imherzen der Haussalander, Berlin 1891, P. 616.
(5) Ibid. P. 616.

مالطا التي تقوم هي أيضاً بنفس المهمة بالنسبة لتونس[1] وبعد تلك الفترة أي في تسعينيات القرن التاسع عشر أصبحت هنالك أرقام وإحصائيات منفصلة بالنسبة لواردات طرابلس من وراء البحر المتوسط وكانت معظم الواردات تمثل المنسوجات القطنية البيضاء والرمادية والمطبوعات[2].

أشار الرحّالة جوزيف تمسون في عام 1886م إلى أنه كانت هنالك تجارة أوروبية واسعة عبر طرابلس إلى ما وراء الصحراء تتمثل في الملابس والخردوات والأدوات المعدنية[3] وكتب القنصل العام البريطاني جاقو تقريراً في عام 1897م أوضح فيه أن واردات طرابلس من الشمال كانت في تدهور مستمر منذ عام 1863م لبضعة سنوات وذلك نتيجة للتسهيلات التي وفرت بسبب استخدام الممرات المائية على نهر النيجر وبنوى والتي مرت عبرها البضائع الأوروبية مباشرة متخطية الطرق الصحراوية المنطلقة من طرابلس جنوباً[4].

وقد توقف التعامل التجاري مع الدواخل عقب استيلاء رابح سنة 1893م على باجرمي و1894م على كوكه وقد توقفت التجارة كلياً مع بلاد برنو خلال السنوات 1894م ـ 1896م[5]. ولم تبق في أسواق المدن التجارية في السودان الأوسط والغربي التي كانت محافظة على نشاطها سوى بعض مدن وداي وكانو وزندر وسوكوتو وتمبكتو هذه المناطق بقيت ميداناً لسوق طرابلس التي خسر تجارها كثيراً من ثروتهم وبذلك تراجعت التجارة بل توقفت القوافل توقفاً نهائياً لفترة من الزمن عن السفر بالاتجاه الغربي[6].

---

(1) Marion Johnson, op. cit., P. 102.

(2) Ibid. P. 102.

(3) J. Thomson, Niger and Central Sudan sketches Scottish Geogra. Phical magazine (1886), P. 595.

(4) Ibid. P. 595.

(5) Moritz Schanz, Algerien Tunesien und Tripolitanien Halle, 1905, P. 228.

(6) Ibid. P. 228.

ولكن هنالك تقارير تشير إلى عكس ذلك مؤكدة أن الصادرات والواردات عبر طرابلس وصلت أعلى أرقامها في عام 1873م واستمرت لمدة عشرة سنوات[1] وأعلن القنصل العام جاقو «أن تجارة قوافل طرابلس كانت في أزهى أيامها غير أن التسهيلات الحالية التي منحت عبر الممرات المائية لنهر النيجر ستلحق الضرر بهذا الازدهار وستؤدي في النهاية إلى كسادها»[2].

وكتب جاقو في عام 1900م «أن تجارة قوافل طرابلس سيحيق بها الفشل الذريع في المستقبل القريب بسبب تواجد الشركات البريطانية والألمانية والفرنسية في الجنوب، حيث توفر تسهيلات إضافية للتجارة التي عبرت الممرات المائية للنيجر وبنيوى»[3].

ولذا فإن تجارة الصحراء في أواخر القرن التاسع عشر حكم عليها بالموت نتيجة للصراع الدولي غير أن الضابط الفرنسي مول Moll الموجود في زندر اكتشف أن كانو ما زالت تصلها البضائع الأوروبية عن طريق الصحراء وعبر زندر نفسها[4] ولذلك اقترح لحكومة فرنسا أن تسيطر على تجارة بلاد السودان والطرق المؤدية لها مشيراً إلى «أن احتلالنا لمنطقة النيجر حتى تشاد سيمكننا من إيجاد منفذ لمنتوجاتنا ومورد للمواد الخام للصناعة ويستحقق هذا الهدف بربط هذه المناطق بفرنسا لصالح تجارتها والسيطرة على الطرق التجارية التي كانت توزع عن طريقها منتجات الصناعات الأوروبية»[5].

ويذكر غروته أن البضائع الأوروبية في القرن التاسع عشر تشتمل على القهوة والشاي والسكر والأدوية والأقمشة والأسلحة والبارود والمصنوعات الزجاجية واللؤلؤ وكذلك المصنوعات الحديدية من سكاكين وإبر وغيرها يأتي ثلثها من

---

(1) J. Thomson, op. cit., P. 595.

(2) Marion Johnson, op. cit., P. 98.

(3) Ibid. P. 99.

(4) Ibid. P. 99.

(5) Ibid. P. 98.

ألمانيا، وأن طرابلس تمثل مستودعاً رئيساً لهذه البضائع تسويقاً وتصريفاً[1].

وأشهر سلع العبور المتجهة جنوباً النحاس وبعض المعادن والملابس والخرز وبعض المنتوجات الجاهزة وكان النحاس يأتي طرابلس من استنبول في شكل أقراص وسبائك وقصاصات وكذلك من البندقية وليفرنو[2] ويقدر القناصل الأوروبيون أن أكثر من ألف قنطار من النحاس تستورده طرابلس سنوياً من استنبول وحوالي 200 أو 300 قنطاراً من إيطاليا[3].

وفي طرابلس يتم صهر النحاس الخام القديم في شكل سبائك ملائمة لتجارة القوافل الصحراوية[4] ومع النحاس ترسل الأواني والخردوات جنوباً[5] وأحياناً تأتي هذه السلع مباشرة عبر الطرق التجارية الأخرى من تونس والقاهرة[6] وفي النهاية كان معظم النحاس يتجه إلى أسواق تبستي وبرنو وبلاد الهاوسا حيث يقوم الصناع المحليين هناك بصناعة الحلق والأسوار خاصة في أسواق برنو كما أن سلطان برنو كان يضرب عملته من النحاس[7] وفي الحقيقة أن النحاس أصبح له قيمة ثابتة وأصبح تقام على أساسه درجة الثراء ومقايضة السلع[8].

وهنالك القصدير الذي يجلب معظمه من ليفرنو وسبائك الحديد من السويد عبر ليفرنو[9].

وكان معظم الخرز يأتي من جنوا وأحياناً يأتي الكثير منه عبر الطرق البرية

---

(1) L. H. Grothe, op. cit., P. 24.

(2) Mark, F. Dyer., op. cit., P. 109.

(3) Ibid. P. 109.

(4) Ibid. P. 109.

(5) Ibid. P. 109.

(6) Ibid. P. 110.

(7) Ibid. P. 110.

(8) Ibid. P. 110.

(9) Ibid., P. 110.

من تونس والإسكندرية[1] ويقول تقرير إنجليزي صادر 1767م وتقرير فرنسي 1780م أن طرابلس وحدها تستورد ملايين عديدة من الخرز سنوياً[2] ويعتبر الخرز سلعة رائجة ومرغوبة في ما وراء الصحراء ولذا كان يحمل جنوباً لأسواق ما وراء الصحراء كما أن الأسلحة[3] النارية وما يتعلق بها من بنادق ومسدسات وذخيرة تمثل سلع لها قيمة في التجارة الصحراوية ويأتي معظمها عبر غرب ليبيا[4] أما السلع الأخرى مثل المرايا والمسامير والإبر والمقصات والسكاكين وكذلك السلع الكمالية مثل الدخان كانت تستورد أساساً من تركيا عبر ميناء أزمير[5] وكانت التوابل تأتي إلى طرابلس عبر ليفرنو[6] لكن كميات قليلة من القهوة والشاي تستوردها طرابلس وتحرص على عدم إعادة تصديرها إلى بلاد السودان وتستهلك محلياً داخل الإيالة ولا تصل إلا كميات قليلة إلى الأسواق الداخلية الأخرى[7]. ويلاحظ وجود اختلاف في المعلومات بين غروته وبين Zimmerer فيما يتعلق بأنواع السلع الأوروبية المرسلة عبر طرابلس إلى بلاد السودان والتي يمثل حجم المنتجات الألمانية ثلثها[8] وبالرغم ما تستورده إيالة طرابلس الغرب من منتجات ألمانية متنوعة فإنه لا يوجد تبادل دبلوماسي بين الطرفين أي على الأقل لا توجد قنصلية ألمانية في طرابلس تشرف على هذه المصالح الألمانية المتطورة[9].

---

(1) Mark, F. Dyer., op. cit., P. 113.

(2) Ibid. P. 113.

(3) Ibid. P. 115.

(4) Josehps Maldone, The Firearms Trade in the Central Sudan in the Nineteenth, Century in Aspects of west African Islam ed Daniel me call and Norman R Bennett Boston University African Studies Center, 1971, PP. 154-155.

(5) Mark F. Dyer, op. cit., P. 116.

(6) Ibid. P. 116.

(7) Ibid. P. 117.

(8) H. Zimmerer, op. cit., P. 1-3.

(9) Ibid. P. 3.

وأشار رولفس في كتابه رحلة عبر أفريقيا بأن العلاقات التجارية المباشرة بين ألمانيا وشمال أفريقيا ما زالت قليلة إذا ما استثنينا بعض البيوتات في مصر وهذا يعود إلى أن الألماني في شمال أفريقيا متروك دون حماية وإذا ما احتاجها فإنه يلجأ إلى قناصل الدول الأخرى[1] واهتم De Mathuisieux بالمنتوجات البريطانية التي تنقلها القوافل التجارية لبلاد السودان حيث أشار إلى أن المنتوجات القطنية تأتي على رأس قائمة السلع ثم المواد العطرية بأنواعها[2] وأعطى كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري تصوراً دقيقاً وهاماً للسلع التجارية التي كانت تحملها القوافل التجارية المنطلقة بعضها من أسواق الشمال على أسواق بلاد السودان الأوسط والغربي سواء أكانت من منتجات الشمال أو تلك التي استوردت من الأسواق الأوروبية أو شرقي حوض البحر الأبيض المتوسط ومن هذه السلع ما يلي[3]:

1 - الأقمشة بأنواعها المختلفة صوفية كانت أم قطنية أو حريرية.

2 - الأسلحة المختلفة والبارود وهي سلع وجدت رواجاً منقطع النظير لحاجة حكام بلاد السودان لكميات منها لاستخدامها في حروبهم المستمرة والمتصلة بين بعضهم بعضاً وتشمل هذه الأسلحة إلى جانب الأسلحة النارية الدروع والخناجر والسهام والأقواس والنشاب وأنواع الأسلحة البيضاء المختلفة.

3 - الأدوات الحديدية ومن بينها القدور والأمواس والسكاكين والإبر والمصنوعات النحاسية وأهم مصدر لهذه المنتجات الأسواق الأوروبية.

4 - المصنوعات الجلدية كالسروج والألجمة ومهامز الخيل والبغال.

---

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة عبر أفريقيا، المصدر السابق، ص135.

(2) H. M. de. Mathuisieux Atravers la Tripolitanie Paris, 1913, P. 88.

(3) يحيى بو عزيز، طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص134 وما بعدها.

5 - المصنوعات الزجاجية والخردوات المختلفة بالإضافة إلى أدوات الزينة كالروائح العطرية ومواد الصناعة والذهب والفضة وغيرها.

6 - الورق والكتب التي راجت تجارتها نتيجة لتأثير الثقافة العربية الإسلامية الكبير على المجتمعات الأفريقية فيما وراء الصحراء.

7 - الخيل والبغال التي تضاعفت أثمانها لاستخدامها في الحرب والسلم وفي النقل كذلك.

أما ريتشاردسون، فأكد أن الأقمشة والملابس تأتي في صدارة ما يستجلبه أهل السودان من أوروبا ولاحظ أنها يغلب عليها الذوق الأفريقي المنحصر في الألوان الزاهية كاللون الأحمر والأصفر والأخضر الباهت القيمة الرخيصة[1].

وذكر الحشائشي في كتابه جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، يأتيها من أوروبا ويقصد هنا طرابلس أغلب السلع التي تأتي إلى تونس ويخرج منها القمح والشعير والبقر والغنم والصوف والتمر وبعض الغلال كالبرتقال والليمون الحامض والحلو والفلفل الأحمر والحناء[2].

كما ذكر رولفس في رحلته من طرابلس إلى الإسكندرية أن سلع الاستيراد هي قماش الكتان المالطي والمحمودي من بريطانيا، والمناديل والأقمشة الحريرية وخردوات ومواد غذائية والقهوة والسكر وصبغيات وخمر وكحوليات والتبغ والكبريت والخشب والمعادن والأسلحة والجلود المصنعة والورق واللؤلؤ الطبيعي والزجاجي والحلي والفضة في شكل قطع 5 فرنكات والساعات والأثاث وغيرهم من المصنوعات، ومن هذه الأشياء فإن الأهم هو الكتان والأقمشة الحريرية ثم تليها الخردوات والمواد الغذائية واللؤلؤ الزجاجي والمعادن والسكر والخمر[3].

---

(1) جيمس ريتشاردسون، المصدر السابق، ص386.

(2) الحشائشي، جلاء الكرب من طرابلس الغرب، المصدر السابق، ص69.

(3) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، المصدر السابق، ص82.

وأوضح أن ما يصدر منها تمثل في الحبوب والزيت والفواكه والتمر والبرتقال والليمون الحامض والفلفل الأحمر والمواشي والصوف والجلود المدبوغة والسمن والعاج وريش النعام وغبار الذهب والرقيق وشيء من الصمغ العربي والنطرون والإسفنج والمصنوعات اليدوية مثل الحصر والسلال والسجاد وإذا ما اعتبرنا أن قيمة هذه الصادرات تبلغ 5000000 فرنك فإن الحبوب وحدها تشكل نصف هذا المبلغ يليها الزيت وعاج الفيل والرقيق وغبار الذهب والصوف والمواشي(1).

أما عن بعض الإحصائيات الموجزة عن حركة ميناء طرابلس خلال الأعوام 1824 ـ 1827 ـ 1828 أي بداية من أول يوليو إلى 30 يونيو في عام 1824م وصلت إلى هذا الميناء 94 سفينة تجارية وسفينة مسلحة وسافرت منه 101 سفينة معظمها من مالطا والتي تحمل العلم البريطاني، وفي عام 1827 ـ 1828 بلغ عدد السفن التي وصلت إلى ميناء طرابلس 103 سفينة والرحلات 92 رحلة أغلبها هي الأخرى مالطية وبريطانية مع ملاحظة أن هذه الإحصائيات لا تشمل ما يسمى بالصنادل الطرابلسية والتونسية التي تقوم في كل موسم برحلات ساحلية ما بين جربة وميناء طرابلس فهي تصل بانتظام إلى طرابلس يوم الاثنين والخميس وتسافر يوم السبت والأربعاء. فهي مراكب شراعية صغيرة تتراوح حمولتها بين 10 و15 طناً وتسير بعض من رحلاتها إلى كل من زليتن ومصراتة وخليج السدرة(2).

وذكر رولفس في كتابه رحلة إلى الكفرة أنه خلال الأعوام 1868م ـ 1869م ـ 1870م وحسب إحصائيات رسمية كان عدد السفن التي دخلت ميناء طرابلس 427 سفينة والمغادرة منه حوالي 414 سفينة وكانت غالبية السفن تبحر تحت العلم العثماني وتليها في الدرجة الثانية إيطاليا وهي ذات المصلحة الأكبر

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، المصدر السابق، ص82.

(2) كالوجيرو بيازا، إحصاءات عن تجارة بنغازي، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1999م، ص15.

في القيام بمشاريع هنا وفي عام 1875م بلغ عدد السفن القادمة والمغادرة ميناء طرابلس أكثر من الضعف(1).

ويلاحظ أن الحركة التجارية لطرابلس الغرب حتى العقد الثامن من القرن التاسع عشر كانت قوية ولها مردودها الاقتصادي على الولاية وهذا ما لمسناه في حركة السفن الداخلة والخارجة من ميناء طرابلس وما تحمله من بضائع من مختلف البقاع.

ب ـ سلع العبور من ما وراء الصحراء إلى الشمال:

السلع الوافدة من جنوب الصحراء يجب أن تتوفر فيها شروط الترحيل والتسويق التي تتوفر في السلع الوافدة من الشمال إلى الجنوب، أي أن يحصل عليها بسهولة وبأسعار رخيصة من الأسواق الصحراوية أو في أسواق بلاد السودان وتتحمل مشقة الرحلة الصحراوية الطويلة وتكون نادرة في منطقة حوض المتوسط وأن يكون سعرها أكثر ارتفاعاً من الجنوب حتى تكون مجزية السعر ونسبة لوجود سفن كافية للترحيل وأسواق للتسويق بالجملة، فلا حاجة لتقسيم هذه السلع إلى وحدات صغيرة وعلى الرغم من ذلك فإن بعض التجار يفضلون توزيع سلعهم مجزأة(2) وكانت القوافل التجارية التي تنطلق من المدن الليبية على سواحل البحر المتوسط وأهمها مدينة طرابلس ينظمها في أغلب الأحيان تجار عرب مسلمون، كما هو الحال في المناطق الأخرى من شمال أفريقيا وهذه القوافل تنطلق إلى المناطق الصحراوية وبلاد السودان الأوسط والغربي لجلب أهم ما تنتجه تلك المناطق(3).

ويحدد كورو بعض صادرات الجنوب التي تنقلها القوافل التجارية عند انطلاقها شمالاً في طريق العودة وأهمها جلد الماعز المصنوع «الفيلالي»

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة إلى الكفرة، المصدر السابق، ص246 وما يليها.

(2) Mark. F. Dyer, op. cit., P. 117.

(3) A. A. Boahen, op. cit., P. 123.

والمصنوعات الجلدية المختلفة وريش النعام والتبر وكان العاج يعتبر من أهم هذه السلع وأكثرها عائداً وربحاً وفيراً وتعد نيجيريا المصدر الرئيسي للعاج وريش النعام[1].

وأفاد كورو أن قيمة العاج الذي تم تصديره إلى أوروبا عن طريق طرابلس بلغ نصف مليون ليرة خلال الأعوام العشرة أي ما بين عامي 1862م ـ 1872م[2] فازدادت هذه القيمة إلى حوالي تسعمائة ألف ليرة خلال السنوات العشرة التالية أي 1872م ـ 1882م[3] وبعد تلك الفترة انحدرت هذه الصادرات إلى أدنى مستوى فيما بين عامي 1882م ـ 1892م ولم تتعد 450 ألف ليرة تقريباً[4].

تناول جيمس ريتشاردسون في كتابه (ترحال في الصحراء) البضائع الواردة من بلاد السودان الأوسط والغربي في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر وحصرها في الرقيق والعاج ونبات السنا وقدر إجمالية قيمة هذه السلع المعنية بحوالي 60 ألف دولار خلال الفترة 1845 ـ 1846م، وذلك قبل وصولها إلى الأسواق الأوروبية التي تتضاعف فيها هذه القيمة[5] ويأتي بعد السلع الثلاث المذكورة حسب الأهمية ريش النعام والجلود ومن بعدها في الأهمية تجيء سلع سودانية الطابع متنوعة كالأدوات المنزلية مثل الملاعق والحقائب وقرب الماء فضلاً عن بعض الأسلحة البيضاء كالسيوف والخناجر والرماح .. إلخ[6].

كما لا توجد إحصائيات رسمية دقيقة لصادرات بلاد السودان والمناطق الصحراوية، وقد حاول بعض القناصل الأجانب تقدير حجم هذه الصادرات ويبدو أن هذه التقديرات لم تكن دائماً صحيحة[7] ولذا، كان من العسير تقدير

(1) فرانشيسكو كورو، المرجع السابق، ص107.
(2) المرجع نفسه والصفحة. (3) المرجع نفسه والصفحة.
(4) المرجع نفسه والصفحة.
(5) جيمس ريتشاردسون، المصدر السابق، ص385.
(6) المصدر نفسه والصفحة.
(7) Marion Johnson, op. cit., P. 97.

حجم سلع العبور المتجهة إلى طرابلس وأشار القنصل الفرنسي في طرابلس إلى أن التجارة الصحراوية كانت مزدهرة خلال الربع الثالث من القرن التاسع عشر نتيجة إلى حاجة الأوروبيين إلى ريش النعام[1].

لكن بعد عام 1875م كان يعتقد أن التجارة ظهر فيها تدهور مستمر حتى نهاية القرن وهذا التفسير اعتمد على المصادر العربية المغربية التي تقول حسب ما أورده بوهين أن التجارة عبر ثلاث طرق رئيسية غرب برقة قد وقفت تماماً في نهاية القرن التاسع عشر[2]، وتبنى هذا الرأي بوفيل الذي تنبأ بفكرة تحويل التجارة الصحراوية التي كانت تمر من السواحل الشمالية للبحر الأبيض المتوسط إلى بلاد السودان الأوسط والغربي[3] وكانت تكلفة عبور السلع الواردة من تلك المناطق عن طريق القوافل التجارية مرتفعة، إذ تتراوح ما بين 35: 40 جنيه إسترليني للطن الواحد[4]، ولذلك كان من الصعب تحقيق أرباح في هذه البضائع عدا البضائع ذات العائد المجزي مثل العاج وتراب الذهب والرقيق.

لقد حاول قناصل بريطانيا في طرابلس تحديد حجم وارداتها من بلاد السودان الأوسط والغربي وتشمل الصادرات من الجنوب إلى الشمال حسب أهميتها ما يلي :

أ ـ الرقيق :

كان الرقيق يمثلون أهم سلعة مجزية بالنسبة لتجارة القوافل حتى أن القنصل البريطاني في طرابلس بالغ في تقديره في عام 1858م، حين قال أن تجارة الرقيق كانت تشكل «أكثر من ثلثي قيمة كل تجارة القوافل»[5]، وكان معظم الرقيق الذين

(1) Marion Johnson, op. cit., P. 96.
(2) A. A. Boahen, op. cit., P. 111.
(3) E. W. Bovill, Gravans of the old Sahara London, 1933, P. 246.
(4) Marion Johnson, op. cit., P. 98.
(5) A. A. Boahen, op. cit., P. 127.

يتم تداولهم في المعاملات التجارية إما أسرى حرب أو يتحصل عليهم عن طريق الغارات أو الاصطياد(1). ومن أهم أسواق الرقيق في شمال أفريقيا التابعة للدولة العثمانية: المراكز الصحراوية الداخلية مثل مرزق وغات وغدامس وجالو(2) والتي كانت تزودها روافد رئيسة من مصادرها برنو وواداي وبلاد الهوسا في شمال نيجيريا. وتعد طرابلس أهم مستودع للرقيق تعتمد عليه السلطات العثمانية في الشمال الأفريقي، وذلك قبل إصدار السلطان العثماني مرسومه لوالي أيالة طرابلس الغرب في عام 1848م يأمره فيه بتحريم المتاجرة في الرقيق والالتزام التام بتنفيذ نص المرسوم السلطاني بصراحة(3).

وقد لوحظ أن تجار الرقيق كانوا يرافقون القوافل التي تنطلق من طرابلس إلى الدواخل وصولاً إلى المراكز التجارية الصحراوية والسودانية وعادة كانت تنطلق هذه القوافل على مرحلتين من أكتوبر إلى مارس حتى تصل إلى هناك قبل فصل الأمطار والتي تبدأ في بلاد السودان في يونيو.

وكان تجار الرقيق يجهزون سلعتهم من الرقيق بمجرد وصول القافلة حتى تتمكن من العودة إلى طرابلس ما بين يوليو وسبتمبر وبعضهم يغادر بلاد السودان بعد انتهاء فصل الأمطار ليصل طرابلس خلال فصل الربيع وكانت القوافل التجارية التي تربط طرابلس بالدواخل والتي تصطحب معها الرقيق يشرف عليها بصفة رئيسية الطوارق والتبو وكان الطوارق يحمون القوافل الكبيرة الوافدة من كانو حتى لا تتعرض للمخاطر. أما التبو فكانوا في حماية تلك القوافل الوافدة من برنو وواداي. وقد أشاد ديكسون إلى أنه التحق بقافلة في طرابلس في عام 1873م كانت تضم 245 جملاً و85 رجلاً مسلحاً(4) وبالرغم من أن تجار الرقيق كانوا

(1) A. A. Boahen, op. cit., P. 127.

(2) E. R. Toledano, The Ottoman slave Trade and ist supperssion 1840, 1890, Princeton, 1982, P. 49.

(3) A. A. Boahen, op. cit., P. 150.

(4) E. R. Toledano, op. cit., P. 29.

يحرصون على أن يصل معظم رقيقهم أحياء لأسواق النخاسة، فإن نسبة الوفيات بينهم كانت مرتفعة وقد تتراوح أحياناً ما بين 7% إلى 40%(1) ويعود السبب في ذلك إلى بعد المسافات وشح الماء والطعام وقسوة الطبيعة وتفشي الأمراض.

وهنالك ملاحظة جديرة بالاعتبار وهي أن قوافل الرقيق كانت أحياناً تبيع بعض رقيقها لقافلة أخرى في الطريق وأحياناً تواصل مسيرتها إلى مدن الدواخل الليبية مثلاً لمقابلة تجار الرقيق الوافدين من مدن سواحل البحر الأبيض المتوسط حيث تتم عملية البيع والشراء.

أما بعد حظر تجارة الرقيق فكان النخاسون يسيرون في مجموعات صغيرة تفادياً لمراقبة السلطات حتى يتمكنوا من الوصول للأسواق المحلية أو الاتصال بالتجار المصدرين إلى مناطق شمال البحر المتوسط وشرقه(2) وغالباً ما كانت تجارة الرقيق تتم ليس عن طريق المقايضة، بل بالعملة نقداً خاصة بعد تنفيذ قرار الحظر(3) أما أسعار الرقيق التجارية، فكانت تحتسب على أساس القيمة بالقروش العثمانية، بالرغم من أن بعض العملات الأوروبية كانت مستخدمة أيضاً. فقد كانت أسعار الرقيق في الواحات الليبية أيام الحظر أقل من طرابلس بحوالي 50%، نسبة لأن تجار الرقيق يضيفون إلى جانب المغامرة تكلفة الترحيل وأتعاب المرشدين وإعاشة الرقيق خلال الرحلة الطويلة التي ربما تمتد إلى حوالي عشرين يوماً فضلاً عن المخاطر التي قد تؤدي إلى وفاة عدد منهم في الطريق(4).

ومن أصناف الرقيق التي وجدت رواجاً في أسواق طرابلس وبعض مناطق الشمال الأفريقي وحوض المتوسط النساء الصغيرات السن اللاتي يستخدمن خدماً في المنازل وعشيقات لأسيادهن وكذلك كان بعض المخصين من الرجال قيمتهم

(1) E. R. Toledano, op. cit., P. 29.

(2) Ibid. P. 30.

(3) Ibid. P. 49.

(4) Ibid. P. 77.

عالية لاستخدامهم في الإشراف على الحريم[1]. وأشهر المصادر لهذين الطبقتين مناطق حوض تشاد وشمال الكمرون وغرب نيجيريا[2] وكان معظم الرقيق المجلوب يأتي من حوض تشاد وإذا كانت برنو المصدر الرئيسي الذي يمول طرابلس بالرقيق ؛ وبمجرد وصول الرقيق المجلوب بواسطة القوافل التجارية الوافدة عبر طريق برنو، طرابلس، يتم تصدير معظم الأرقاء خارج طرابلس والأقلية منهم يباعون في الأسواق المحلية الليبية[3].

وأما بالنسبة للرقيق المصدر خارج ليبيا، فإن السفن الطرابلسية وبعض السفن الأوروبية الأخرى كانت تستأجر لحملهم إلى مناطق مختلفة ومنها منطقة شرقي البحر المتوسط. وتشير التقارير أن أزمير وكانية في جزيرة كريت وباتراي في اليونان كانت من أهم مراكز استقبال الرقيق المصدر من طرابلس[4] وهناك أسواق أقل أهمية مثل أثينا في اليونان وجربة في تونس وعدد من موانئ بحر إيجه[5] وتعد استنبول سوقاً رئيساً لتجارة الرقيق في الدولة العثمانية[6] وتشير المصادر المتوفرة إلى أن ما بين 1000 ـ 3000 آلاف من الرقيق يتم تصديرهم سنوياً إلى منطقة شرقي المتوسط عبر طريق طرابلس[7] وتشير الإحصائيات أن طرابلس تصدر كمتوسط 2000 من الرقيق سنوياً. ألفاً في السنة الكاسدة وثلاثة آلاف في سنة الرواج[8].

ويمكن أخذ فكرة عامة من كتابات الرحّالة الإنجليز الذين شهدوا تجارة

---

(1) Marion Johnson, op. cit., P. 118.

(2) Louis Brenner the Shehus of Kukawa, A History of the Al-Kanemi Dynasty of Bornu, Oxford. Clarendon Prees, 1973, P. 25.

(3) Marion Johnson, op. cit., P. 120.

(4) Ibid. P. 120.

(5) Ibid. P. 120.

(6) E, R. Toledano, op. cit., PP. 51-54.

(7) Ibid. PP. 51-54.

(8) Ibid., P. 124.

الرقيق عبر الصحراء بأن مدينة طرابلس كانت ميناءً رئيسياً على ساحل الشمال الأفريقي يصدر منه العبيد إلى مناطق مختلفة.

وقدر لايون وجوزيف في سنة 1819م بأن عدد العبيد المصدر سنوياً عن طريق طرابلس يتراوح ما بين 3000 و4000 آلاف[1].

وقدّر كلابرتون ودنهام في سنة 1822 ـ 1824م بأنه يتم شراء حوالي 2000 من العبيد سنوياً من أراض الهاوسا إلى سوق طرابلس[2] وذكر الإنجليز والجمعية الخارجية لمقاومة الرق في سنة 1842م أن رقم العبيد الذي أعيد تصديره من طرابلس أكثر من 2000 ولهذا يستطيع باشا طرابلس في السنوات الجيدة أن يتحصل على 20,000 ألف دولار مقابل 5 دولار للفرد الواحد. وقدر القنصل الإنجليزي وارنجتون أن معدل دخل هذا المصدر حوالي 10,000 دولار، كما يستطيع الباشا بغض النظر عن دخل الضرائب أن يكسب دخلاً كبيراً من البيع الفعلي للرقيق والذي يقدر من 100: 200 دولار للشخص الواحد مع ملاحظة أن معظم هؤلاء العبيد هم جزء من الضرائب التي تدفعها الأقاليم[3].

وفي منتصف القرن التاسع عشر كان متوسط قيمة الرقيق بالنسبة للجنسين حسب تقديرات السلطات العثمانية الجمركية بحوالي ألفين قرشاً. ولكن بعد حظر تجارة الرقيق 1857م، يقال أن قيمة الرقيق في طرابلس ارتفعت بدرجة كبيرة، فكانت الجارية السوداء تقدر قيمتها ما بين 4000 و5000 آلاف قرشاً[4] كما كانت قيمة الضرائب والجمرك التي تفرض على الرقيق يحتسب متوسطها بالنسبة للفرد الواحد على أساس 9% من قيمته يضاف إليها 10% كضريبة إضافية[5]

---

(1) نقلاً عن كولافولايان، المرجع السابق، ص119.

(2) المرجع نفسه والصفحة.

(3) المرجع نفسه، ص120.

(4) E. R. Toledano, op. cit., P. 64.

(5) Ibid. P. 68.

وسمية الضريبة التي تفرض على استيراد الرقيق بمجرد وصولهم إلى طرابلس تقدر بحوالي 200 قرشاً على الشخص الواحد[1].

وهناك إشارة أخرى تقول أن البضاعة الرئيسية للقوافل القادمة من السودان في طريقهما إلى طرابلس هي العبيد حيث يتراوح عدد العبيد للقافلة الواحدة بين 500 إلى 2000[2].

وأوضح رولفس في رحلته من طرابلس إلى الإسكندرية أن الرقيق لم يعد يباع علناً إلا أنه يباع في السر وعلى علم القنصليات وكل أوروبي يعرف عنه. وفي طرابلس يدفع لشراء سوداء جميلة 120 ريال ويبلغ سعر الفولانية 150 ـ 160 ريال ويبلغ سعر الشركسية 300 ريال ويزيد، وأما الفتيات السود فيتراوح سعرهن بين 70 ـ 90 ريال[3].

وفي رحلته إلى الكفرة أوضح رولفس أن عدد الرقيق الذي يحمل من وداي إلى طرابلس من واقع ما شاهدته في قافلتين مرتا بأوجله بحوالي 1000 حتى 1200 وهم في غالبيتهم من الأطفال وإن القسم الأكبر منهم يبقى في الولاية إلا أن البعض منهم يعبرون البحر المتوسط إلى اسطنبول والولايات العثمانية الأخرى دون أن تقدم الحكومة العثمانية على إعاقته ودون أن يقوم القناصل الأوروبيون بمنع ذلك[4].

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام تقول أن أعداد الرقيق خلال عام 1820م قد ازداد إلى نحو 3 إلى 4 آلاف كل عام وفي الواقع هناك ثلاثة أسباب لذلك:

أولاً: لقد كان للسنوات التي أعقبت عام 1804م وحروب جهاد الفلاني أثرها في زيادة عدد العبيد الذين ألقى القبض عليهم مما أضاف إلى أعداد العبيد

(1) E. R. Toledano, op. cit., P. 69.

(2) Encyclopaede of Islam New Edition, Vol. 2, P.876.

(3) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص83.

(4) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة إلى الكفرة، المصدر السابق، ص257.

في منطقة الهاوسا وهي أهم منطقة لتصدير الرقيق بواسطة تجار غرب ليبيا في السودان.

ثانياً: إن السنوات التي أعقبت عام 1811م وحتى عام 1820م عندما قام محمد المكني بطرد أولاد محمد بفزان وأستولى على المنطقة لمصلحة القره مانليين قام بإرسال حملة إلى كل من بوركو وبحر الغزال وباجرمي ووداي للقبض على العبيد وكانت معظم هذه الحملات يرأسها العرب من أمثال، المكني ومحمد الأزهري ومصطفى الأحمر وقد تمكنوا من القبض على أعداد كبيرة من العبيد.

ثالثاً: لقد أصبح سلطان وداي أكثر نفوذاً بعد عام 1811م وأصبح من العاملين في تجارة العبيد.

هذه العوامل الثلاث كان لها الأثر الأكبر في زيادة حجم تجارة العبيد الذين يتم تصديرهم من طرابلس واستمرت هذه الموجة لمدة عشرين عاماً[1].

إلا أن قرويطي Grath يقول أن تجارة الرقيق في السابق كانت تمثل المادة الأكثر ربحاً إلا أنها أصبحت الآن في مستوى ضئيل جداً وفي العادة يجري إحضار أرقاء من الذكور والإناث حتى الواحات الليبية في الجنوب ويجري بيعهم بصورة خفية[2]، وهذا يتفق مع قرار حظر بيع الرقيق والذي تم تطبيقه بقوة على كل ممارس لهذه التجارة، مما جعل البعض يقدم على ممارستها بصورة خفية وسرية لأن هذا القرار يعرض التجار لعقوبات صارمة حتى يكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه ممارسة هذه الحرفة في الخفاء والسرية.

ب ـ ريش النعام:

إن تجارة ريش النعام في طرابلس كانت قديمة قدم الزمان حيث كانت توجد أعداد كبيرة تعيش في المناطق الجبلية بطرابلس والمناطق المجاورة لها إلا أن هذه

(1) Mark, F. Dyer, op. cit., P. 217.

(2) L. H. Grothe, op. cit., P. 23.

الطيور هاجرت في إتجاه إفريقيا الوسطى ولعل سبب الهجرة هو المطاردة العنيفة التي تعرضت لها مما جعل التجار الطرابلسيون يندفعون وراءها من أجل الحصول على هذا الريش الثمين وكذلك اتصلوا مع بلدان كانت منقطعة الاتصال بالعالم المتحضر ومن تلك الفترة رسمت ثلاث طرق الأولى نحو كانو والثانية نحو بورنو والثالثة نحو وداي وبقيت هذه الطرق حتى الاحتلال الإيطالي لليبيا 1911م[1].

وازدهرت تجارته في الثمانينات في القرن التاسع عشر[2] وبمجيء 1893م، قلت كمياته نتيجة لاحتلال رابح بن الزبير لتشاد وكان هذا التناقص مؤقتاً[3] ويقول عبد القادر جامي أن ريش النعام الذي يجلب من كانم وبرنو يحضر للتصدير في طرابلس[4].

وكان التجار اليهود يملكون مخازن خاصة لتجميع ريش النعام بعد وصوله من وداي لتصديره إلى أوروبا وهناك شركات في طرابلس مثل شركة يعقوب أربيب وأبناء الحاج علي بن يوسف البالان[5] وقد بلغت عائدات ريش النعام ما بين 1872 ـ 1883م ثلاثة ملايين ليرة بينما ينخفض هذا الرقم في مطلع القرن العشرين ليصل إلى مليون ونصف ليرة وفي نهاية العقد الأول من القرن العشرين وصل إلى مائة ألف ليرة عثمانية وتبلغ قيمة ريش النعام الوارد إلى طرابلس 400،000 فرنك سنوياً[6]، وهذا الهبوط راجع إلى إنشاء الإنجليز في إفريقيا الجنوبية العديد من الحظائر لتربية النعام[7].

(1) كورو، المرجع السابق، ص83.

(2) Marion Johnson, op. cit., P. P. 102-103.

(3) Ibid. P. P. 102-103.

(4) عبد القادر جامي، المرجع السابق، ص21.

(5) خليفة محمد الأحول، المرجع السابق، ص225 وما يليها.

(6) G. A. Krause, Aufzeichnunqen Ueberdie stadt Ghatin der Sahara, Zeitschriftder Gescllschaftfuer Erdk und Berlin, 17. 1881 P. 109 sq.

(7) التقرير السنوي لسنة 1891م الصادر عن القنصلية الإمبراطورية النمساوية المجرية في طرابلس.

ومنذ سبعينيات القرن التاسع عشر، أصبح ريش النعام مرغوباً في أوروبا حسب الموضة وأدى ذلك إلى ازدهار تجارته حيث وصلت إلى الذروة ما بين عامي 1878م ـ 1883م[1]، وقدر القنصل الفرنسي أن صادرات طرابلس من ريش النعام المستورد من الجنوب في عام 1880م بلغ ما قيمته 300 ألف جنيه إسترليني، في حين لم تتناقص هذه الصادرات ولم تزد بعد عام 1885م عن مائة ألف إسترليني[2] وكان متوسط التقديرات ما بين عامي 1878م ـ 1887م 146 و476 جنيهاً إسترلينياً، حسب ما أعلنه القنصل البريطاني الذي أشار إلى هبوط هذه القيمة في الفترة ما بين 1888م ـ 1896م إلى 55500 جنيهاً إسترلينياً[3].

والجدير بالذكر، أنه جرت تجارة عكسية بالنسبة لريش النعام من بريطانيا إلى طرابلس بعد عام 1907 م ووصلت ذروتها في عام 1913م بما قيمته 10000 جنيهاً إسترلينياً وكان معظمه يتم تصنيعه في طرابلس ويعاد تصديره إلى الأسواق الأوروبية ومن أهمها باريس، ولكن من 1895م إلى 1905م كانت مالطا وطرابلس يصدران ما قيمته بين 5000 ـ 10000 جنيهاً إسترلينياً سنوياً[4].

وكان معظم سلعة ريش النعام المصدر من برنو إلى الشمال يمر عبر الواحات الليبية في الجنوب وهناك تجار متخصصون يمارسون هذا النوع من التجارة ومنهم التاجر مختار حسان وهذا يرجع إلى توفر سلعة ريش النعام في برنو بأسعار رخيصة، حيث يصل سعر رطل الربدة يساوي اثنين أبو طير والأسود قيمته ستة أبو طير، في حين تبلغ قيمة الأبيض منه خمسة عشرة أبوطير[5] وكذلك إلى

(1) Marion Johnson, op. cit., P. 104.

(2) Ibid. P. 104.

(3) C. W. Newbury, North African and Western Sudan Nineteenth Century: a Reevaluation, JAFR Hist. VII, 1866, P. 239.

(4) Ibid. P. 239.

(5) أحمد صدقي الدجاني، وثائق تاريخ ليبيا الحديث والوثائق العثمانية 1881 ـ 1911م، ترجمة عبد السلام أدهم، بيروت، مطابع دار صادر 1974م، منشورات جامعة بنغازي، ص21.

تشجيع شيخ برنو الجديد أبو بكر لهذه التجارة بدرجة تضاعفت فيها الأرباح[1] وفي طرابلس كان يتم تصنيف آخر لريش النعام، حسب لونه وحسب كونه ذكراً أو أنثى ثم بعدها يوضع في طرود للتصدير للخارج[2]. وتجدر الإشارة إلى أنه كان لبيض النعام إقبال تجاري أيضاً[3].

وأوضح بانزه بأن قيمة صادرات ريش النعام بلغت في عام 1875م 2,5 مليون مارك ثم قفزت في عام 1890م إلى 5,1 مليون مارك وفي مطلع القرن العشرين وتحديداً في عامي 1905م انخفضت إلى 284000 مارك و1909م إلى 148000 مارك[4].

ج ـ العاج:

ويعد العاج من سلع العبور الهامة الوافدة من برنو في طريقها إلى مدينة طرابلس[5] بياضه لامع وأكثر مرونة لصناعة الأشياء الدقيقة[6] وقد لوحظ أن أنياب الفيلة في المناطق الأخرى من بلاد السودان الغربي أفضل بياضاً من تلك التي في برنو فضلاً عن أنها أكثر صلابة[7] وكانت واردات طرابلس من العاج الوارد إليها من ما وراء الصحراء يذهب معظمه إلى بريطانيا، حسب تقارير القنصلية البريطانية في السنوات الأخيرة من سبعينيات القرن التاسع عشر حيث

(1) أحمد صدقي الدجاني، وثائق تاريخ ليبيا الحديث والوثائق العثمانية، المرجع السابق، ص21.

(2) أنتوني جوزيف كاكيا، المرجع السابق، ص140.

(3) المرجع نفسه والصفحة.

(4) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، افالد بانزه، طرابلس مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، 216.

(5) Herman Wagner, (Ed) Schilderung Der Reisen und Entedeckungen, des, Dr. Edward, Vogel in Central Africa Leipzig, 1869, P. 101.

(6) كاكيا، المرجع السابق، ص140.

(7) المرجع نفسه، ص141.

وصلت جملة واردات العاج المصدرة عن طريق طرابلس بما قيمته 64000 ألف جنيهاً إسترلينياً في عام 1877م[1] وبعد ذلك أشارت تقارير القنصلية ذاتها إلى حدوث تناقص مستمر في ثمانينات القرن التاسع عشر إلى أقل من 3000 جنيهاً إسترلينياً. وبعدها ارتفعت القيمة إلى 3000 جنيهاً إسترلينياً في عام 1877م ولم تتجاوز منذ عام 1894م عشرة آلاف جنيه سنوياً[2]. وبالعكس لما ورد في تقارير القنصلية البريطانية المذكورة فإن ميري «Mery» القنصل العام البريطاني قد أعطى تقريراً في عام 1892م مفاده أن واردات طرابلس السنوية من العاج من بلاد السودان الأوسط والغربي تقدر قيمته بحوالي 120 ألف جنيهاً إسترلينياً[3]. ويبدو أن أرقام ميري مبالغ فيها، حيث أشارت أرقام مالطا التي كانت تتضمن صادرات وداي عن طريق بنغازي من العاج إلى تأرجح في قيمته التي بلغت 30 ألف جنيهاً إسترلينياً في عام 1894م و7500 جنيهاً إسترلينياً في عام 1896م و14750 جنيهاً إسترلينياً في عام 1897م[4].

وأشار كورو أن العاج من الأشياء المربحة ويستورد بعض منه من نيجيريا وفي الأعوام 1862 ـ 1872م بلغت قيمة تصدير العاج إلى أوروبا عن طريق طرابلس نصف مليون ليرة ومن 1872 ـ 1882م تسعمائة ألف ليرة وبعد هذه الفترة بدأ في الهبوط[5].

وذكر الرحّالة بانزه في كتابه طرابلس مطلع القرن العشرين بأن عاج الفيل انخفض تصديره من 506000 مارك في العام 1890م إلى 47000 في العام 1905م ويرجح ذلك الهبوط إلى فتح الممرات المائية الجديدة والسكك الحديدية في السودان الأوسط نحو خليج غينيا حيث سهلت هذه الممرات في وصول

(1) Marion Johnson, op. cit., P. 107.

(2) Ibid. P. 107.

(3) Ibid. P. 107.

(4) C. A. Robison, Hausaland, London, 1896, P. 133.

(5) كورو، المرجع السابق، ص89.

البضائع إلى أوروبا في بحر ثلاثة أو أربع أسابيع فقط بينما الرحلة عبر الصحراء تستغرق ما بين خمسة أو ستة شهور وهي معرضة للخطر[1].

وأوضح أن الصادرات أخذت تتناقص منذ سنوات حيث أنخفضت من 2,43 مليون مارك في عام 1875م، و2,5 مليون مارك في 1890م، و1,65 في العام 1905م، و1,15 مليون مارك في 1906م، و1,3 في العام 1907م، و1,03 في العام 1908م.

وأفاد أن طرابلس ستبقى بلداً من الدرجة الثانية أو الثالثة ولا يستغني عنها في التعامل الدولي[2].

غير أن شارل فيرو في كتابة الحوليات الليبية أكد أن تجارة القوافل عابرة الصحراء مع طرابلس بدأت تتقلص من سنة إلى أخرى بقدر ما أخذت الأبواب تنفتح لتجارة السودان مع سواحل المحيط الأطلسي ولم تعد تصدر إلى طرابلس تقريباً تلك السلع الأفريقية كالعاج وريش النعام وبدأت الدول الأوروبية في التضييق على تجارة الرق والنخاسة وصارت تعرقلها شيئاً فشيئاً مما تسبب في إنضاب معين أهم موارد طرابلس الغرب[3].

وقد انعكس هذا التدهور على صادرات أيالة طرابلس الغرب ووارداتها ويوضح الجدول التالي قيمة واردات الإيالة وصادراتها بداية من منتصف القرن التاسع عشر 1851م وحتى الثلث الأخير منه وبالتحديد حتى عام 1882م. وعليه، يكشف الجدول أدناه بعض جوانب الميزان التجاري خلال هذه الفترة المذكورة[4]:

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، طرابلس مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص216.
(2) المصدر نفسه والصفحة.
(3) شارل فيرو، الحوليات الليبية، المصدر السابق، ص525.
(4) عمر بن إسماعيل، التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا، مرجع سابق، ص252.

ر.م	السنة	قيمة الصادرات بالليرة التركية	قيمة الواردات بالليرة التركية
1	1851 ـ 1852م	948 و153	477 و145
2	1856 ـ 1857م	394 و161	660 و142
3	1860 ـ 1861م	394 و158	530 و172
4	1874 ـ 1875م	433 و130	760 و153
5	1881 ـ 1882م	970 و143	860 و120

ويبين الجدول المشار إليه أنه في الفترة 1860م: 1861م: 1874م: 1875م لم يكن الميزان التجاري لصالح إيالة طرابلس الغرب، نتيجة لتدهور قيمة صادراتها وارتفاع قيمة وارداتها. غير أن هذا العجز في الميزان التجاري طرأ عليه تحسن ملحوظ في الفترة 1881 ـ 1882م وربما كان ذلك بسبب استقرار الأوضاع السياسية في البلاد في ظل إدارة العهد العثماني الثاني[1].

وهناك عوامل سياسية هامة أدت إلى عرقلة النشاط التجاري عبر طريق طرابلس ـ برنو. ومن هذه العوامل نشاط أولاد سليمان المعادي للسلطة المركزية بطرابلس والذي تمثل في غارات سطو ونهب لقوافل التجارة الوافدة عبر الطريق المذكور[2] وبالإضافة إلى ذلك، فإن مملكة برنو قد شهدت خاصة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر اضطرابات سياسية وتدخلات أجنبية تمخض عنها وقف شبه تام لمعاملاتها التجارية شمالاً مع طرابلس، الأمر الذي أثر سلباً في تجارة العبور الصحراوية.

(1) عمر بن إسماعيل، التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا، المرجع السابق، ص253.
(2) المرجع نفسه والصفحة، انظر كذلك كاكيا، المرجع السابق، ص168،
Hzimmerer, op. cit., P.2; L. H. Grothe, op. cit., P. 21.

6 ـ التأثير الاقتصادي لتحويل تجارة الصحراء:

منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر تصاعد التكالب الاستعماري على القارة الأفريقية وسعت الشركات الأوروبية إلى التحكم في أسواق المناطق الصحراوية وما ورائها في بلاد السودان الأوسط والغربي. وقد نجحت هذه الدوائر الأوروبية في تحويل معظم منتجات الأسواق الأوروبية من خط سيرها القديم أي من عبر طرق القوافل التجارية إلى السواحل الأفريقية المطلة على المحيط الأطلسي. وفي هذا الصدد، أشار Baikio الذي زار كانو عام 1862م إلى أن أفريقيا، قد تحولت الآن إلى الساحل الغربي[1].

أما القنصل العام البريطاني في طرابلس Jago فقد كتب في عام 1863م مشيراً إلى تدهور واردات طرابلس من أوروبا خلال بضعة سنين، وذلك نتيجة للتسهيلات التي ساعدت على استخدام الممرات المائية على نهري النيجر وبنيو Benue والتي تحولت إليها البضائع الأوروبية التي كانت تنطلق من طرابلس جنوباً إلى المناطق الصحراوية[2]. غير أن الرحّالة جوزيف Joseph Thomson أكد في عام 1886م وجود تجارة أوروبية واسعة عبر طرابلس إلى ما وراء الصحراء تتمثل في الملابس والخردوات والأدوات المعدنية[3] وهنالك تقرير آخر يشير إلى أن الصادرات والواردات عبر طرابلس وصلت أعلى معدلاتها في عام 1873م واستمر هذا الانتعاش لمدة عشرة سنوات[4] لكن تنبأ القنصل البريطاني جاقو في عام 1897م أن التسهيلات التي منحت باستخدام الممرات المائية ستؤدي في النهاية إلى كساد التجارة بين طرابلس والمراكز التجارية والصحراوية والسودانية معلناً أن تجارة قوافل طرابلس سيحيق بها الفشل الذريع في المستقبل القريب بسبب تواجد الشركات البريطانية والألمانية والفرنسية في الجنوب فضلاً عن

(1) Marion Johnson, op. cit., P. 97.

(2) Ibid., P. 98.

(3) J. Thomson, op. cit., P. 595.

(4) Ibid. P. 595.

تسهيلات استخدام الممرات المائية للنيجر وبنيو[1]. ونخلص إلى القول بأن تنفيذ حظر تجارة الرقيق في عام 1887م وفتح الممرات المائية على نهر النيجر وبنيو للتجارة الأوروبية قد أدى إلى تدهور تجارة القوافل الصحراوية عبر طرابلس الغرب.

7 ـ الواحات ونشاطها في التجارة الداخلية، والصحراوية:

إن دراسة نشأة الواحات الليبية وتطور مكانتها تقضي بالضرورة إلى الوقوف أمام المكانة التي كانت تتمتع بها في النشاط التجاري إلى جانب كونها جزءاً من عملية الانتاج الزراعي، وقد برزت في بعضها سمتها كمدينة سوق ومحطة تجميع وتصريف على الطرق التجارية الرئيسية وتحديداً الطرق العابرة للصحراء ومن أبرز هذه النماذج غدامس وزويلة وجرمة وأوجلة قديماً ويضاف إليها مرزق وغات التي برزت في زمن متأخر عنها نسبياً. ونقتصر هنا على تناول المراكز الثلاثة التي استمرت محافظة على مكانتها حتى القضاء على تجارة القوافل وهي مرزق وغات وغدامس.

1 ـ مدينة مرزق:

ارتبط النشاط الاقتصادي لمدينة مرزق في القرن التاسع عشر بإنتاجها المحلي في مجال الزراعة والصناعات التقليدية، كما ارتبط أيضاً بما حققته من مكاسب وأرباح مادية ومعنوية من مشاركتها في التجارة الداخلية وتجارة العبور الخارجية وقد أتاح الموقع الجغرافي لمرزق أن تصبح مركز إلتقاء لشبكة من الطرق الداخلية التي ربطتها بغيرها من الأسواق الليبية الهامة، ونتيجة لذلك كان لها دور بارز في الوساطة التجارية الداخلية. وعبر هذه الطرق كان يتم اتصال الواحات مع بعضها البعض وكانت مرزق تمثل سوقاً رائجة للبضائع وملتقى لتجار الواحات الداخلية، حيث كان تجار طرابلس وبعض المدن الليبية الأخرى ينقلون

(1) Marion, Johnson, op. cot., P. 98.

بضائعهم إلى أسواق مرزق ويحضرون منها سلعاً مختلفة مثل التمور والحبال والألياف والنطرون[1] ويعد التمر الغذاء الرئيسي لسكان الواحات وكان تجار بنغازي يحضرون بضائعهم إلى مرزق عبر واحات جالو وينقلون ما يحتاجونه من مرزق.

أما تجار غدامس وغات فكانوا على علاقة مستمرة عبر طرق القوافل الغربية الداخلية والخارجية وكذلك أهالي سوكنة والمناطق المحيطة بها على اتصال مستمر بمرزق منذ القدم[2] وقد أوجد هذا الاتصال نوعاً من التكامل الاقتصادي بين أسواق الواحات الليبية وغيرها وكان التبادل التجاري بين هذه الأسواق يتم بيسر وسهولة وبدون عراقيل وذلك، لأن معظم تصريف البضائع وتسويقها كان يتم عن طريق المقايضة[3].

فعلى سبيل المثال لا الحصر، كان تجار طرابلس يحضرون معهم إلى مرزق ملابس وأقمشة وعطوراً يقومون بمقايضتها بمنتجات مرزق وفي مقدمتها التمر. وقد أدى هذا النوع من المعاملات التجارية إلى توفير حاجيات أهل مرزق والمناطق المحيطة بها[4] فضلاً عن تزويد سكان الواحات الأخرى بما يحتاجون إليه من سلع ضرورية وأهمها التمر والقمح والشعير والأقمشة والمنسوجات بجميع أنواعها ونتيجة لتصاعد حركة التجارة الداخلية في القرن التاسع عشر اتسع نشاط مرزق ومعاملاتها التجارية مع أسواق السواحل الليبية والواحات الداخلية وقد استفادت من موقعها باعتبارها إحدى المراكز التجارية الهامة التي نفذت إليها سلع بلاد السودان الأوسط والغربي وفي مقدمتها الرقيق، غير أن هذه التجارة

---

(1) G. Nachtigal, op. cit., Vol. I, P. 133.

(2) Habib W. El Hesnawi, Fessan Under the Rule of the Awlad Muhammad. A Study in Political Economic, Social and Intellectual History, Sebha, 1990, P. 264.

(3) أحمد إلياس حسين، سلع التجارة الصحراوية، عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، الصحراء الكبرى، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1979، ص204.

(4) G. Nachtigal, op. cit., Vol. I, P. 95 ssq.

البشعة اللاإنسانية بدأت في الاضمحلال منذ تحريمها دولياً وكانت قوافل الرقيق تنطلق من مرزق إلى أسواق المناطق الساحلية ومنها إلى الخارج وقد شارك التجار الأوروبيون في ممارسة هذا النوع من التجارة وتمويلها.

كما تحتفظ طرابلس بشكل عام مع فزان بروابط تجارية وهذه التجارة هي موردها الرئيسي إذ تستورد طرابلس من فزان سنوياً، السنا، والنطرون والشب وريش النعام بالإضافة إلى الرقيق.

وتقوم طرابلس ببيع السنا وريش النعام والشب إلى بعض التجار اليهود الذين يصدرونها إلى ليفورنو وتشتري طرابلس من هؤلاء التجار الخردوات والقماش والورق لتبيعها إلى فزان بربح يتراوح بين 200% و300%. أما النطرون الذي تستورده طرابلس من فزان فإنها تستعمله في إعداد الجلود المدبوغة وفي تركيز الصباغ وسبك الفضة وفي التبغ حيث جرت العادة بإضافة النطرون إلى التبغ لإعطائه نكهة لاذعة[1].

2 ـ غات:

كانت واحدة من الواحات التي لعبت دوراً هاماً في التجارة الصحراوية سواء مع المدن الليبية في الداخل أو مع مناطق بلاد السودان الأوسط والغربي وعند الحديث عن حركة البضائع بين المراكز التجارية الداخلية والخارجية، فإن القوافل التي كانت تسلك طرق تجارة القوافل الرئيسة وتلك الطرق الفرعية التي تربط المناطق المختلفة بمدن الأسواق الرئيسة لهذه التجارة كانت تحمل معها من الشمال البضائع التي تنتجها مدن المنطقة الساحلية في الشمال الأفريقي والبضائع الأوروبية التي تقوم البيوتات التجارية في هذه المدن وخاصة طرابلس باستيرادها وتتوجه بها جنوباً كي تسوقها في مدن الأسواق حتى تصل أسواق بلاد السودان حيث يتم استبدال ما تحمله القافلة القادمة من الشمال بالبضائع

---

(1) محمد المدني الحضيري، الطريق من طرابلس إلى فزان، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1979م، ص102.

التي تنتجها بلدان غرب أفريقيا والمناطق الواقعة جنوبها[1].

وبالتالي حركة البضائع على طرق القوافل كانت ذات علاقة بالمنتجات المتوفرة للتصريف وبالطلب في الأسواق المختلفة والربح الذي يوفره فأهالي فزان كان يحضرون معهم إلى غات بعض المواد مثل التمر والحبوب ويأخذون بمقابلها حاجياتهم الضرورية من المواد التي لا تتوفر لديهم[2]، وتتضمن البضائع القادمة من الشمال (طرابلس) الأقمشة القطنية المناشف، الحرير، الألبسة الجاهزة، اللؤلؤ والمرجان والسلع الحديدية والسيوف والإبر والورق والسكر والحلويات والروائح المركزة والبهارات وهي جميعاً سلع واردة من الخارج ولكنها ترسل إلى غات عن طريق طرابلس[3].

3 ـ غدامس:

تؤكد بعض الوثائق أن العلاقات بين حكومة الولاية في عهد يوسف باشا وغدامس تمثلت في فرض المزيد من الضرائب حيث تذكر إحدى الوثائق أن الباشا فرض قيمة 5000 مثقال ذهباً مما دفعهم لبيع الماء الجاري بعين الفرس «عين بلد غدامس»[4] ومن المعلوم أنه بدأ العهد العثماني الجديد بعد القضاء على حكم الأسرة القره مانلية بمحاولات القضاء على الثورات التي تزعمها عبد الجليل سيف النصر وغومة المحمودي. ثم كانت له مساعي وجهود لبسط السيادة العثمانية الجديدة في كل أنحاء البلاد ونتج عنه قبول أهالي غدامس دعوة الوالي محمد أمين باشا بإرسال وفد لمقابلته في طرابلس وتم له ما أراد واعترفت غدامس بالحكم الجديد وأرسل الوالي مع الوفد العامل الجديد إلا أن حادثة مقتل العامل

(1) سلفاتور بونو، تجارة طرابلس عبر الصحراء في العقد الأول من القرن العشرين، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1981م، ص83 وما بعدها.

(2) G. A. Kraus, op. cit., P. 111.

(3) Ibid. P. 110.

(4) نور الدين مصطفى الثني، عين الفرس بغدامس معلم حضاري مميز، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1996م، ص64.

عقدت الأمور مما أدى إلى إعداد حملة بقيادة أحمد باشا وتنصيب عثمان آغا عاملاً جديداً فأوجعت هذه الأحداث غدامس وأفلستها اضطر بعدها الأهالي إلى إرسال وفد برئاسة الحاج محمد الثني إلى طرابلس لمقابلة الوالي ويبدو أن مهمته كللت بالنجاح وتم عزل عثمان آغا[1].

فطرابلس وغدامس كانت تربطهما علاقات شتى غير الوطن والدين واللغة منهما التجارة. لقد بلغت الحركة التجارية بين طرابلس والسودان أوج مجدها خلال العقد المحصور بين سنتي 1872 ـ 1881م وأن أهم طريقين من طرق القوافل ظلا يتخذان من ميناء طرابلس منفذاً لهما هما.

- طريق طرابلس كانو عن طريق غدامس وغات والأير.
- طريق طرابلس كوكا (برنو) عن طريق مرزق وتجرهي وبيلما.

وبذلك يكون مجموع ساعات الرحلة من طرابلس إلى غدامس حوالي مائة وأربعين ساعة وهذا يعني مسيرة بين ثلاثة عشر يوماً إلى خمسة عشر يوماً مع مراعاة أن يضاف إلى ذلك أيام الراحة[2].

ومن خلال الوثائق التي توضح التواصل ما بين طرابلس وغدامس وثيقة توضح محاسبة من محمد بن الحاج عبد الله بن الحاج الصالح بن هارون لوالده تاريخها 11 من جمادي الثاني 1298/ 10 مايو 1881م تحتوي على ما باعه بعد سفره من غدامس إلى طرابلس عام 1294هـ/ 1877م وكذلك أسعار هذه البضائع[3].

(1) حبيب وداعة الحسناوي، ظروف وأبعاد امتداد الإدارة العثمانية الجديدة لغدامس سنة 1842م كما ترويها رسالة غدامسية، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1980، ص31.

(2) سلفاتور بونو، مرجع سابق، ص110.

(3) نقلاً عن نور الدين مصطفى الثني، «لمحات عن تاريخ العلاقات التجارية بين طرابلس وغدامس»، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1999م، ص112.

كما يوجد لسوكنة صلات تجارية مع طرابلس وهذا يعود إلى أهمية موقع سوكنة الجغرافي الذي يمثل نقطة وصل توسطت بين الساحل شمالاً والصحراء جنوباً في ولاية طرابلس الغرب، مما جعلها مركز تبادل تجاري نشط يربط بين مدينة طرابلس مركز الولاية مقر القائمقامية فمقارنة بغدامس الواقعة على خط عرض 29 شمالاً وهو نفس الخط الذي تقع عليه واحة سوكنة. حيث ربطت الأولى بين طرابلس وأقاليم وسط وغرب السودان. كذلك سوكنة ربطت هي الأخرى بين طرابلس عبر مرزق إلى بعض تلك النواحي والأقاليم بالسودان[1].

8 ـ الزراعة وتربية الحيوان:

يعتبر اقتصاد طرابلس الأساسي اقتصاداً رعوياً وزراعياً وتسود حرفة الرعي جميع أرجاء الإقليم الشرقي بالإضافة إلى مناطق كبيرة من سهل الجفارة ومن جبل ترهونة في الإقليم الغربي وتتركز الزراعة حول المدن الساحلية وفي السهول الداخلية وهضاب الجبل الغربي والجبل الأخضر في إقليمي طرابلس الغرب وبرقة وهذا المظهر أساساً مرتبط بالعوامل الطبيعية[2] ويعتبر النشاط الزراعي في طرابلس مورداً إنتاجياً مهماً يتصدر قمة اقتصادها وذلك لاتساع مساحة البلاد وامتداد الساحل الليبي من الشرق إلى الغرب مسافة 1900 ك م ووفرة أمطاره في معظم السنوات[3].

لم يتم القيام بأي مسح عام أو معاينة شاملة للأراضي في أي جزء من الولاية ولهذا فإنه من الصعب تقدير حجم الأراضي الصالحة للزراعة، وتزرع الحبوب في كافة أنحاء الولاية تقريباً وترتفع الكمية أيضاً بسهولة في كل من مناطق غريان والجفارة ومصراتة وبالتالي فإن 50% من الأراضي تبدر بالحبوب

---

(1) المختار عثمان العفيف، «نماذج من الصلات التجارية بين سوكنة وطرابلس خلال العهد العثماني الثاني 1835 ـ 1911م»، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1999م، ص123.

(2) كولا فولايان، المرجع السابق، ص86.

(3) أنتوني كاكيا، المرجع السابق، ص99.

في السنوات الجيدة عندما تكون أمطار الشتاء وفيرة ومناسبة بالنسبة لنظام الدورات الزراعية فلا يوجد نظام معين معمول به وهذا راجع إلى المساحة غير المحدودة للأراضي الواقعة تحت تصرف المزارعين في سهول ترهونة وورفلة وأراضي مصراتة التي لا تحرث ولا تزرع أحياناً لمدة تتراوح ما بين 3، 5 سنوات وباستثناء المساحة الواسعة من التربة الخصبة التي تغطي الأراضي والتي تتطلب فقط الأيدي العاملة والمياه لتصبح أراض منتجة فإن من المساحات الهائلة من الأراضي الصالحة للزراعة والتي يسكنها اسمياً الفلاحون من أجل زراعة الحبوب سوف تظل أراض بور سبب قلة السكان ونقص المياه والدليل على أن التربة التي تغطي الأراضي لم تفقد خصوبتها الطبيعية الأولى وأنه في السنوات الأخيرة تم[1] استصلاح أجزاء كبيرة منها بالقرب من مراكز تجمع السكان حيث تتوفر نسبياً العمالة ورأس المال وخاصة في تلك المقاطعات التي لا تخضع لأي نوع من الضرائب المستحقة على تلك العمليات البسيطة التي تجري لحرث وبدر الحبوب في السنوات التي تتوفر فيها مياه الأمطار بشكل طبيعي ويتحقق فيها نمو محصول جيد من الحبوب.

هناك أسباب أخرى غير نقص الأيدي العاملة والمياه أثرت على توسع زراعة الحبوب بشكل عام وتتمثل في عدم تشجيع المزارعين ومساعدتهم حيث يجد الفلاح نفسه باستمرار وجهاً لوجه أمام محصل الضرائب وبهذا نجد الفلاح يقوم ببدر الحبوب التي تكفي حاجته هو فقط للعام المقبل والتي تتوقف على عدد أفراد أسرته ومقدار ما يمتلك من مواشي وأغنام وجمال، ويلاحظ أن المزارع ليس لديه أي استعداد أو حافز لزيادة طاقته الإنتاجية[2].

ويذكر الحشائشي في كتابه جلاء الكرب عن طرابلس الغرب بأن الزراعة في

---

(1) نادية كاجيجي، تقرير عن أحوال الزراعة والبستنة والموارد الطبيعية الأخرى لولاية طرابلس بشمال أفريقيا، مجلة الشهيد، طرابلس، العددين السابع والثامن، 1988م، ص328 وما بعدها.

(2) المرجع نفسه، ص329.

طرابلس تنقسم إلى قسمين القسم الأول أصحاب البساتين الكبيرة والأراضي المجاورة إلى البلاد ويعني أحواز طرابلس وأصحاب الآبار والمياه وهؤلاء يتقنون الفلاحة ويخدمون الأرض جيداً وأما العرب والمناطق البعيدة عن البلد وهم القسم الثاني فليسوا بأصحاب حزم ولا يخدمون الفلاحة على أصلها مع أن أراضيهم جيدة في غاية الخصب ولكن يميلون إلى المتاجرة[1].

أما عبد القادر جامي فيرى بفضل المياه الجوفية المتوفرة وطبقاتها الواسعة تمتد البساتين والمزارع التي تنمو فيها كل أنواع الأشجار المثمرة والخضر فيؤكد أن جميع الأشجار التي تنمو في حوض البحر الأبيض المتوسط موجودة فيها فالبرتقال والليمون والتين والخوخ والمشمش والرمان والكمثرى وأشجار الزيتون كما يذكر طريقة استخراج الماء حيث ترى الأبقار وهي تخرج المياه بواسطة دلاء مصنوعة من جلد الحيوان من آبار يتراوح عمقها ما بين 4 إلى 14 متراً[2].

ويرى رولفس أن طرابلس غنية في عالم النبات ويمكن أن تنافس الأجزاء الأخرى من الشاطئ الشمالي لأفريقيا إذا ما تم الاهتمام بالأرض على الوجه الأفضل وحدد جميع الأشجار المثمرة والفواكه والخضراوات بالرغم من اتباع العرب الطرق البدائية في الزراعة وأشار إلى دور المواصلات ولو كانت منتظمة لأمكن إمداد السوق الأوروبية بالخضار من طرابلس[3].

غير أن بانزة في كتابه طرابلس مطلع القرن العشرين يذكر أن كل قطعة أرض في الواحة تتكون من ثلاثة أقسام زراعية أي حقل زراعي بستان، ففي القطعة الأخفض تقوم الزراعة الحقلية وأن نباتاتها تقوم على الماء إذ أن جذورها ليست عميقة بما فيه الكفاية وحدد قائمة شملت الحبوب بجميع أنواعها والخضراوات والفواكه.

---

(1) الحشائشي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، المرجع السابق، ص69.

(2) عبد القادر جامي، المرجع السابق، ص22 وما بعدها.

(3) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص66 وما بعدها.

وذكر أشجار التين التي لا يخلو منها أي بستان وحدد جميع أنواع الأشجار المثمرة في طرابلس ابتداء بالبرتقال وانتهاءً بالتوت ولم ينس ذكر النخلة التي وصفها بالرشاقة في شكلها وفي الصيف يبدأ نضج التمر وتبدو عراجينه متدلية[1].

وأشار بانزة إلى التراجع العددي لأشجار الزيتون في ظل الإدارة العثمانية لأن الفلاحين كانوا يتفادون بذلك عبء الضرائب التي تجبيها الإدارة عن كل شجرة مما دفع الأهالي إلى قطعها ليصنعوا منها فحماً الأمر الذي كان يقدم لهم دخلاً جيداً[2].

وفي وصفه للري الاصطناعي في طرابلس يذكر: «في كل حقل بئر كبير (السانية) وتتدرج جدران السانية والدعامتان الجانبيتان المطليتان في الأصل باللون الأبيض بالارتفاع لتشكل درجات وعادة ما تشيد في ظل شجرة أثل أو تين وتوضع بين الذراعين الخشبيين الواصلين بين الدعامتين بكرة واحدة أو بكرتان ونادراً ما تكون ثلاث بكرات خشبية يدور حولها عدد مقابل من الحبال الطويلة وفي نهاية الحبل تعلق قربة جلدية واسعة (الدلو) قطرها حوالي متر مع استطالة على شكل أنبوب يبلغ طوله متراً واحداً ويرتبط بالحبل الآخر حيوان هو في الغالب ثور يسير على مستوى مائل نحو حفرة طويلة ويسحب بذلك القربة الجلدية من البئر وتظل القربة تزداد ارتفاعاً إلى أن تصب محتواها على جذع شجرة عرضاني ويفرغ الماء في بركة خلف البئر وإذا ما رجع الحيوان من الحفرة فإن القربة تنزل إلى عمق البئر وتمتلئ من جديد ومن البركة يسيل الماء إلى الحقول التي تقسم بحاجز ترابي ارتفاعه حوالي 20سم ويدعى تقيف إلى مربعات طول ضلع كل منهما حوالي المترين ويتدفق الماء من مربع إلى الآخر أو يترك في واحد

---

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، افالد بانزة، طرابلس مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص183، 189 وما بعدها.

(2) المصدر نفسه، ص188.

منهما حسب الحاجة وبعدئذ يفتح الحاجز بفأس حديدية أو تسد به ثغرة في الحاجز الترابي[1].

أما طريقة حرث الأرض تتلخص في الآتي: يستخدم محراث صغير على شكل مثلث به قطعة حديدية طولها ما بين 3 إلى 4 بوصات[2] وعرضها بوصتان وسمكها حوالي ستة خطوط سمك[3] وينثني ضلعا المثلث على بعضهما قليلاً بشكل يجعل قطعة الحديد تكسو خشب المحراث، وتقرن الدابة بواسطة الحبال ويكتفي عند الحرث بشق خط عمقه بوصتان أو ثلاثة ويجر المحراث جمل أو حصان أو بقرة أو ثور أو حمار على السواء ولكن العمل يتم بشكل أفضل بواسطة جمل أو حصان[4].

وفي وصف آخر للمحراث المصنوع من الخشب والذي يتركب طرفه الأمامي من الحديد كما يبلغ طوله من حوالي 15 إلى 18 بوصة وعرضه حوالي 4 بوصات ويشق التربة بعمق $3\frac{1}{2}$ بوصة كما أنه يجر بحيوان واحد بقرة أو جمل أو حمار أو حصان ووزنه حوالي 11 إلى 22 رطل وفقاً لقوة الحيوان وحالة التربة[5].

وفي موضع آخر نقف على وصف المحراث التقليدي: إن المحراث الذي يستعمله العرب هنا يتكون من قطعة من الحديد على شكل لسان طولها 10سم معلقة بقطعة من الخشب طولها 50 سم وهذه أيضاً مربوطة عمودياً بقطعة أخرى من الخشب طولها 80سم والأخيرة تربط فيها قطعة صغيرة أفقياً كالمقبض ويربط بها حبلان يتدليان من عنق الحيوان الذي يجر المحراث (جمل أو ثور أو بقرة)،

---

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، افالد بانزه، طرابلس مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص181 وما بعدها.

(2) البوصة: مقياس قديم للطول يساوي 27 مليمتراً.

(3) خط السمك: مقياس قديم للسمك يساوي 2,25 مليمتراً.

(4) أ. تستا، عرض إحصائي عن ولاية طرابلس الغرب (ليبيا)، ترجمة حامد علي وحيدة، مجلة الشهيد، طرابلس، ـ 9 ـ 1988م، ص248.

(5) نادية كاجيجي، المرجع السابق، ص334 وما بعدها.

وفي أثناء الحرث يقوم الفلاح بالضغط على هذه القطعة ليغوص المحراث في الأرض كي يقلب تربتها. وهذا المحراث خفيف الوزن يجر بجمل أو حصان أو بغل خلال عملية شق الأرض وبهذا الشكل تحرث الأرض حرثاً سطحياً[1].

وفي مطلع القرن العشرين يصف بانزه المحراث بأنه ذو استعمال زائد فهو يتكون من هيكل خشبي بسيط يربط أمامه الثور بينما يضع الفلاح يداً على الصمد ولا يفعل شيئاً سوى الموازنة والضغط بحيث تنزل السكة في الأرض ومن الواضح إن السكة لا تنزل في الأرض أكثر من 10سم وأن هذه الأداة لا يمكن أن تستعمل إلا في أرض رملية مخلخلة[2].

وطريقة درس الحبوب هي جمعه على هيئة حزم صغيرة وينقل ليتم درسه على أرض صخرية حيث لا توجد مخابط درس الحبوب المعدة لهذا الغرض ويستعاض عنها بالخيول أو الثيران التي تقوم بدعس الحبوب بقوائمها بشدة وتجر ببطء مربعاً كبيراً وثقلاً من الخشب مثبت عليه بالطرف الأسفل صوانات حادة من الحجر وبالتالي تنفصل حبة القمح عن القشرة ويترك على الأرض إلى حين هبوب الرياح لتعمل على تطاير القشور في أماكن متباعدة وتبقى الحبوب التي تختلط غالباً ببعض حبات الرمل والزلط إلا أنها على هذه الحالة تعتبر جاهزة للتسويق[3].

ويحدد بانزه طريقة درس الحبوب بقوله: «الطريقة التي تستعمل في درس الحبوب بعد نضجها لهذا الغرض يسوق المرء بعض الحيوانات خيول على سبيل المثال بحيث تسير جيئة وذهاباً فوق الحبوب المطروحة على الأرض إلى أن

---

(1) لامين جولاشان، مخطوط خواطر وآراء حول الزراعة، ترجمة وتقديم د. عبد الكريم أبو شويرب، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1981م، ص259.

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، أفالد بانزه، طرابلس مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص185.

(3) نادية كاجيجي، المرجع السابق، ص335 وما بعدها.

تصبح السنابل فارغة ويجهد الفلاح أن يمنع الحيوانات من أكل الحبوب المدروسة بأن يضربها على فمها بقضيب مدبب[1].

وبعد درس الحبوب يأتي التخزين حيث تحفر خزانات الحبوب العميقة والتي تبعد ثلاثين ياردة من بعضها حيث تملى بالقمح أو الشعير وتبقى في حالة جيدة مدة طويلة[2]، ويوضع المحصول في حفرة تسمى عقله وهي تسمية لحفرة واسعة أو نفق «مطمور» يودع فيه القمح والشعير وأحياناً التمور من مختلف الملاك وأصحاب المحاصيل مقابل أجرة وبإغلاق المدخل بإحكام تحفظ الأشياء المودعة لمدة سنتين أو ثلاثة وأكثر[3].

ويمتلك تجار المدينة الأغنياء أو الإقطاعيون أقساماً كبيرة فيستثمرون أراضيهم بالحصة وتتولى أسر الفلاحين ذلك ولعل أكثر من نصف سكان الواحة إجراء على هذا الوجه[4].

وفي السنوات العادية يحصل الشخص الذي يتم تأجيره ليقود حيواناً ما ويحرث سكة على حوالي 15 إلى 20 فرنكاً فضة نقداً مع تموينه طوال المدة التي يستمر فيها العمل وهي ما بين 20 إلى 30 يوماً ويعود في موسم الحصاد ويعهد له بدابة وخيمة وتوفر له مؤونته لينطلق إلى الحصاد وربع المنتوج من الحصاد يكون مخصص له[5].

وبما أن الولاية تمتلك عدداً كبيراً من أشجار الزيتون وهذا يحتم عليها

---

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، أفالد بانزه، طرابلس مطلع القرن العشرين، المصدر السابق، ص185.

(2) الأخوان بيتشي والساحل الليبي 1821 ـ 1822م، ت. الهادي أبو لقمة، ص32 وما بعدها.

(3) أ. تستا، المرجع السابق، ص249.

(4) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، أفالد بانزه، طرابلس مطلع القرن العشرين، المصدر السابق، ص191.

(5) أ. تستا، المرجع السابق، ص249.

توفير المعاصر أي ما يعرف بالقرقابة. وعادة ما تمتلك كل مجموعة بيوت في الواحة معصرة توضع عادة على ملتقى عدد من الطرق الهامة وتتكون المعصرة من جدار مدور يتراوح قطره بين 2، 2,5م وارتفاعه أكثر من نصف متر ويدخل فوق عامود حديد في الوسط نوع من الذراع تشده خرزة مدورة ويربط أمام الذراع حيوان أو إنسان ويدورها باستمرار حول محورها، بحيث تقوم الخرزة بعصر الزيتون الذي ألقي في وسط السطح المدور ويتراجع نحو الطرف ثم يجمع الزيت الكثيف جداً والمخلوط بشحم الزيتون ويملأ في عدة قرب توضع فوق بعضها وتحتها برميل يصفى الزيت فيه[1]. ومن جهة أخرى نجد أن معاصر الزيت البدائية القديمة ما زالت تستخدم إلى الآن ولم تجر بعد أي محاولة لتقديم واستخدام الآلات والطرق الأوروبية الحديثة، وبالتالي نتج عن ذلك أن احتفظ الزيتون بعد العصر بكمية معينة من الزيت الأقل جودة[2] واستعمال المعاصر الموجودة يؤدي إلى ضياع قسم كبير من زيت الزيتون خلال عملية العصر ومن تم خسارة في الثروة الزراعية[3].

نبات الحلفاء:

من ضمن النباتات البرية التي تنمو في ليبيا بشكل طبيعي دونما تدخل من الإنسان في زراعته وكان ينمو بكميات وفيرة في مناطق الغطاء النباتي الموازية للشريط الساحلي ويغطى مساحات شاسعة في كل من مناطق طرابلس وبرقة وقد تمركز نمو هذا النبات بشكل خاص في مناطق مسلاتة وترهونة وورفلة والجبل الغربي وغريان وورشفانة[4] وفي كل المناطق الممتدة من الساحل وحتى المناطق الجبلية في جنوب منطقة طرابلس وسهل بنغازي وبعض مناطق برقة الأخرى.

---

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، أفالد بانزه، طرابلس مطلع القرن العشرين، المصدر السابق، ص186 وما يليها.

(2) نادية كاجيجي، المرجع السابق، ص343.

(3) لامين جولاشان، المرجع السابق، ص259.

(4) محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، المرجع السابق، ص35.

وعلى الرغم من أن نبات الحلفاء كان يعتمد على مياه الأمطار فإنه يقاوم الجفاف ويحافظ على نموه بأقل كمية من الرطوبة وبذلك فإنه كان يستمر في النمو حتى في سنوات الجفاف. وينبت نبات الحلفاء في الأرض ذات الطبيعة الرملية والحجرية والجيرية ويتأقلم مع الظروف الجوية ودرجات الحرارة على مدار السنة[1].

ونبات الحلفاء من النباتات الطبيعية ذات الفصيلة النخلية التي تنمو بكثرة في مناطق ليبيا الشمالية. وهذا النبات هو من النباتات العشبية الكثيفة الدائمة الإخضرار يشبه نبات الديس وينمو ببطء شديد ويعيش لسنوات طويلة ويتألف من أوراق أو سيقان خيطية الشكل مدببة الرؤوس وتتسع بعض الشيء عند القاعدة إلى حوالي المليمترين ويتراوح طول الورقة أو الساق ما بين أربعين إلى ستين سنتيمتراً تقريباً وفي بعض الأحيان يصل إلى حوالي المتر في بعض المناطق وتلتف حول نفسها على هيئة قصبة[2].

وقد وصف محمود ناجي نبات الحلفاء بقوله: «إن النبات المسمى (الحلفاء) يأتي في الدرجة الثانية من حاصلات البلاد، وهو نبات بري من الفصيلة النخلية يعرف قديماً بـ Sporlimiyemu يوجد في الجزائر وتونس وطرابلس وحتى في المناطق الجنوبية من إسبانيا واليونان وقد بلغ طول أوراقها الخيطية الشكل قرابة المتر الواحد وعرضها لا يتجاوز المليمتر والنصف والخاصية الوحيدة لها أنها تقاوم أي درجة من الحرارة تتعرض لها ويسهل في كل وقت وزمان له ينبت ببطء ولا يعطي محصولاً قبل مضي اثنتي عشرة سنة ولم تكن له عند القدماء أهمية تذكر وكان لا يستعمل عادة إلا في صنع الحبال والقفاف»[3].

ومن واقع الأمر لم تتوفر لدينا معلومات عن نبات الحلفاء وقيمته

---

(1) محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، المرجع السابق، ص35.
(2) المرجع نفسه والصفحة.
(3) المرجع نفسه والصفحة.

الاقتصادية للفترة السابقة لستينيات القرن التاسع عشر، حيث أن بعض المصادر المتوفرة تشير إلى أن سنة 1862م كانت أول سنة يصدّر فيها نبات الحلفاء إلى إنجلترا وبعض المصادر الأخرى تذكر بأن تجارة الحلفاء مع الخارج وخاصة مع بريطانيا بدأت في 1868م.

وبالتالي فإن أغلب المصادر تؤكد على أن تجارة الحلفاء ازدهرت ازدهاراً كبيراً خلال الفترة ما بين 1868 ـ 1896م[1] وظهرت أهمية نبات الحلفاء كمورد اقتصادي في غاية الأهمية في البلاد خلال العقود الأربعة الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ويشير أحمد النائب إلى ازدهار تجارة الحلفاء في فترة السبعينيات فيقول: «ازدهرت تجارة الحلفاء في فترة ولاية المشير علي رضا باشا (1870 ـ 1876) وعم نفعها فاهتم (الوالي) بوضع المراسي في المواقع المقتضية تسهيلاً لتناول تجارتها وجعل لها أسواقاً ووضع عليها الضرائب»[2].

ويؤكد محمود ناجي هو الآخر على جهود الوالي علي رضا باشا في فترة ولايته الثانية (1872 ـ 1874) تجاه تجارة الحلفاء فيقول: «إنه (أي: الوالي) بأفكاره وخدماته المبذولة في سبيل ترقية التجارة المحلية فتح مجالاً لتسويق الحلفاء وأفاد بذلك الأهالي والخزينة من هذا المورد وأن المتاجر التي اقتسمت من أجل الحلفاء هي من منشأته القيمة»[3].

ويذكر مصطفى محمد الشركسي في بحثه بعنوان بعض مظاهر تجارة طرابلس الغرب أن نبات الحلفاء يأتي في المرتبة الأولى في نطاق مجموع الصادرات الطرابلسية خلال الفترة (1883 ـ 1897) وبالرغم من ذلك فإن صادرات هذا النبات انخفضت من 5,3 مليون فرنك عام 1883م إلى 2,7 فرنك

---

(1) كورو، المرجع السابق، ص85.
(2) أحمد النائب الأنصاري، المصدر السابق، ص382.
(3) محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، المرجع السابق، ص179.

عام 1893م وبلغ المعدل السنوي لصادرات الحلفاء خلال الفترة (1899 ـ 1902) حوالي 2,2 مليون فرنك وهبطت الصادرات إلى 1,9 مليون فرنك عام 1911 وأخذت هذه الصادرات في الهبوط المستمر حتى تم توقفها نهائياً ويرجع هبوط قيمة صادرات الحلفاء عند نهاية القرن التاسع عشر بسبب المنافسة التونسية والسويسرية وبعد اكتشاف صناعة الورق من المواد الخشبية وكانت الحلفاء الطرابلسية تصدر بأكملها إلى بريطانيا لصناعة الورق[1].

وفي مرجع آخر يعتبر عام 1868 بداية تصدير الحلفاء إلى بريطانيا حيث بلغت قيمة الصادرات بين عامي 1888 ـ 1897م حوالي 46,019 طن بقيمة 128,32 جنيه وفي سنة 1899م بلغت الصادرات 45,931 طن بقيمة 96,400 جنيه ويرجع السبب في انخفاض قيمتها بالسوق الإنجليزية إلى انتشار استخدام لب الخشب في صناعة الورق كان العائد حوالي 12 جنيه للطن الواحد في إنجلترا بينما في 1899م انخفض إلى 3 جنيه[2].

ويؤكد رولفس أن تجارة الحلفاء أخذت أبعاداً كبيرة بحيث تأتي أسبوعياً عدة بواخر وترسو في طرابلس وإن وصول هذه البواخر يعتبر حادثة غير عادية.

ويقوم أبناء الريف بنقل الحلفاء على شكل حمولة جمل إلى طرابلس حيث يستلمها وكلاء البيوتات الإنجليزية غالباً وتخزن حمولة مائة جمل أو أكثر في فناء الفندق وتخضع لعملية تنقية كاملة وتؤخذ عندئذ فقط النبات الخضراء ذات الطول المناسب وأما اليابسة منها أو المتشابكة والمتضررة وذات الجذور فإنها تستأصل وبعد ذلك توضع الحلفاء تحت المكبس وتحزم بأشرطة حديدية ثم تشحن مثل بالات القطن. ويلاحظ أن الحلفاء ليست خاضعة للتأثيرات المناخية وعلاوة على

(1) مصطفى محمد الشركسي، بعض ملامح تجارة طرابلس الغرب مع الخارج خلال العهد العثماني الثاني، المرجع السابق، ص262.

(2) نادية كاجيجي، المرجع السابق، ص350.

ذلك فإنها لا تتعرض لخطر الجراد ووضع رولفس جدولاً يوضح تزايد تجارة الحلفاء خلال السنوات التالية[1]:

السنة	الصادرات بالكيلوغرام	القيمة بالفرنك
1870	1,022200ك غ	40000 فرنك
1871	3,630000ك غ	295000 فرنك
1872	11,318000ك غ	1,221135 فرنك
1873	19,822500ك غ	1,558230 فرنك
1875	33,590025ك غ	2,372680 فرنك

وإن الفارق بين 40000 فرنك في العام 1870م و2,372680 في العام 1875م يظهر واضحاً على الفور للعيان.

غير أن بانزة قد أوضح أن هذه التجارة في مطلع القرن العشرين قد أصابها الكساد حيث أن القوافل كانت تحمل بضائع بقيمة 12,15 مليون مارك باتجاه الصحراء فانخفضت البضائع المرسلة إلى 1,4 مليون مارك في عام 1906م[2].

وجاء رولفس محدداً أصنافاً من الحيوانات والطيور التي تعيش في طرابلس الغرب. فالجياد في الغالب هي من الحجم المتوسط وتتحمل كثيراً وسريعة في جريها وهي مناسبة للركوب.

غير أن الحمير الطرابلسية ليست كبيرة إلا أنها شهيرة، أما البقر فهو صغير الحجم وقليل الحليب لكنه متوفر بكثرة ويمكن التصدير منه وجميع الأغنام جيدة

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة إلى الكفرة، المصدر السابق، ص221، 249، 254.

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، أفالد بانزه، طرابلس مطلع القرن العشرين، المصدر السابق، ص216، 217.

ولها صوف ممتاز. والماعز صغير الحجم وقليل الحليب وعلاوة على ذلك يسوق الصوف في الأسواق الأوروبية وينتشر الجمل في جميع أرجاء الولاية وهو ذو سنام واحد ويحتمل أنه أتى من الجزيرة العربية.

وحدد بعض الحيوانات والطيور الأخرى هي تلك الموجودة أيضاً في أوروبا[1].

وذكر أن حياة البدو تقوم في الأساس على تربية المواشي بالرغم من أن دائرة حركتهم محدودة فلا تستطيع كل قبيلة أن تتوجه بقطعانها حيثما تشاء ومنذ القديم تعارفوا فيما بينهم على حدود معينة لا يتجاوزها ولكن ذلك يقوم على اتفاق وعرف وغالباً ما تقع نزاعات بدورها تتطور إلى حرب بين القبائل[2].

وأفاد بانزه في مطلع القرن العشرين بأن تربية الحيوان في طرابلس الغرب تشكل العمود الفقري لاقتصاد البلاد إذ أنه يساوي وسطياً ما يزيد عن ثلث الصادرات توزع على منتجاتها: جلود وصوف وبيض وسمن غنم مثلاً في عام 1905م بلغت النسبة 37% من الصادرات وفي عام 1908م بلغت 33%.

وبالتالي فإن الغنم والماعز حيوانات ذات قيمة خاصة في البلاد[3] ويلاحظ أن أرقام صادرات الحيوانات كانت تتغير بصورة ملحوظة حسب كميات الأمطار التي تحدد أحوال المراعي. ففي عام 1891م بلغت قيمة صادرات الحيوانات حوالي مليون فرنك مقابل 600 ألف فرنك في عام 1890م[4] وبالرغم من أن صادرات الحيوانات الحية احتلت المرتبة الثالثة في نطاق صادرات المنتوجات

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص67.

(2) المصدر نفسه، ص70.

(3) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، افالد بانزة، طرابلس مطلع القرن العشرين، المصدر السابق، ص214.

(4) محمد مصطفى الشركسي، بعض ملامح تجارة طرابلس الغرب مع الخارج خلال العهد العثماني الثاني، المرجع السابق، ص263.

المحلية بلغت القيمة المصدرة في عام 1899م حوالي 361 ألف فرنك في عام 1900م لترتفع إلى 713 ألف فرنك عام 1902م وثلث صادرات الحيوانات الحية كانت ترسل إلى إنجلترا والباقي إلى تونس وإيطاليا ويبلغ سعر الكبش الواحد 12 فرنك أما الماعز ذو الوزن ما بين 13 أو 20 ك فيتراوح بين 12 و18 فرنك، أما سعر الحصان الواحد فيتراوح بين 20 و80 فرنكاً[1] وبلغ عدد المواشي المصدرة عام 1850م حوالي 11783 رأس بقيمة 40800 ليرة بمقدار 34 ليرة للرأس الواحد وحسب ما جاء في تقرير قنصل إيطاليا في طرابلس عام 1861م بلغ عدد الأبقار التي تم تصديرها جميعاً إلى مالطا 260000 رأس بمقدار 26000000 ليرة أي بمبلغ مائة ليرة للرأس[2].

(1) محمد مصطفى الشركسي، بعض ملامح تجارة طرابلس الغرب مع الخارج خلال العهد العثماني الثاني، المرجع السابق، ص264.

(2) نقلاً عن مصطفى محمد الشركسي، تقرير قنصل إيطاليا لعام 1901م، محفوظات السرايا الحمراء، طرابلس، ص264، انظر كذلك، نادية كاجيجي، المرجع السابق، ص348.

الفصل الخامس

البنية الثقافية والاجتماعية في طرابلس الغرب ومظاهرها

يتناول هذا الفصل التركيبة الاجتماعية والبنية الثقافية في طرابلس الغرب خلال القرن التاسع عشر وحتى العقد الأول من القرن العشرين وذلك على النحو التالي:

1 ـ المؤسسات التعليمية أنواعها ومراحلها

إن الاهتمام بالخدمات التعليمية لم يدخل في دائرة اهتمام الدولة ولم يكن من ضمن وظائف الدولة في العهد العثماني حتى العقد السادس من القرن التاسع عشر وهذا راجع إلى أن الدولة اعتبرت الخدمات التعليمية من الأشياء الخارجة عن مهامها، وبالتالي تركت هذا الموضوع يقع في دائرة اهتمام الأفراد والجماعات والهيئات وإذا اعتبرنا أن هذا من ضمن سلبيات وظيفة الدولة فلا ننسى إيجابياته بالنسبة للمجتمع العربي الليبي بشكل خاص والمجتمع العربي بشكل عام لأنه حافظ على شخصية المجتمع حيث احتفظت بلغتها وبثقافتها المحلية وتقاليدها وعاداتها وغير ذلك من حضارتها العريقة ولم تتأثر هذه المجتمعات بالثقافة التركية ولم تقبل حتى على تعلم اللغة التركية إلا القليل من أبناء الوطن[1].

والجدير بالذكر أن التعليم في طرابلس الغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد مر بمرحلتين الأولى مرحلة التعليم الأهلي والثانية التعليم الحكومي وحتى يزداد الموضوع وضوحاً سنتناول كل واحد على حدة.

---

(1) محمد بشير سويسي، أوضاع التعليم في ليبيا (1835 ـ 1950م)، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1999م، ص75.

أ ـ التعليم الأهلي:

في أواخر العهد العثماني أصبح هذا النوع من التعليم يمثل ظاهرة واسعة حتى أنه لا يوجد حي أو مركز سكني إلا وبه معلّم حيث يجلس هذا الفقيه وطلابه فوق حصير ويمسك بعصا طويلة يحافظ بها على النظام ويقوم هؤلاء الطلبة بكتابة بعض الآيات القرآنية على الألواح ويُسمى هذا النوع من المدارس التقليدية الكُتاب[1].

والكُتّاب هذا هو أول درجة في السلم التعليمي الديني، والكُتّاب: هو عبارة عن حجرة واحدة متسعة نوعاً ما يوجد على جدرانها أرفف لوضع المصاحف وأجزاء من القرآن الكريم عليها، أما الشيخ فيأخذ مكانه في نقطة مرتفعة تمكنه من مراقبة تلاميذه الجالسين ممسكاً يده بعصا تمكنه من ملاحقة المقصرين في واجبات القراءة والكتابة أو غير المنضبطين واللاهين بأشياء خارجة عن الدرس ويجلس الشيخ على الأرض تحته حصير واضعاً فوقها جلد غنم تسمى «بطانة» ولها تسميات عديدة في المناطق الأخرى وخاصة الريفية حيث يكثر استعمالها في معظم ليبيا اتقاء من البرد في فصل الشتاء القارص ويجلس الشيخ بالقرب من المدخل في الكُتاب، ليراقب كل طالب وماذا يعمل. وكانت العقوبة المعتادة في الكتاتيب هي (الفلقة) أي: الضرب على القدمين لكل من يتهاون أو يتكاسل في العملية التعليمية ويتسلسل التعليم في الكُتّاب من الأسفل إلى الأعلى من سورة الناس إلى سورة البقرة أما عن نظام الدراسة فإن الدوام اليومي يبدأ من الصباح حتى الظهر يتخلله وقت للراحة لتناول وجبة الغداء ثم يعودون للدراسة حتى أذان العصر وتستمر الدراسة طيلة أيام الأسبوع ما عدا يوم الخميس تكون الدراسة إلى الظهر وتعطل الدراسة في الأعياد والمناسبات الدينية والجمعة عطلة أسبوعية[2].

---

(1) كورو، المرجع السابق، ص117. انظر كذلك أ. ج. شيل جريج، تاريخ التعليم في إقليم طرابلس منذ الاحتلال العثماني حتى السنة الخامسة للإدارة العسكرية البريطانية للإقليم، ت. أحمد العاقل، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2005، ص13.

(2) محمد بشير سويسي، مرجع سابق، ص80 وما بعدها.

وهذا النوع من التعليم يرتب التزاماً ذاتياً يفرضه الدين على المسلم الذي يسعى بكل طاقته جاهداً لتأمينه في منطقته لأبنه وأبناء أقاربه وجيرانه حتى يوفر لهم فرصة قراءة القرآن وعلومه، ويتم تمويل الكُتّاب من ميزانية الأوقاف وهي مؤسسة أهلية دينية خيرية يتبرع لها الأثرياء بمبالغ نقدية أو يوقفون لها مباني أو أشجار أو أراضي. فمثلاً كُتّاب جامع الدروج أوقفت عليه عشرون (20) محلاً تجارياً تكفي إيراداته للكُتّاب وشيخه وطلابه[1]، وإلى جانب الكُتّاب يوجد المكتب وهو مؤسسة تعليمية أهلية أخرى. وكذلك الزاوية المنتشرة في المدن وعلى طول الطرق التجارية الصحراوية وفي القرى والمدن وحتى الزاوية كان الطلبة يقيمون إقامة دائمة لفترات طويلة حتى انتهاء تعليمهم.

وإضافة إلى الكُتّاب والمكتب والزاوية كانت توجد المدارس الدينية الملحقة بالمساجد مثل مدرسة عثمان باشا ومدرسة أحمد باشا ومدرسة ميزران ومدرسة قرجي ومدرسة الكاتب[2].

ويذكر أن مرتبات الشيوخ والفقهاء تكون من المنح والهدايا التي يقدمها الطلبة في كل خميس وتسمى (الخميسية) وتتشكل من العطايا العينية من قمح وشعير وبيض، أما النقود فكانت تمنح في الأعياد والمناسبات الدينية من قبل الأسر الميسورة الحال[3] كذلك كانت تتحول الخيمة إلى مدرسة دينية في المناطق البدوية وحتى الفضاء الرحب يمكن أن يتحلق فيه الطلبة حول المدرس لتلقي الدروس ويتقاضى المدرس راتبه نقداً أو عينياً من أولياء أمور الطلبة أو من الطلبة أنفسهم عن طريق أداء بعض الأعمال للشيخ؛ أي: المدرس.

ويلاحظ أن بعض الأسر قد امتهنت مهنة التدريس لأبناء القبائل غير

---

(1) محمد الكوني، التعليم في مدينة طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني سنة 1835 ـ 1911 وأثره على مجتمع الولاية، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2000، ص42 وما بعدها.

(2) المرجع نفسه، ص47 وما بعدها.

(3) محمد بشير سويسي، مرجع سابق، ص81.

المستقرين والذين يتركون قراهم لمدد متفاوتة وهذا يحتم على هؤلاء المدرسين أن يلاحقوا أبناء القبائل في مناطقهم ويعطوا لهم الدروس مقابل أعداد معينة من الحيوانات أو السمن أو الأصواف أو الشعير أو الطعام أو النقود.

وبالتالي نرى أن التعليم الديني الأهلي كان موجوداً في أغلب أنحاء البلاد وهذا ما أشار إليه فرنشيسكو كورو إلا أنه يعاب عليه عدم مواكبة متطلبات العصر مما أدى إلى نوع من الجمود والركود الفكري وعدم الاتصال بالثقافات الأخرى بالرغم من أنه كان الغذاء الروحي لشريحة كبيرة من أفراد الشعب الليبي وكان الأكثر انتشاراً في البلاد.

كما أخرج هذا النوع من التعليم الديني الشعب الليبي من مشكلة الجهل وأوجد وحدة ثقافية لم تستطع التأثيرات الخارجية التركية أو الإيطالية أو غيرها التأثير فيها أو اختراقها مما جسد تمسكاً بالواقع والوطن برز واضحاً في الحرب الليبية الإيطالية[1].

الأوقاف : يعتبر نظام الوقف من النظم الاجتماعية القديمة التي لا زالت باقية حتى الآن وإن كانت أغراضه متعددة، والوقف على المساجد ودور العبادة هو من أبرزها ولعله أقدمها على الإطلاق.

وديننا الإسلامي أقر الوقف على المساجد وغيرها من دور العبادة باعتبار المساجد بيوت الله ويذكر فيها اسمه، باعتبار أن الوقف أريد به وجه الله وإعلاء كلمته ورفع لواء الإسلام.

ولذلك فقد اكتسبت الأوقاف حرمة عظيمة ومنزلة كبيرة جعلت المسلمين يدافعون عنها ضد كل معتد ويحرصون عليها حرصهم على أموالهم الخاصة أو أكثر ويبذلون الجهد لتنميتها واستثمارها ويستعمل الوقف في أغراض كثيرة منها :

---

(1) محمد الطاهر الجراري، التعليم في ليبيا قبل وبعد سنة 1911م، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 2001، ص15 وما بعدها.

العناية بالعلم والعلماء والطلبة والفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل والعناية بالمساجد والمدارس والزوايا والأضرحة والكتاتيب ومعيشة العلماء والطلبة[1].

المساجد : واصلت المساجد رسالتها التي أنشئت من أجلها وهي ظاهرة بارزة في المجتمع العربي الليبي المسلم وبهذا لا تجد قرية أو حياً إلا وفيه مسجد ويعتبر المسجد ملتقى للمصلين ومكان للأنشطة العلمية والاجتماعية ويمثل المسجد قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة ويعتبر المسجد حلقة الوصل ما بين أهل القرية والمدينة لأنهم جميعاً يشتركون في بنائه بالرغم من أن بناء المساجد كان عملاً فردياً في المقام الأول فالغني وصاحب المال الكثير هو الذي يتولى القيام بعملية البناء وبالتالي فإن الدولة غير ملزمة ببناء المساجد وحتى إن تم ذلك من أحد الولاة فإنه يبنيه من ماله الخاص.

وقد لعبت المساجد دوراً هاماً تمثل في تخريج العلماء الذين لعبوا دوراً هاماً في التصدي للاستعمار ومنهم من أدى رسالته في وظيفة القضاء والفتاوى وكان المسجد مكاناً لحل الخلافات والخصومات بين الناس وأماكن لعقود الزواج .. إلخ [2].

ب ـ التعليم الحكومي :

بعد أن سيطر الفرنسيون على تونس والجزائر وجه العثمانيون اهتماماً لولاية طرابلس الغرب وربطوها مباشرة بالعاصمة لإعطائها اهتماماً خاصاً مع بداية الإصلاحات في الدولة العثمانية ويرى فرنشيسكو كورو «إن التعليم العام سجل تقدماً ملحوظاً خلال الأعوام الاثنى عشرة الأخيرة من العهد العثماني الثاني»[3]، وكما ذكرنا سلفاً وبعد أن أصبحت تونس والجزائر في يد الفرنسيين، بات واضحاً أن طرابلس الغرب ستكون الفريسة الأخرى للاستعمار الأوروبي. وبالتالي فإن

---

(1) محمد بشير سويسي، المرجع السابق، ص77 وما يليها.

(2) المرجع نفسه، ص82 وما بعدها.

(3) كورو، المرجع السابق، ص119.

الإصلاحات العثمانية الشاملة وتحت ضغط الأهالي والمسؤولين بالولاية، تركزت على الجوانب العسكرية والحضارية، وبهذا جرى تبنى سياسة تعليمية جديدة للولاية الوحيدة الباقية في شمال أفريقيا. وهكذا برز لأول مرة نظام التعليم الرسمي أو ما يعرف بالتعليم النظامي.

ففي عام 1878م صدر قانون عن الحكومة العثمانية أقر التعليم الإلزامي[1]، وفي سنة 1898م بدأت الولاية في رصد مبالغ للتعليم إلا أنها قليلة وتحمل الأهالي العبء الأكبر من مصاريف التعليم فجمعوا التبرعات كما في غريان التي تبرع أهلها بمبلغ 101194 قرشاً عثمانياً لبناء مدرسة إعدادية للبنات في مدينتهم، وكذلك أهالي ساحل الأحامد بالخمس جمعوا 36566 قرشاً عثمانياً لبناء مدرسة ابتدائية بمنطقتهم[2]، وبعزيمة الأهالي وإرادة الحكومة تأسست العديد من المدارس الابتدائية خلال العقد الأول من القرن العشرين وبلغ عددها 27 مدرسة ابتدائية[3].

وقد اهتمت جريدة طرابلس الغرب وهي جريدة الولاية الرسمية بأخبار افتتاح المدارس وهي تحرض الأهالي على فتح المدارس من أموالهم ترقية للمعارف التي هي روح الدولة والملة[4]، وهذا يمثل الشعور الوطني الأصيل. وورد في كتاب تطور التعليم في ليبيا شروط العمل والدراسة بالمدارس الابتدائية صادرة عن نظارة المعارف بمقر السلطنة على أن تطبق في جميع ولايات الدولة العثمانية[5].

أما المدارس الرشدية وتأتي بعد المرحلة الابتدائية. وقد بدأ في تأسيسها

(1) الكوني، المرجع السابق، ص63.

(2) تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص351.

(3) المرجع نفسه، ص332. حيث يورد قائمة بأسماء المدارس وتاريخ تأسيسها وعدد تلاميذها في العام المدرسي 1919 ـ 1910.

(4) جريدة طرابلس الغرب، العدد 1337، السنة 40، سبتمبر، 1910م.

(5) رأفت غنيمي الشيخ، تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة، ط1، 1972م، دار التنمية للنشر والتوزيع، ص133 وما بعدها.

سنة 1857م وفتحت أول مدرسة بطرابلس والأخرى ببنغازي[1] وشرعت في قبول الطلبة البارزين في مرحلة التعليم الابتدائي والذين تتراوح أعمارهم بين 8 ـ 12 عاماً وقد اتسع نطاق المدارس الرشدية وقسمت إلى رشدية عسكرية لتهيئة الطلبة للمدارس العسكرية العليا وأخرى رشدية مدنية للأعمال الإدارية ومع سنة 1870م كان في ليبيا خمس مدارس رشدية موزعة على طرابلس والخمس وبنغازي ودرنة ومرزق ثم زاد عددها خصوصاً بعد سنة 1900م وفي عام 1898م أقيمت أول مدرسة رشدية للبنات بطرابلس ثم تلتها مدرسة رشدية للبنات في بنغازي.

أما المدارس الإعدادية، وهي تعادل الثانوية الحالية، فقد أنشئت أول مدرسة إعدادية بطرابلس سنة 1867م ومدة الدراسة بها أربع سنوات ورفعت إلى خمس سنوات سنة 1909م ومنهج الدراسة بها يقوم على التوسع في المواد المقررة بالمدارس الرشدية، يضاف إليها مواد اللغة الفارسية علاوة على العربية والتركية التي كان يتم التدريس بها على الأغلب.

إلى جانب هذا النظام التعليمي التدريجي وجدت العديد من المدارس التخصصية العليا والعادية كالمدرسة الرشدية العسكرية ومدرسة دار المعلمين التي افتتحت سنة 1901م ومدرسة العرفان وهي شبه خاصة للميسورين افتتحت سنة 1909م، ومدرسة الفنون والصنائع سنة 1898م[2].

أما عن المواد التي كانت تدرس في المدارس الرشدية للسنة الدراسية 1868 ـ 1869م فهي على النحو التالي رياضيات وعلوم ومواد اجتماعية وكذلك اللغة الفارسية إضافة إلى اللغتين التركية والعربية[3].

(1) تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص336.

(2) المرجع نفسه، ص340 ـ 343.

(3) محمد بشير سويسي، المرجع السابق، ص91 وما بعدها.

2 ـ دور رجال الطرق الصوفية والمنارات العلمية في الحياة الثقافية:

منذ عام 22هـ/ 643م دخلت الفتوحات العربية الإسلامية إلى طرابلس الغرب وبذلك شكل الدين الإسلامي في طرابلس القاعدة الأساسية لكل أمر يتعلق بحياة الناس واتصالهم مع بعضهم البعض أو مع الدولة، فكانت عباداتهم وعلاقاتهم اليومية وحل مشاكلهم واختلافاتهم تسير وفق المذهب المالكي الذي انتشر في الأراضي الليبية مع بدايات القرن الثالث الهجري على يد العالم الطرابلسي مولداً ونشأة علي بن زياد، الذي ارتحل إلى المدينة المنورة وأخذ عن مالك بن أنس (93هـ/ 197م) المؤسس للمذهب المالكي ومن ثم رجع إلى طرابلس وسار في طريق نشر المالكية ومن بعد ارتحل إلى القيروان حيث امتهن مهنة التدريس في مسجدها الكبير وكان من بين تلاميذه العالم والقاضي سحنون الذي حاز على مكانة علمية واجتماعية وسياسية كبيرة في القيروان مكنته من نشر المذهب المالكي في شمال أفريقيا[1] وإلى جانب المذهب المالكي في ليبيا عرف المذهب الأباضي الذي كان منتشراً في نطاق ضيق في جزء من مناطق الجبل الغربي وزوارة[2]. وأكد رولفس في رحلته من طرابلس إلى الإسكندرية أن المسلمين في عموم طرابلس الغرب هم من المذهب المالكي وكما يبدو فإنه الأسهل للشعوب البدوية فقد كفل مالك للذين يصلون على طريقته بعض المزايا فمثلاً لا يحتاج المصلي فك مداسه أثناء السفر إلا أن الأحذية يجب أن تخلع ولما كان في ذلك عناء وهدر للوقت فإن الصحراويين مدينون له بالشكر وإن اتباع المذاهب الأربعة يمكنهم أن يصلوا في نفس الجامع دون أن يثير ذلك انفراداً أو انقطاعاً في الصلاة فمثلاً الاختلاف الوحيد أثناء الصلاة بين الحنفيين والمالكيين أن الأولين يعقدون اليدين بينما الآخرون يسبلون بعد التكبير وقد يحدث أن يصلي الإمام على الطريقة الحنفية بينما يؤدي المصلون صلاتهم على الطريقة المالكية

(1) الطاهر الزاوي، أعلام ليبيا، طرابلس: مكتبة الفرجاني، 1961م، ص207.

(2) الطاهر الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، القاهرة: دار المعارف (د. ت.)، ص106.

والعكس والخمس وحدهم أي الذين لا يتبعون المذاهب السنية الأربعة لا يسمح لهم بالصلاة في أي جامع[1] وفي رحلته إلى الكفرة قال: أثناء وجودنا في طرابلس وصلت إلى المدينة مجموعة من المبشرين الفرنسيين من مذهب الروم الكاثوليك الذين أحاطوا دعوتهم بالكتمان والحيطة وكانوا مكلفين بتأسيس محطة للروم الكاثوليك في غدامس وبعد ذلك ينوون التوجه إلى كانو لنشر مذهبهم هناك ومن المؤكد أنهم لن يحققوا أية نجاحات دينية في صفوف مسلمي ويهود الشمال وسيكون نجاحهم أقل في صفوف الأحباش وأن إرسالية الروم الكاثوليك في طرابلس لم تستطع أن تجعل واحداً من المسلمين يرتد عن دينه وأن الإسلام والكنيسة يتعاملان مع بعضهما مثل النار والماء[2].

أما عن الطرق الصوفية في ليبيا فإن هذه الحركة شهدت اتساعاً ونفوذاً في ربوع البلاد إبان العهد العثماني حتى أصبح لكل قرية تقريباً شيخها ووليها الصوفي تقدم له القرابين وتخصه بالزيارات وإقامة الحفلات الدينية عند ضريحه وهذا في الواقع يعود إلى أسباب، أولاً وجود حالات الفقر والتخلف مما خلق مناخاً مناسباً لمثل هذه الحركات الدينية لتنتشر وتتسع وبالتالي فإن المواطن العربي الليبي قد وجد في الحركات الصوفية الملاذ ليغرق في همومه ومشاكله فاستغل ناشروا الطرق الصوفية هذا الوضع البائس فأكثروا من التحدث عن الفقراء والمحرومين مؤكدين في توجيهاتهم وأذكارهم وأورادهم على أن الفقر والجهل والظلم نعمة، فالعبد المقهور في دنياه ستكون الجنة مأواه لا محالة، وأن الشيخ الولي هو الدليل والمرشد لكل تائه ليأخذ بيده ويوصله إلى أبواب النعيم الأخروي حتى تيقن كثير من الناس أن كل من ليس له شيخ، يرتبط به ويأخذ أوامره وتوجيهاته ويحظى ببركاته فإنه خاسر في الدنيا والآخرة والسبب الثاني أن الحكام العثمانيين وجدوا في الصوفية وسيلة لبسط سيطرتهم وإضعاف المقاومة الشعبية

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية، مصدر سابق، ص71 وما بعدها.

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، رحلة إلى الكفرة، مصدر سابق، ص235 وما بعدها.

ضد حكمهم خصوصاً بعد ابتعاد الصوفية عن الأسس المثالية وابتعادها عن الأسس العقائدية والفكرية والفلسفية الأولية التي انطلق منها بناة هذه الحركة[1].

والعامل الثالث الذي ساعد على انتشار الطرق الصوفية هو أن الحكّام الأتراك أنفسهم لم يكن مستواهم الثقافي أعلى من المستوى الذي كان عليه الناس في ليبيا وكانوا يهابون شيوخ الصوفية المعروفين بأولياء الله ويخافون من غضبهم عليهم وفي أغلب الأحيان يلجأون إلى الشيوخ والمرابطين في ساعات ضعفهم ليأخذوا منهم البركة ويسألونهم قراءة ما يخبئ لهم القدر في المستقبل وأن يدعوا لهم ليوفقهم الله ويكشف عنهم الضر، إذا عملوا على تقريب وتعظيم أولئك الشيوخ الذين ازدادوا حظوة ومكانة في المجتمع، وكثر عددهم وتنوعت طرقهم وزواياهم، كما استغل عموم الشعب المغلوب على أمره خوف الحاكم من الشيوخ، فجعلوهم ملاذهم وملجأهم هرباً من بطش الحكام وملاحقة جنودهم القساة[2].

ونتناول الطرق الصوفية في ليبيا على النحو التالي:

1 ـ **الطريقة القادرية**: مؤسسها الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني المولود في بغداد سنة 470هـ والمتوفى سنة 561هـ وكان واعظاً صوفياً ألّف عدة كتب وأحزاب سماها الصلوات الصغرى والوسطى والكبرى ومنذ القرن الثاني عشر أسس عدة زوايا بالشمال الأفريقي من بينهم الزاوية القادرية بطرابلس بزنقة الفنيدقة بالمدينة القديمة غير أن أتباع هذه الطريقة كانوا محدودي العدد نسبياً[3]. وهذه الطريقة تحض أتباعها على نبذ الدنيا والرجوع إلى الله.

---

(1) تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص67.

(2) ريتشارد توللي، المصدر السابق، ص71. انظر كذلك خليفة التليسي، حكاية مدينة، مرجع سابق، ص110.

(3) موسوعة للآثار الإسلامية في ليبيا، إعداد مجموعة من الباحثين، ج1، طرابلس، مصلحة الآثار، 1980م، ص147.

2 ـ **الطريقة الشاذلية**: تنسب إلى الشيخ أبو الحسن نور الدين عبد الله الشاذلي نسبة إلى بلدة شاذلة قرب مدينة تونس وأصله من غمارة بالريف المغربي وعندما استقر به الحال في مصر كثر أتباعه فيها وهي مستمدة من الجيلانية ويقول محمد ظافر المدني: «إنك إن ذكرت سيدي عبد القادر الجيلاني ذكرت سيدي أبو الحسن الشاذلي وإذا ذكرت الشاذلي ذكرت الكيلاني وتدعو الشاذلية إلى الزهد والإنصراف عن الدنيا والإيمان المطلق بالقدرية، ويقول الشاذلي في هذا الخصوص: «إن خصلة واحدة تحبط الأعمال ولا ينتهي إليها أكبر الناس وهي سخط العبد على قضاء الله تعالى..»[1]. وقد عرفت هذه الطريقة في ليبيا بعدة طرق تفرعت عنها عرفت بالشيوخ الذين دعوا إليها ومنها العروسية.

3 ـ **الزروقية**: تنسب إلى الشيخ أحمد أبو العباس أحمد بن عيسى البرنسي الفاسي المشهور بالزروق، ولد بفاس بالمغرب سنة 846هـ واشتغل بجانب تلقيه العلم بمهنة الخرازة وعند بلوغه سن السادسة عشر من عمره ترك مهنته وانضم إلى جامع القرويين وانقطع لتلقي العلم كما شارك في دروس بعض المشائخ بفاس ودرس أمهات الكتب الفقهية على المذهب المالكي والأصول وقواعد اللغة العربية واتصل بالطريقة الشاذلية عن طريق شيوخها بفاس وسافر إلى الجزائر وتلمسان وظهر في المناسبات العلمية كمحدث وصاحب طريقة الأمر الذي أثار حسد زملائه عليه فاتهموه باليهودية وروجوا عنه الاشتغال بالسياسة في غير صالح الحكم القائم غير أنه عاد إلى فاس ونجح في إزاحة ما ألصق به من تهم وفي عام 873هـ قام بأداء فريضة الحج وأقام بالقاهرة حيث درس على شيوخها الفقه وكتب الصوفية ولاحظ أن الفقه والتصوف موضوعان مترابطان وأصبح من الجامعين بين الشريعة والطريقة كالغزالي وتتلمذ على يد الشيخ أحمد الحضرمي وبعد غياب دام

---

(1) تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص83 وما بعدها.

سبع سنوات رجع إلى فاس إلا أن الفاسين نجحوا في مقاطعته اجتماعياً مما أجبره على ترك بلده ودخل الأراضي الليبية وأقام في مدينة مصراتة حيث رحب به أهلها وبالتالي استقر رأيه على الإقامة فيها وجعلها قاعدة لنشر طريقته الصوفية، وأقاموا له زاوية بعد وفاته في مصراتة حيث قضى نحبه سنة 899هـ عن عمر يناهز الرابعة والخمسين سنة، وضريحه الآن في زاويته بمصراتة وقد انتشرت طريقته بعد وفاته في ليبيا وخلف الشيخ الزروق عدداً من المؤلفات الفقهية والصوفية والأذكار والشعر والرحلات منها الأصول البديعة والجوامع الرفيعة، أصول الطريق، أصول الطريقة وأسس الحقيقة إلخ [1].

4 ـ **الطريقة السُلامية**: أسست في زليطن بليبيا على يد الشيخ عبد السلام بن سليم الأسمر الفيتوري، المولود في زليطن عام 880هـ والمتوفى عام 981هـ ودفن بنفس المكان وقبره داخل زاويته وتتلمذ على يد الشيخ عبد الواحد الدوكالي من منطقة مسلاتة، وحفظ القرآن وهو صغير وعن طريق الشيخ الدوكالي اتصل بالطريقة العروسية وهي تعتبر فرع من الشاذلية ومؤسسها الشيخ أحمد بن عروس. وقام الشيخ عبد السلام الأسمر بزيارة لتونس وأقام بمدينة طرابلس وبدأ يدعو لطريقته التي عرفت بالسُلامية.

ولكن علماء طرابلس وشيوخها ثاروا عليه ودسوا عليه عند الوالي الذي أجبره على الرحيل عن طرابلس فسكن بكاف في جبل غريان معتكفاً، فلاحقه مشائخ طرابلس وحرضوا عليه مشائخ غريان وسكانها فهرب إلى قلعة سوف الجين ببني وليد وأصبح له أعوان وأقام بها سبع سنوات وجرت له مضايقات بذات المكان فتركه وانتقل إلى سبخة تاورغاء قرب مصراتة واستقبله أهلها بالترحاب الحار وطلبوا منه الإقامة في مدينة مصراتة ومكث فيها فترة من الزمن ثم عاد إلى مسقط رأسه في زليطن وأقام فيها زاويته واستمر في نشر

(1) تيسير بن موسى، مرجع سابق، ص85.

طريقته الصوفية ويذكر أنه كان على درجة من العلم والفقه وله مؤلفات كثيرة في علوم الدين المختلفة والأذكار والأوراد والأشعار ويروي أن أغلب هذه المؤلفات قد فقدت بعد وفاته نتيجة لغارة قام بها العربان. ومهما يكن فقد لاقت الطريقة السُلامية من الانتشار في معظم أرجاء ليبيا ما لم تنله الطرق الأخرى فأصبحت لها زوايا عديدة وكثر المريدون والاتباع لها[1].

5 ـ **الطريقة المدنية**: مؤسس هذه الطريقة محمد حسن ظافر المدني (1194هـ ـ 1263هـ)، المولود بالمدينة المنورة، وقد تتلمذ على يد الشيخ العربي الدرقاوي الذي أعطاه العلم والطريقة ثم رجع إلى المدينة مندوباً عن شيخه داعياً لطريقته الصوفية هناك وأصبح له مريدون وتلاميذ ثم ترك المغرب واتجه شرقاً فطاب له المقام في مدينة طرابلس فأقام فيها فترة من الزمن باثاً دعوته بين طلبة العلم واختلف مع شيوخها وعلمائها الذين كادوا له المكائد عند يوسف باشا حاكم طرابلس في ذلك الوقت ونقلوا عنه قوله: " إن يوسف باشا بعد الآن لا يفلح، فإن شجرته انقلعت من عروقها وفي الشمس طرحت»[2]. فغادر طرابلس متجهاً إلى مصراتة حيث استقر فيها وأسَّس طريقته التي عرفت بالمدنية ولهذه الطريقة شهرة في ليبيا خاصة في مصراتة وبنغازي[3]. ومما يؤخذ على هذه الطريقة أنها اتخذت الطابع الفردي في نشاطها وارتبطت بسياسة الدولة واقتصرت على مجالات محددة داخل المدن. واستدعي ابن مؤسسها ظافر المدني إلى بلاط السلطان عبد الحميد كغيره من العلماء في العالم الإسلامي حيث ألف هناك كتابه المعروف (النور الساطع) الذي شرح فيه أصول الطريقة ونظم القصائد الصوفية وكتب عن الفكرة الإسلامية التي تبناها السلطان نفسه. وتمتع أخوه حمزة المدني بنفس المكانة وأرسل في مهام دبلوماسية إلى أواسط أفريقيا. ثم كانت له نشاطات

(1) تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص86 وما بعدها.

(2) أحمد النائب الأنصاري، المصدر السابق، ص355.

(3) المصدر نفسه، ص353.

سياسية سرية ضمن حركة سراج المشهورة التي انتهت بنفيه إلى استنبول[1].

6 ـ **الطريقة العيساوية**: وتنسب إلى مؤسسها محمد بن عيسى المكناسي من المغرب وقد انتقلت العيساوية إلى ليبيا في زمن غير معروف ويبدو أن أول من نشرها في نواحي ليبيا الشيخ يعقوب الخشاب[2]، ومن ثم على يد الشيخ محمد العالم بانون الفاسي، الذي قدم من المغرب في بداية القرن السادس عشر فأسس زاوية بطرابلس تعرف باسم الزاوية الكبيرة، وأما زاوية الشيخ يعقوب فتعرف باسم الزاوية الصغيرة وكلتاهما تنهجان الطريقة العيساوية[3] وقد تعرضت هذه الطريقة للنقد من قبل بعض رجال الدين والفقه، بسبب قيام بعض اتباعها بأعمال غريبة كالضرب على الصدور بالمدى وخرق الاحناك والبطن بالأسياخ، وأكل النار والمسامير والقبض على الحديد المحمى وملاعبة الأفاعي وغيرها[4].

7 ـ **الطريقة الرفاعية**: مؤسسها أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني أبو العباس وكان انتشار هذه الطريقة في ليبيا ضعيفاً ووجدت له بعض الزوايا في العهد العثماني خاصة في درنة ويقوم أتباعه بأعمال غريبة كأعمال العيساوية وقد جوبهت بإنكار العلماء والفقهاء المسلمين[5].

8 ـ **الطريقة السنوسية**: بدأت نشاطها في البلاد بتأسيس الزاوية البيضاء سنة 1843م ووجدت في البدو ميداناً مناسباً لنشاطها، ثم توغلت جنوباً في الصحراء حيث اتخذت الجغبوب مركزاً لها في سنة 1856م وبعد وفاة

(1) صلاح الدين حسن السوري، تحديث المؤسسات التعليمية والقضائية والدينية في ولاية طرابلس الغرب، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1983م، ص234.

(2) التجاني، رحلة التجاني، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، تونس، المطبعة الرسمية، 1958م، ص203.

(3) موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا، المرجع السابق، ص151.

(4) تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص89.

(5) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

مؤسسها محمد بن علي السنوسي سنة 1859م، نقل ابنه وخليفته المهدي مركز دعوته إلى أقصى الجنوب حيث استقر في واحة الكفرة. فهذه الطريقة جمعت بين النظرة العقلية العملية للدين والناحية الصوفية العاطفية وتوغلت بين البدو واستقطبتهم إليها وأدارت شؤونها الإدارية والسياسية والاقتصادية عن طريق زواياها التي انتشرت في كل مكان ودخلت في علاقات سياسية كما خاضت الحروب ضد الفرنسيين والإنجليز والإيطاليين تحت زعامة المهدي وأحمد الشريف كما هو معروف[1].

وهذا جون فرنسيس ليون في كتابه (من طرابلس إلى فزان) يعطي وصفاً لبعض الأعمال التي تقوم بها الطرق الصوفية في طرابلس الغرب فيقول: «يتمتع المرابطون ولعلهم أكثر النماذج غرابة بشهرة عريضة في كل البلدان الإسلامية ولعل أكثر ما أثار انتباهي أن الشروط الواجب توفرها في المرابط تختلف من بلد لآخر، ففي الوقت الذي يلتزم فيه المرابط في الدواخل بالتمسك بمظاهر الورع والتقوى كالإمساك عن شرب الخمر واللفظ الشائن والوفاء لزوجاته الأربع وعدم اشتهاء زوجات الآخرين نجد أن هذه الأمور لا تعتبر ضرورية في طرابلس وهناك ينقسم المرابطون إلى فئتين أولاهما فئة البلهاء ممن لا قيد على سلوكهم قولاً وفعلاً وثانيهما فئة عاقلة ممن يمارسون أعمال الشعوذة ويقدمون على مختلف الأعمال حيث يجتمع هؤلاء في المساجد بعد ظهر كل جمعة حيث يأكلون الثعابين والعقارب . . . إلخ ويتظاهرون بأنهم ملهمون ويقترفون أكثر الأفعال تطرفاً وغرابة. وفي التاسع من يناير 1819م بدأت احتفالاتهم السنوية واستمرت ثلاثة أيام بكل ما فيها من مراسم، ويفترض أنه في ذلك اليوم وربما قبل ذلك أن يكون المرابط الكبير قد ألهب حماس المشاركين.

والمخبولون مستعدون دائماً للسير في المواكب ولعله من المسلي أن تلحظ

(1) صلاح الدين السوري، تحديث المؤسسات التعليمية والثقافية والدينية في ولاية طرابلس الغرب، مرجع سابق، ص234.

في ذلك اليوم نظرات الدهشة في عيونهم أكثر من أي يوم آخر وخلال تجوال المرابطين في الشوارع يواكبهم الحراس والتابعون، ولا يجرؤ مسيحي أو يهودي على الظهور دون أن يغامر بحياته وحينما انطلقت الجموع تسير في الشوارع والدروب وبلغ هياج الجميع مداه وأن أحدهم عمل ظفره الطويل في خده والجميع يعضون ألسنتهم ويسيل الدم واللعاب على الذقون لقد كانوا جميعاً أنصاف عرايا وبين الحين والآخر تنطلق صيحات قصيرة حادة وبينما يمضون يترنحون يمنة ويسرة يرمون برؤوسهم إلى الوراء في حركات سريعة متشنجة يندفع الدم إلى رؤوسهم فتجحظ عيونهم رعباً وفزعاً.

وشعرهم الطويل الأسود الذي ينبت من قمة الرأس حيث بقية الشعر حليق ويرقصون يميناً ويساراً وكان أحدهم أكثر الجمع هياجاً ودأباً على مهاجمة الجموع وأكثرهم قدرة على الإمساك بالثعابين والعقارب كواحدة من الصفات الضرورية للمرابطين ومضى صاحبنا يقوم بالطقوس ويتمتم بالصلوات وبين الحين والآخر يبصق على يدي ويرش بفمه ماء الورد على وجهي وفي النهاية غسل فمه ويده بماء الورد وحينما أخذ يصب هذا الماء في قنينة أمرني بأن أشربه في يوم حدده حينئذ سأصبح مرابطاً أنافسه منزلة وعلو مقام.. هكذا بلغت تعليماته التي لم ألتفت إليها»[1].

إن ما قاله ليون قد ينطبق على الطريقة العيساوية قولاً وعملاً. فالطرق الصوفية التقليدية كالقادرية والعيساوية والعروسية... إلخ واصلت نشاطها في هذه الفترة، إلا أن تأثيرها في أغلب الأحوال كان مقتصراً على الأغلبية غير المتنورة التي كانت تجد متعة في مدائحها وأذكارها ودفوفها أما في غير ذلك فلم تكن لها أية نشاطات سياسية أو ثقافية.

---

(1) جون فرنسيس ليون، المصدر السابق، ص12 وما يليها.

3 ـ ظروف المجتمع الليبي الصحية وثقافته في معالجة بعض الأمراض والأوبئة:

لقد شكل الوضع الصحي في ليبيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي وما قبله صورة قاتمة محزنة بسبب ما عاناه الشعب الليبي من أذى الأمراض الفتاكة وافتقار البلاد لأدنى الشروط الصحية، سواء في نقص وندرة الأطباء والدواء، أو في عدم اهتمام المسؤولين الأتراك بالمرافق الطبية والصحية واستمر الليبيون طيلة ذلك العصر يعالجون أمراضهم عند العطارين وأدعياء الطب، وبتمائم وأحجبة الفقيه، حتى سرت في أهازيجهم وأمثالهم عبارة (الدواء في العشبة والفقيه) وكانت الأمراض تحصد سنوياً العشرات من الأطفال والكبار ولم يتحرك الأتراك نحو الاهتمام بالصحة العامة إلا في أواخر حكمهم واقتصر على بعض المدن الكبرى كطرابلس وبنغازي والخمس.. التي شهدت تأسيس عدد قليل من المستشفيات والمستوصفات، وكذلك عدداً من الإجراءات الصحية الوقائية كالتلقيح والحجر الصحي والاعتناء النسبي بالنظافة العامة للمدن الأخرى تاركين الناس فيها يداوون مرضاهم بما تعلموه من التجربة أو بما توارثوه من مئات السنين من طب وعلاج[1].

وتعرضت مدينة طرابلس في أوائل القرن التاسع عشر للعديد من الأوبئة التي عصفت بها كما عصفت ببعض مدن وموانئ البحر الأبيض المتوسط وكانت معظم هذه الأوبئة تجتاح عن طريق السفن التي ترسو بالميناء لتفريغ البضائع المختلفة وينزل معها إلى المدينة الفئران الموبوءة وأحياناً الأفراد المصابين أو الأكل الموبوء.

وبعض هذه الأوبئة كانت شديدة فتاكة حتى أرَّخَ بها الناس وسميت السنة التي ظهرت فيها عام الوباء أو عام الطاعون أو عام الجدري ... إلخ[2].

---

(1) تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص265.

(2) عبد الكريم أبو شويرب، مجلة طرابلس القديمة، 30 أبريل 1988م، ص4.

وفي كتب الرحّالة جاء وصف طرابلس كمدينة بيضاء نظيفة مبلطة الأزقة ولكن بها بعض الحارات تتدفق منها المجاري إلى الشارع وتتكدس أكوام القمامة في زوايا الأزقة وبالتالي يساعد على انتشار الأمراض ومنذ افتتاح قناة السويس 1869م أصبحت صلة مدينة طرابلس بالمدن الآسيوية أكثر وأقرب وصار انتشار أي وباء في هذه المدن لا يتعدى الأسابيع حتى يعم مدن وموانئ البحر المتوسط بما فيها طرابلس. ولدى سكان طرابلس عادة قديمة وهي اللجوء إلى السهول والأرياف بمجرد السماع باقتراب الوباء، حيث الهواء والشمس والغذاء الطبيعي ومنذ زمن بعيد كان الناس يؤمنون بأن سبب الوباء هو الأرواح الشريرة وأعمال الجن والحسد والعين والقوى غير الطبيعية وكل ذلك كان في عصور الظلام والجهل.

ثم جاءت مرحلة الاعتقاد بأن الوباء هو بلاء وابتلاء من الله ورحمة وشهادة على العباد وأنه قضاء وقدر ليس منه نجاة حتى لمن فر.

وأخيراً بالمشاهدة والخبرة والرواية اكتشف الناس أن الوباء مرض معد ينتقل من المريض إلى السليم وعرفوا أن الحصبة والجدري والطاعون يظهر من مخالطة المرضى والتعامل معهم أو لمس حاجياتهم لذا وجب التحرز والحيطة منهم[1].

وبعد سقوط الدولة القره مانلية وعودة الحكم العثماني على ولاية طرابلس الغرب، صارت البلاد في أشد حالات الفوضى والاضطرابات نتيجة الصراع السياسي والحروب الأهلية بين الحكام مما ترتب عليه سوء الأحوال الاقتصادية وكساد التجارة وقفل الأسواق وأبواب المدينة مما أدى إلى فرار الأهالي إلى المناطق الداخلية الريفية وأهملت الزراعة وانشغل الناس بالحرب، ولم يمض عامان حتى انتشر وباء الطاعون في عام 1837م[2] وكانت طريقة نقله موانئ البحر المتوسط بواسطة السفن والفئران الموبوءة بتلك الموانئ وانتشر هذا المرض

---

(1) عبد الكريم أبو شويرب، مجلة طرابلس القديمة، مرجع سابق، ص4.

(2) أتوري روسي، المرجع السابق، ص428.

مخلفاً وفيات بين السكان وهذه الآنسة توللي تصف طاعون سنة 1780م بطرابلس ذاكرة الأعراض والعلامات وطرق العلاج المحلي[1].

وفي عام 1850م ظهر وباء الكوليرا بطرابلس ومات منه العديد من الناس وظهر هذا المرض عن طريق الموانئ والبواخر وانتشر بسرعة وخاصة في المدن المكتظة بالناس وحالات تلوث المياه وأحياناً بعد عودة الحجاج من بيت الله الحرام ومن بين الوفيات التي أحدثها هذا الوباء في الجاليات الأجنبية قنصل ساردينيا وبعض موظفي قنصليتي إسبانيا وإنجلترا[2].

وأكد ذلك شارل فيرو أن هذا الوباء حل بطرابلس في شهر سبتمبر سنة 1850م واستمر لمدة ثلاثة أشهر ذهب خلالها بأرواح ثمانمائة شخص في مدينة طرابلس وحدها وهو رقم مرتفع جداً مقارنة لعدد سكانها الذي تقلص منذ الأسابيع الأولى لظهور الوباء فلم يزد عن خمسة آلاف نفس، وهذا راجع إلى هجرة عدد كبير منهم إلى مالطة وتونس بالرغم من الرخاء الاقتصادي الذي بشرت به وفرة المحاصيل الزراعية في تلك السنة[3].

يصف الرحّالة العديد من الأمراض (غير الأوبئة) والمنتشرة بين الناس ويذكرون العديد منها مع الأعراض والاسم المحلي وطرق العلاج الشعبي ومن هذه الأمراض على سبيل المثال الدرن والزهري وأمراض العيون وأمراض الأطفال وغيرها.

ومن أوائل الرحّالة فردريك هورنمان 1798م الذي أصيب بالحمى حال وصوله إلى مرزق يقول: «يعاني الناس كثيراً من الحميات والملاريا وأمراض العيون»[4].

والرحّالة جون فرنسيس ليون 1818م، وصديقه الطبيب ريتشي الذي أصيب

---

(1) ريتشارد توللي، المصدر السابق، ص197.

(2) أتوري روسي، المرجع السابق، ص436.

(3) شارل فيرو، المصدر السابق، ص471.

(4) فردريك هورنمان، المصدر السابق، ص41.

أيضاً بالحمى ومات بمرزق. يقول ليون: «إن تضخم الكبد والطحال والربو والسل هي من أهم الأمراض التي لاحظتها ثم يورد قائمة بأسماء الأمراض وطرق علاجها محلياً»[1].

وأما الرحلة التي قام بها دينهام وكلابرتون وأودني الذي ضحى بحياته نتيجة الحمى[2] وهناك بعض الملاحظات والإشارات في رحلات كل من أدوارد فوجل[3] وهنيريش بارت[4] ورحلة الحشائشي سنة 1890م[5].

ويقول الدكتور ناختيجال أن وباء الكوليرا قد حل بمرزق في منتصف القرن التاسع عشر مع التجار القادمين من طرابلس وسبّب في وفاة أعداد كبيرة من السكان، وجاء وباء الجدري عن طريق القوافل القادمة من الجنوب (قوافل الرقيق) عبر الطريق المزدحم بين مرزق وبرنو[6].

ويذكر ناختيجال أن الناس يقومون بالتطعيم ضد الجدري بطرق محلية ويقومون بوضع الطعم الذي أخذ من قشور أو بتور أحد المصابين بالجدري وتطعم للفرد[7].

وداء السل معروف هنا ومنتشر ويخافه الناس كثيراً ويتحاشون المصاب حيث يعرفون أنه من الأمراض المعدية ويعالج محلياً بواسطة كؤوس مص الدم أو الكي بالنار[8].

---

(1) جون فرنسيس ليون، المصدر السابق، ص81.

(2) Clapperton, Denham, Oudney Narrative of Travels and Discover. Ies in Northern and Central Africa, London. 1886, P. 66.

(3) Eduard Vogels Reisnach Centralafrika marz 1853. Jan. 1854. Petermann's geographische mitteilungen 2. 1855, P. 81.

(4) Heinrich, Bart Reisen und Entdeck ungen in nord und Centrala Frika. Vo. I, P. 32.

(5) الحشائشي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، مصدر سابق، ص41.

(6) Gustav Nactigal. Op. cit., P.131.

(7) Ibid. P. 131.

(8) Ibid. P. 131.

ويستطرد: إن أمراضاً مثل نزلات البرد والسعال الديكي أمراض موجودة ولكن طمستها أمراض شائعة مثل أمراض الجهاز الهضمي وروماتزم المفاصل والأمراض الجلدية وأمراض العيون شائعة من البسيطة منها إلى الخطيرة مثل سرطان المعدة وقروحها وسرطان الكبد وغيرها[1]. ويعالج السرطان بواسطة الكي بالنار ويعالج الإسهال بواسطة وصفة من التمر والزبد والكمون، البواسير من الأمراض الشائعة ويخلط أحياناً مع داء الديزنتاريا ويعالج داء البواسير بواسطة وصفة من الفلفل الأحمر والحلبة والدقيق يعجن كل ذلك مع السمن، تعالج التهابات اللوز بواسطة بتر لسان المزمار داخل الفم. أما إذا خاف المريض من المشرط فيوضع عجين من الثوم على رقبته ويورد ناختيجال أسماء كثيرة من الأمراض باسمها المحلي العربي المعروف حتى الآن ويقول عن اليرقان «بوصفير» إنه يعالج بواسطة أكل طبق من الكركم (البزار) مع البيض مقلياً بالزبدة، ويوضح أن مرض الروماتيزم المفاصل منتشراً كثيراً والوسيلة المفضلة للعلاج هي الكي بالنار على العضو المصاب وقد يؤدي إلى تشوه المفصل. وقد يصبح جسم المريض مرصفاً بدوائر عديدة نتيجة هذا الكي كما أن البعض قد يقوم بنفسه بحمي قطعة الحديد حتى تصبح حمراء ثم يضعها على المكان المؤلم بالتحديد ولعدة مرات متجاورة دون تردد[2].

ويدعى الزهري السلطانه أو المرض الكبير ويعالج بواسطة نبات يعرف باسم العشبة أو المبروكة ويتبع المريض في نفس الوقت حمية معينة دقيقة أما العلاج الآخر فهو منقوع الحليب والحنظل يشرب ساعات ومرات معينة خلال النهار[3].

ولاحظ ناختيجال كثرة الذين يشكون من البول الدموي وهذا لا شك من

---

(1) Gustav Nactigal. Op. cit., P. 133.

(2) Ibid. P.136.

(3) Ibid. P.127.

أمراض البلهارسيا ولكن لم تعرف صلة هذا المرض بالمياه والقواقع ويعالج محلياً عن طريق خلط دقيق بذر الكتان والنطرون والزيت[1].

وأمراض العيون هي التي تتمم قائمة أهم الأمراض الشائعة وتعرف محلياً باسم الرمد وتعالج بواسطة دقيق من السكر والحبة السوداء ولسان البحر. وأحياناً تعالج بواسطة الكي على «الصدغين وهناك اعتقاد راسخ لا يمكن لأحد أن يشكك فيه وهو أن الجنين يمكن أن ينام لعدة سنوات داخل رحم أمه»[2].

ويفيد أن الطب هنا بأيدي بعض العجائز وكبار السن ممن لهم خبرة في هذا المجال وهم يعرفون حدودهم ولا يتعدونها وبعضهم يأتي بالفقيه الذي يعطي المريض التمائم والأحجبة وكما في الشمال فجسم المواطن في فزان مليء بالتعاويذ والأحجبة معلقة على الأعضاء المؤلمة واعتقادهم راسخ في إزالة الألم والشفاء وصنع الخوارق وتقريب البعيد وأحجبة تمنع اختراق الرصاص من الجسم أو تمنع دخول المرض بتاتاً[3].

4 ـ الأنماط الاجتماعية السائدة في المجتمع الليبي ومظاهرها

تشكل الأسرة في المجتمع الليبي وغيره النواة الأولى للمجتمع وهي جديرة بالدرس وما يتصل بهذا الجانب في التاريخ الاجتماعي كتركيبة المجتمع الليبي وعناصره ومراسم الزواج والختان والمآتم وكذلك الاحتفالات الرسمية والدينية وغيرها.

أ ـ تركيبة المجتمع الليبي وعناصره

للأهمية الاستراتيجية لموقع ليبيا الجغرافي والظروف التاريخية التي مرت بها الأثر الواضح على تطور بنية السكان فهي أولى بلاد المغرب من الشرق

(1) Gustav Nactigal. Op. cit., P.128.

(2) Ibid. P. 138.

(3) Ibid. P.127.

وترتبط مع بلاد المغرب في وحدة جغرافية واضحة ويحدها من الشمال الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط الذي يربط بينها وبين أوروبا والمشرق وفي الجنوب الصحراء التي تربطها ببلاد السودان. ويتوفر في هذا النطاق الجغرافي تنوع البيئات الطبيعية التي تتركز في الشريط الساحلي الذي يكون المدن والقرى الريفية، أما النطاق البدوي فهو قائم على الرعي والزراعة البعلية وكذلك الجزء الصحراوي وواحاته وبالتالي ربما حقق هذا التنوع البيئي شيئاً من فرص التعاون والتكامل في الحياة الاقتصادية ويمكن أن تتخذ الفتح الإسلامي بداية طبيعية لدراسة السكان على اعتبار أن هذا الحدث أعطى للمنطقة هويتها الأخيرة[1].

واختلفت الآراء بشأن سكان هذه المنطقة الواسعة ولا شك أن العنصر الرئيسي يتشكل من العرب والأمازيغ الذين يسكنون المدن الساحلية والقرى والبلدات الجبلية والواحات الصحراوية ويضاف إليهم في المدن خاصة اليهود الذين كانوا يعملون في التجارة والسمسرة، ولما كانت طرابلس الغرب تتبع الدولة العثمانية فقد عرف المجتمع دوماً أعداداً من الموظفين والجنود العثمانيين ويجب أن يشار أيضاً إلى الجالية المالطية وبعض الأوروبيين الذين يقيمون في مدن المرافئ[2].

وربما كان من المناسب إيراد رأيين في هذا المجال من مطلع القرن العشرين يعبران إلى حد كبير عن رأيهم بالبنية السكانية وعن آراء رحالة أوروبيين سابقين[3] فيذهب عبد القادر جامي أن الأجناس الموجودة بطرابلس تعبر عن نماذج من الشعوب الأفريقية تختلط مع سكان حوض المتوسط وكذلك الأوروبيين والعثمانيين واليهود والبدو وبربر الجبل والمغاربة والفزانيين والعربان وقليل من

(1) عمار جحيدر، «أبعاد نظرية لتاريخ ليبيا الاجتماعي في العصر الحديث»، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1984م، ص32.

(2) أ. تستا، المرجع السابق، ص251.

(3) عمار جحيدر، أبعاد نظرية تاريخ ليبيا الاجتماعي في العصر الحديث، المرجع السابق، ص33.

التوارق الملثمين والزنوج الوافدين من أواسط أفريقيا من برنو وواداي، وجميع هذه الأجناس في حركة ذهاب وإياب وقدر عدد سكان طرابلس وضواحيها بحوالي 42000 ألف نسمة يشكل الأجانب منهم حوالي ثلاثة إلى أربعة آلاف وأكثر هذه الجالية هم المالطيون وهم أقرب إلى شعوب الشمال الأفريقي وتقدر كثافة السكان في المدينة وضواحيها بحوالي 15 نسمة في الكيلو متر المربع(1).

لقد أعطى الرحّالة الألماني بانزة تقديرات لعدد سكان طرابلس على مدى نصف قرن حسب ورودها في مؤلفات الرحّالة الأوروبيين. وفي العقد الأول من القرن العشرين قدر بانزة سكان طرابلس من 52000 إلى 54000 نسمة وفصل تركيبة السكان على النحو التالي ما بين 34000: 35000 ألف مسلمون و12000 ألف يهود، 3000 مالطيون و1000 إيطاليون. ويذكر أن عدد سكان القرى المجاورة لطرابلس تقدر بحوالي 15000 ألف نسمة وغالبيتهم من المزارعين وهم من العرق الليبي طوال القامة جسيمون تبرز عضلاتهم نتيجة للعمل الزراعي وهم ذوو بشرة سمراء ومعاندون ويشكلون نقيضاً لأبناء المدينة الشاحبين النحيلين وليسوا منقطعين عن الحضر ولكن في نفوسهم شيء من التعصب الديني(2).

ويقدر التعداد السكاني لمنطقة طرابلس وفزان في العقد الأول من القرن العشرين بحوالي 600,000 وكان هؤلاء السكان مقسمين إلى فئات وطبقات وقبائل: تجار، فلاحون، عبيد وتكوينات قبلية جماعية عكست غالبية السكان مزيجاً من البربر والعرب والأتراك والسود وهذا التعدد العرقي حققه الاعتقاد في الإسلام السني المالكي لغالبية السكان مع وجود أقلية تعتقد في الإسلام الأباضي الخارجي وأقلية يهودية منغلقة على ذاتها في طرابلس والجبل الغربي كذلك نجد فروقاً في الهيئة الاجتماعية بين القبائل العربية الهلالية الفاتحة والقبائل الأخرى

---

(1) عبد القادر جامي، المصدر السابق، ص21.

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، طرابلس مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص191.

الثانوية والأشراف. وبهذا كان المجتمع الليبي في القرن التاسع عشر مجتمعاً تعددياً عكس انتماءات طبقية قبلية وإقليمية.

التركيب الحضري في المدن شمل طبقة الأعيان (تجار ـ إداريين ـ وعلماء دين) والحرفيين. الدواخل عاش فيها التجار، الفلاحون، العبيد والقبائل والفلاح هو العامل الحر الذي استقر في مزرعته والتزم مع الدولة بدفع الضرائب مقابل الحماية من القبائل الأخرى. العبد هو إما خادم في منزل أو مزرعة أو راع مملوك من طرف عائلة أو قبيلة.

أما التركيبة الاجتماعية للقبائل متعددة بناء على الترحال والتحالفات مع الدولة أو القبائل الأخرى ويلاحظ في القرن التاسع عشر أن القبائل الدائمة الترحال كانت نادرة وكانت أغلب القبائل تتبع نمط معيشة الرحل في تنقلهما خلال مواسم السنة بين المراعي والأوطان والواحات ومما اتسمت به هذه القبائل أنها مارست الزراعة الموسمية ورعي الحيوانات والبعض الآخر مارس التجارة بشكل أساسي وبالتالي حدث ارتباط بين فلاحي الواحات والقبائل من ناحية التبادل الاقتصادي والتحالف الاجتماعي(1).

ب ـ المناسبات الاجتماعية

1 ـ مراسم الزواج:

إن الزواج يعتبر أمراً مهماً في حياة الفرد والأسرة حيث يساعد على ربط العائلة واللحمة والقبيلة مع بعضها البعض ويلاحظ في المجتمع الريفي تفضيل الزواج من الأقارب وهذا تأكيداً للعصبية التي تساعدهم على الوقوف صفاً واحداً وهناك سبب اقتصادي يضمن بواسطته الزوج حفظ الأملاك والأراضي في عائلة واحدة. وكان لا يتم زواج أي فتاة من غير ابن عمها إلا إذا كان لا يوجد ابن عم لها أو أنه عزف عن الزواج منها وبهذا فإن اختيار الزوجة في الريف مرتبط

---

(1) علي عبد اللطيف حميدة، المرجع السابق، ص76.

بعوامل اقتصادية واجتماعية وعصبية، أما العوامل الأخرى كالجمال والحب والإعجاب فهي هامشية ويستغل هذا الزواج في الربط بين القبائل واللحمات ويعطي هذا الزواج مكانة عالية لزيادة التآلف والترابط الاجتماعي ويتردد في الأمثلة الليبية «نسيب ولا ابن عم قريب».

وكان مهر العروس يتم تحديده من أهل الشاب الذين يقومون بالتقدم لأهل الفتاة لإتمام الخطبة ومن خلال هذا اللقاء يتم تحديد يوم الزفاف ويصطحب أهل الشاب معهم بعض الهدايا والتي تعرف بالقفية وهي قفة فيها مواد غذائية «شعير، قمح، تمر، لحم...» ويستمر الشاب في تقديم الهدايا إلى خطيبته طوال فترة الخطبة في جميع المناسبات. وفي عقد القران يقام حفل يدعى إليه أهل القرية وبحضور شيخ القبيلة وبعض الأعيان ويقوم القاضي أو من ينوب عنه بقراءة الفاتحة بعد صلاة عصر يوم الدخلة أو قبلها بأسبوع أو أكثر وتبدأ الاحتفالات وتستمر لمدة أسبوع بدءاً من يوم الاثنين والمتعارف عليه أن الدخلة يوم الخميس ويبدأ أهل العريس في تقديم الطعام لجميع أهل القرية أما بيت العروس يكون مشغولاً بإعداد الفتاة[1] وجرت العادة على توشيم الفتاة بواسطة امرأة متخصصة تدعى (الوشامة) وهو صباغ أزرق يوضع فوق الذقن وعلى اليدين ويستمر مدى الحياة وهذا الوشم استعمل كطريقة اجتماعية لإعداد الفتاة نفسياً لأخذ دورها كزوجة وربة بيت ويقوم أهل العريس بإحضار جمل محمل بالملابس والمواد الغذائية والتي تعرف بالكسوة ويقاد هذا الجمل إلى دار الفتاة وسط جمهرة من النساء والرجال وهم يغنون ويرقصون ومع بداية أسبوع العرس يأخذ هذا الشاب لقب السلطان. ومن ليالي العرس المهمة ليلة الحنة التي تقام في بيت الفتاة حيث تتولى المزينة وضع الحنة التي تترك لوناً أحمر داكن على كفي وقدمي الفتاة ويتم كل ذلك في حفل مساء يوم الإربعاء وفي مساء يوم الاثنين يغطي وجه الفتاة إلى حين ظهور نجمة الصباح وتسمى هذه الليلة ليلة النجمة وبعدها يجهز جمل لنقل

(1) تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص42 وما يليها.

العروس حيث يوضع على ظهره هودج مزداناً بالزهور ومغطى بقماش وردي شفاف ثم تصعد العروس الهودج وسط زغاريد وغناء وقبل أن تذهب العروس إلى بيت الزوجية يقوم بالدوران حول منزل الفتاة سبع مرات كتعبير لوداع الفتاة لبيت أبيها ومن ثم يرتفع بكاء الفتاة وأمها وأخواتها أسفاً على الفراق ويأخذ الجمل طريقه نحو بيت الشاب وسط حشد من النساء وهن يرقصن ويغنين مع كوكبة من الفرسان على خيولهم ومعهم بنادق يطلقون منها الأعيرة النارية تكريماً لموكب العروس وعند وصول الجمل إلى بيت الزوجية تكون النسوة في انتظاره تتقدمهم أم الشاب وأخواته وعماته وخالاته وتنزل العروس من الهودج ويذبح كبش كبير تكريماً بقدومها وترحيباً بها وقبيل منتصف الليل ينتظم موكب وبينهم العريس نحو بيت العرس وعندها يدخل الشاب ليرى عروسته ويختلي معها بعض الوقت ومن عادات المجتمع القروي لا يقابل الشاب والده لعدة أسابيع بعد الزواج حياء وخجلاً وأحياناً الفتاة تبقى سنة تتفادى رؤية والدها وتبقى عروساً لمدة أربعين يوماً ومن ثم تنضم لأسرة الزوج وتخرج للعمل مع زوجها وبقية أفراد الأسرة[1].

ويذكر جون فرنسيس ليون في كتابه من طرابلس إلى فزان أن مراسم الزواج بطرابلس كما سمعت ليس مسموحاً للرجال برؤيتها غاية في البهجة وتنتقل العروس من بيت أبيها إلى منزل زوجها في المساء تصحبها مجموعة كبيرة من النساء بعضهن يحملن المصابيح ويطلقن الزغاريد التي تجلجل وترتفع إلى عنان السماء[2].

2 ـ الختان:

والختان من الشرائع البشرية القديمة وقد زكاه وأقره الدين الإسلامي واختلفت المذاهب الإسلامية من بعد في حكمه إلا أنه ارتبط بكثير من ألوان الاحتفال وإذا كان الزواج عرس الرجل فقد جعلت التقاليد من الختان عرس

(1) تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص44 وما يليها.

(2) جون فرنسيس ليون، المصدر السابق، ص19.

الطفل وكان في ذلك تأكيد لما بينهما من ارتباط إذ يبدأ المرء في كل منهما مرحلة جديدة من عمره.

ويمكن تلخيص مظاهر هذا العرس الخاص بالطفل في النقاط التالية :

1 ـ إعداد الأطعمة والحلويات والمشروبات لمن يجتمعن من النسوة في بيت الطفل مع توزيع الأطباق على بعض الأسر مصحوبة ببعض الهدايا العطرية والملابس.

2 ـ إحضار عطرية الطهور في موكب من الموسيقى الشعبية.

3 ـ ختان الطفل أو الأطفال وإكرام الخاتن (الطهَّار) ورمي النقود للأطفال المختونين من قبل الحضور.

إن بانزة في كتابه طرابلس مطلع القرن العشرين يعطي وصفاً لما يجري في الختان باعتباره شاهد عيان فيقول: «بينما يجري الطهور لدى اليهود في اليوم السابع من عمر الولد فإن هذا التحديد الهام متباين لدى المسلمين إن الأولاد الصغار يكبرون في رعاية النساء ثم عادة ما ينخرطون ما بين سن السابعة والتاسعة في جماعة من أفراد المجتمع ممن لهم اعتبار ويقوم الأب بذبح خروف بالمناسبة وتخبز الأم عدداً كبيراً من أرغفة الخبز وتقدم الشاي والقهوة بينما يقلب الكسكسي والمحمصة والدويدة والرشدة في قصعات خشبية كبيرة يطبخ الأرز ويشوى لحم الخروف على أسياخ صغيرة وتحضر النساء اللواتي يزغردن بصوت عال. عند الظهر يدخل الضيوف ويبدأ الاحتفال فتصدح موسيقى القرب والمقرون وتهدر الدربكة الكبيرة التي تعلق تحت الذراع وتضرب بالمضرب باليد اليمنى وفي هذه الأثناء يرقص الرجال ويجعلون الطفل المحتفى به على ظهر حصان ويتقدم، وتبدو عليه إمارات الخوف ويرافقه واحد أو اثنان من رفاقه على الخيل تتبعهم موسيقى وشباب وبنات في عربات مليئة.

وأخيراً عند الساعة الحادية عشر نهاراً؛ أي: ساعة واحدة قبل غروب الشمس يقع الحدث الذي يحتفل به فيظهر المطهر كي يكسب ليرة مجيدية يعرى

الولد ويقف ويمسك يديه ورجليه ويلف وجهه بمنديل ويحني الجراح (المطهر) ركبته والولد المرتعش يصرخ بأعلى صوته فيربط المطهر الجلدة المسحوبة أمام رأس قضيب الولد بخيط ويمرر فوقها قطعة خشب رفيعة ويقوم بقطع الجلد بالموسى ويرش عليها بودرة سوداء مؤلمة (صبر)[1].

3 ـ المآتم :

إن ليون في كتابه من طرابلس إلى فزان يصف الدفن في طرابلس الغرب قائلاً: «أما طقوس الدفن فلا شيء منها يستحق الذكر ويوضع الجسد في النعش ويغطى بالقماش وتتلى عليه آيات من القرآن ويحمله أصدقاؤه يودعونه على عجل وهم يتمتمون ببعض الجمل والأناشيد الدينية. أما القبر فلا يميزه سوى قطعة من الحجر توضع عند مكان الرأس أما مراسم دفن النساء فلعلها أكثر إثارة وأبهة وتعقيداً ولقد قدر لي أن أشهد جنازة ابنة الوزير وحفيدة السلطان ورأيت الناس يحملونها إلى مثواها الأخير وقد لفت بكفن أرجواني من قماش غال موشى بالذهب كتبت عليه بعض آيات من القرآن بخيوط من ذهب وعند الرأس وضعت باقة ورد منتقاة وبعض حاجيات الفقيدة تغطي الكفن وخلف النعش تمشي النسوة يحملن باقات الزهور وعلى عكس أبهة ما يلبسنه في الأحوال العادية يلبسن ملابس قديمة وتبدو وجوههن خالية من الأصباغ وصدورهن خالية من الحلي وقد رأيت الوزير يتصدر الموكب بنفسه وعلى الرغم مما يشاع عن قسوته وغلظة قلبه فقد كان بادي التأثر ومن عادة القوم في هذه المناسبات عتق عبد أو اثنين كما توزع الأطعمة على الفقراء الذين يتجمعون بكثرة في مثل هذه المناسبات وتختلف هذه الأطعمة تبعاً لقدرة أسرة الفقيد وتتباهى كل أسرة بالإنفاق على روح فقيدها وهناك بعض النسوة اللاتي يتكسبن من ارتياد منزل الفقيد ليبكين ويندبن الفقيد ويطلقن الآهات والصرخات وتستمر هذه الأحزان ثلاثة أيام ويبدو أن الضجة

---

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، طرابلس مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص169 وما بعدها.

التي يحدثنها لا تكفي فيقمن بدق الطبول والأوعية الفارغة»[1].

وفي العقد الأول من القرن العشرين، أورد بانزة وصفاً لما شاهده في المآتم ما جاء فيه «إن صنعة الطب في طرابلس ليست على قدر من التطور وعلى وجه الإجمال فإن نسبة الوفيات ليست بالغة. وإذا ما زهقت روح أحد منهم وضعوه في حجرة وأغلقوا عليه الباب ويجتمع أقرباؤه ومعارفه ويقرع المعزون الباب دون انقطاع وفي جميع الحجرات تجري معانقة ذوي المتوفى ثم يجلسون إلى الحائط.

إن أفراد أسرة المتوفى تبكي وتولول ثلاثة أيام بأصوات مخيفة وبعد فترة قصيرة يغادر المعزون وهم يرددون كلمات العزاء البركة في رأسك ما يدوم كان وجه الله.

في اليوم ذاته يقوم شيخ بغسل الجثمان بالماء الساخن ويرش عليه عطر حنوط ثم يكفن ويوضع في تابوت خشبي يستعار من الجامع وتوضع قطعة قطن على كل عين وتطرح قطعة قماش خضراء إذا كان المتوفى رجلاً وضعوا طربوشاً فوق التابوت من جهة الرأس وإذا كانت امرأة وضعوا باقة من الورد الفواح. بعد ذلك يرفع الرجال التابوت على أكتافهم ويحملونه بحيث يكون الرأس نحو الأمام ويتقدم شيخ موكب المشيعين يتبعه الرجال في صف عريض وهم يرددون العبارات المناسبة بصوت واحد وإيقاع واحد وأخيراً يأتي الطرف الرئيسي في العزاء.

بجانب المقبرة (الجبانة) يوضع التابوت في المصلى في جهة القبلة ثم يصلى عليه وفي المقبرة يرفع الجثمان من التابوت ويمدد في قبر يتراوح عمقه بين ثلاثة أرباع المتر وحتى متر ونصف ثم يهال عليه التراب ويتوجه الرجال إلى البيوت بحيث تقوم النساء بالبكاء والندب إلا أن هذا لا يحول دون أن يقمن بإعداد طعام بمناسبة الوفاة وبعد أن يتم الدفن يتفرق جمهور المشيعين[2].

(1) جون فرنسيس ليون، المصدر السابق، ص19 وما بعدها.

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، طرابلس مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص171 وما بعدها.

إن تلك المقابر في العادة أرض جرداء تماماً وعلى شيء من الارتفاع تبرز فوقها مئات من القبور الطينية المبعثرة ويبلغ ارتفاع القبر حوالي القدم أما طوله فمتر وهي موجهة نحو القبلة وفيما بينها تنتصب هنا وهناك بعض قباب نادراً ما يزيد ارتفاعها عن متر وهي تخص المرابطين أو الوجهاء فوق كل قبر أو إلى جانبه تثبت في الغالب (وعاء فخاري) يضعون فيها للميت شيئاً من الماء أو الطعام بين الحين والآخر كما يقوم مصباح زيت (شمعدان) بتأمين شيء من الضوء من وقت إلى آخر وبذلك تنتهي واجبات البر بالميت. والشمعدان مصباح فخاري أصفر أخضر يملأ الحوض الأعلى بزيت يغذي فتيلاً مجدولاً من الصوف والقطن وتحمل مثل هذه الشمعدانات إلى المقابر أسبوعياً وتتجمع تدريجياً وهي مستوردة من تونس[1].

ج ـ الاحتفالات الرسمية والدينية:

إن المناسبات الدينية التي يحتفل بها الليبيون تتمثل في المولد النبوي وعيدي الفطر والأضحى ويوم عاشوراء وليالي شهر رمضان، والبساطة هي سمة هذه الاحتفالات إذ يبرز فيها في مقدمتها ارتداء الملابس الجديدة والسخاء في الطعام خاصة اللحوم والتزاور بين الأهل[2] وقد اهتم بانزة برصد الحياة الاجتماعية في ولاية طرابلس الغرب معرفاً ببعض المناسبات الدينية التي يحييها أهالي طرابلس وفي هذا الصدد يحدثنا عن المولد النبوي الشريف قائلاً: «إنه عيد ميلاد النبي ﷺ ويبدو أنه احتفال متوارث في المغرب الإسلامي. أما في الشرق فليس باحتفال مميز. منذ الصباح الباكر يرتدي الرجال أفضل ما لديهم من ملابس وغالباً ما يفضلون الجلباب الأبيض الطويل وهو على نسق ما يلبس في مصر وتعقد حول الرأس عمامة فاتحة اللون وعادة ما يلبس ذلك في الشرق الأسيوي. ويبدو وكأن المرء هنا في طرابلس يلبس بمناسبة هذا العيد الذي جاء من الجزيرة

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، طرابلس مطلع القرن العشرين، المصدر السابق، ص173.

(2) تيسير بن موسى، المرجع سابق، ص42.

العربية الزي المنتشر في الوطن العربي الكبير ويتجمع الناس في الجوامع ويخرجون يطوفون الشوارع وتنظر النساء على المسيرة الاحتفالية من فوق الأسطح بينما يقف الرجال في صفين متقابلين ويقف وسطهم منسق الاحتفال عندئذ يبدأ قرع الطبول الصغيرة والتصفيق والمدائح النبوية والأغاني الدينية ويجري الرقص بنقل حركة الرجل إلى أخرى ويحركون الرؤوس إلى الأمام والخلف بحيث تنسجم ثلاثة إيقاعات مصدرها الإنشاد والطبل والتصفيق والرقص وهز الجسم والإيماء بالرأس إلى درجة أن الرغوة تظهر على شفاه كثيرين منهم وبعضهم يسقط على الأرض فاقداً وعيه من النشوة وتحمل الرايات وتنتشر أقمشة طرزت عليها آيات قرآنية على شكل سرادق ويسيرون جمالاً مزينة بالأكاليل ويتظاهر جماعة المرابطين وطريقة العيساوية بتجريح أنفسهم بعنف (ضرب الشيش) إلا أنه على وجه العموم موكب منضبط»[1].

وشمل وصف بانزه شهر رمضان من بدايته إلى نهايته «يدخل الشهر المحبب للنفوس والمهاب أيضاً وهو شهر رمضان ودفعة واحدة يتغير وجه العالم الإسلامي تماماً فلا يعود يحق لأي مسلم منذ حوالي العاشرة من العمر أن يأكل أو يشرب بين الفجر وغروب الشمس وفي وقت متأخر بعد العصر يشرع الناس بإعداد وجبة الإفطار الرئيسة وقبل نصف ساعة من الغروب يصبح الجميع عصبيين فثمة من يغلي القهوة ويهيئ سيجارة ووضع بجانبها عود الكبريت أو يأخذ قطعة خبز في يد وفنجان القهوة المملوءة في اليد الأخرى بينما يترقب الجميع طلقة المدفع كي تعلن أن أسفل قرص الشمس قد لامس البحر وأن نهار الجوع والعطش قد انقضى.

كل واحد ينقض على طبقه المفضل ثم ينصرف بعدئذ إلى وجبة الإفطار الحقيقية عقب ذلك يبدأ تبادل الزيارات وشرب الشاي والتدخين ويكف الناس عن التقيد بما كان مفروضاً في النهار حيث تستمر هذه الحرية حتى السحور الذي

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، طرابلس مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص175.

يحل بعد منتصف الليل بفترة طويلة إن من يعيشون وحيدين قد يغلبهم النوم فيكتفون بوجبة واحدة خلال أربع وعشرين ساعة.

وما إن ينقضي رمضان ويظهر هلال شوال حتى يسود الفرح والابتهاج، إذ يحتفل الناس خلال أيامه الثلاثة الأولى ويلبس الناس أفضل الثياب ويركب العربة أو حماراً إلى الواحة ويتسلى في المراجيح العامة ويزين التجار دكاكينهم بالورق الملون وتستهلك كميات كبيرة من الحلوى»[1].

5 ـ تغلغل الاستعمار الأوروبي وتأثيره على حياة المجتمع الليبي حتى عام 1911م

بفضل ما اكتسبته أوروبا من قوة عسكرية واقتصادية مصاحبة للثورة الصناعية، شرعت في توسع مستعمراتها في شتى أرجاء الأرض، خاصة مناطق العالم العربي لأسباب دينية واستراتيجية، وفي هذا الإطار كانت ليبيا واحدة من أهم المناطق التي بدت مطمعاً لقوى الغرب الأوروبي الاستعماري[2].

أ ـ تكالب الاستعمار الأوروبي على ليبيا «أهدافه ووسائله»:

مع إدراك كل قوى الاستعمار الأوروبي لأهمية ليبيا الاستراتيجية والجغرافية، إلا أنها تباينت فيما بينها في اهتمامها باحتلالها واستعمارها، لأسباب سياسية بالدرجة الأولى، وحسم موقف ليبيا كمستعمرة أوروبية لصالح انجلترا في البداية وإيطاليا في النهاية بعد أن طوت فرنسا صفحتها مكتفية بجارتيها تونس والجزائر.

وقد تركزت اهتمامات إنجلترا الاستعمارية بليبيا عامة وبرقة خاصة للأسباب التالية[3]:

(1) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، طرابلس مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص178 وما بعدها.

(2) ليزا أندرسون، المرجع السابق، ص112 وما بعدها.

(3) محمود حسن صالح منسي، الحملة الإيطالية على ليبيا دراسة وثائقية في استراتيجية الاستعمار والعلاقات الدولية، القاهرة، 1980م، ص4.

1 - تأمين حدودها من الناحية الغربية في مصر.

2 - الموقع الاستراتيجي الذي تتمتع به ليبيا وخاصة عند ميناء طبرق ودرنة من الناحية الحربية.

وبهذا وطدت إنجلترا علاقاتها الاقتصادية مع برقة الأمر الذي جعل القنصلية الإيطالية في بنغازي تبدي الاهتمام عن طريق مبعوثيها بالنشاط الإنجليزي في برقة(1).

أما الأطماع الفرنسية فلم تكن ذات أهمية تذكر في بادئ الأمر اللهم إلا بعد سيطرتها على الجزائر سنة 1830م وتونس سنة 1881م حيث أظهرت اهتماماً خاصاً بطرابلس الغرب. بما يناسب سياستها التوسعية الاستعمارية ويوفر لها الأمان فنتج عن ذلك مشكلة الحدود بين كل من طرابلس والجزائر من جهة وتونس وطرابلس من جهة أخرى، حيث قامت بعملية تخطيط الحدود بما يتناسب وسياستها الاستعمارية ويوفر لها الأمان كما ترى ومد نفوذها عبر الصحراء حتى السودان وأبدت استعدادها للسيطرة على فزان فنتج عن ذلك محاولة سيطرتها على غدامس لما رأت فيها أهمية استراتيجية وتجارية(2) وعن طريق هذه المنطقة يمكن أن تسيطر سيطرة كاملة على طرابلس الغرب، أو على الأقل مد نفوذها عليها والتوسع في الجنوب فاستعملت عدة وسائل للتمهيد لهذا الاستيلاء منها :

بناء الاستحكامات العسكرية على طول مشارف المنطقة الغربية من ليبيا وباتت تهدد منطقة الجبل الغربي.

كما حشدت بعض قواتها في الجزائر على المناطق الغربية من غدامس وغات وعززتها بتأسيس قنصلية في غدامس في عام 1881م لمراقبة سير القوافل التجارية الآتية من مناطق غرب أفريقيا(3) وإرسال البعثات الكشفية لدراسة أوضاع

(1) أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي، القاهرة، 1971م، ص318.

(2) المرجع نفسه، ص319.

(3) محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، مرجع سابق، ص206.

هذه المنطقة كما حاولت سحب العملاء بجانبها كي يسهلوا لها تلك المهمة ولكنها فشلت في تحقيق هذه المطامع وذلك بسبب مقاومة قبائل الطوارق والضغط الإنجليزي عليها ومع هذا فإنها لم تفقد الأمل فكررت المحاولة مرة أخرى لإقناع الطوارق بالتعاون معها ولكن دون جدوى، أضف إلى ذلك قيام القنصلية الإيطالية في طرابلس بعملية رصد تحركات فرنسا داخل طرابلس الغرب الأمر الذي نتج عنه عدم تمكن فرنسا من تحقيق أهدافها اللهم إلا إنشاء بعض المدارس والمستشفيات والكنائس في طرابلس ومثلها في بنغازي كما استطاعت أن تسيطر على بعض الشركات التي كانت تعمل لصالحها في ليبيا مثل شركة فنار طرابلس وغيرها(1).

كل هذه الأسباب مجتمعة دفعت بالسلطات العثمانية إلى إثارة موجة من الاحتجاجات السياسية ضد الفرنسيين والتظاهر بالتحرك العسكري وإعلان التعبئة ومحاولة القيام ببعض التحصينات وتقوية وسائل الدفاع في ولاية طرابلس الغرب(2).

ب - التمهيد للغزو الإيطالي وانعكاساته على بنية المجتمع الليبي بأبعاده المختلفة:

كانت إيطاليا منقسمة إلى عدة دويلات وكان الجزء الشمالي للبلاد خاضعاً للحكم النمساوي وبعد كفاح طويل من أجل الاستقلال استطاع الإيطاليون توحيد البلاد والتحرر من السيطرة الأجنبية وتكونت بذلك في سنة 1861م المملكة الإيطالية ولكن بدون روما وفينيسيا اللتين انضمتا فيما بعد إلى هذه المملكة.

وبعد سنتين من حصول إيطاليا على استقلالها بدأت تفكر بالمستعمرات وكتب كريستوفورو نيجري في 30 أغسطس 1863م في جملة لوبنيوني دي تورينو ما يلي: «لا توجد دولة أكثر من إيطاليا ينبغي عليها أن تهتم بموضوع الشرق الأوسط.. إذا وقعت مثلاً مصر تحت الحكم الإنجليزي ومعها قناة السويس وإذا

(1) أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، مرجع سابق، ص324.

(2) أحمد النائب الأنصاري، المصدر السابق، ص6.

وقعت تونس تحت فرنسا. فسنجد أنفسنا في نصف البحر الأبيض المتوسط بدون أن نحصل حتى على الهواء اللازم للتنفس».

ومنذ افتتاح قناة السويس في سنة 1869م بدأ التفكير في إمكانية التدخل الإيطالي في ليبيا لأن هذا الحدث أخذ يقوي موضوع توازن القوى في البحر الأبيض المتوسط.

وفي عام 1878م نصح المستشار الألماني بسمارك فرنسا باحتلال تونس ودعا إيطاليا إلى احتلال ليبيا. وفي سنة 1901م أعلنت الحكومة الفرنسية بأنه في حالة توسعها نحو مراكش فإنه بإمكان إيطاليا بسط نفوذها في ليبيا. ووافقت فيما بعد ألمانيا والنمسا (حليفتا إيطاليا في الحلف الثلاثي) وإنجلترا وروسيا في أن تضع إيطاليا يدها على ليبيا. وفي السنوات الأولى من القرن العشرين بدأت تنتشر في إيطاليا كتب ومقالات تنادي باحتلال طرابلس ونوهت بأهميتها من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية وكتب مثلاً (جانيتي) في سنة 1902م في مجلة الريفستاديتاليا ما يلي[1]: «إن إيطاليا كدولة بحرية إذا أرادت ألا تبقى منعزلة في البحر الأبيض المتوسط فإنه ينبغي عليها أن تحصل على مواقع تقع في أماكن غير بعيدة عن الساحل الإيطالي وفي هذه المواقع يجب إنشاء مينائين أو ثلاثة موانئ لاستعمالها من قبل الأسطول الإيطالي وذلك لإتمام التنسيق الاستراتيجي» وتحدث نفس الكاتب عن العوامل السكانية التي تدعو إلى ضرورة احتلال ليبيا حيث واصل الكاتب مقالته على النحو التالي: «إن عدد سكاننا يتزايد باستمرار حيث نتج عن ذلك اتساع الهجرة إلى البلدان الأجنبية ولوضع حد لتشتت آلاف من الإيطاليين حول العالم. تزدهر بأعمالهم بلدان أخرى فإنه ينبغي تنظيم هذه الهجرة وتوجيهها نحو أراض تكون تابعة لنا»[2].

(1) محمد مصطفى الشركسي، لمحات عن الأوضاع الاقتصادية في ليبيا أثناء العهد الإيطالي، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1976م، ص8.

(2) المرجع نفسه، ص9.

وبالتالي فإن الأطماع الإيطالية في ليبيا تعود إلى فترة الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر وخاصة بعد تحقيق الوحدة الإيطالية وبعد أن قطعت شوطاً في مجال التطور الصناعي والتقني ونمو رأس المال وتقدم القوة العسكرية عندها[1].

وإن الاهتمام الإيطالي بطرابلس الغرب كانت له خطوات؛ أولى هذه الخطوات هو تنظيم الرحلات الكشفية التي تولتها جمعيات جغرافية إيطالية وكان من بين أهداف هذه الرحلات هو الاطلاع على أحوال البلاد الداخلية وإعطاء تقييم واضح لمكانتها الاقتصادية واعتبرت إيطاليا أن ليبيا بحكم موقعها الاستراتيجي والجغرافي، تعد مكاناً مناسباً للاستثمارات الاقتصادية الإيطالية. وعليه بدأت رؤوس الأموال الاقتصادية تجد طريقها إلى الولاية في فترة السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر وأخذ التبادل التجاري بين إيطاليا والولاية في النمو التدريجي حتى حققت إيطاليا في عام 1908م الترتيب الثاني بعد بريطانيا في حجم التبادل التجاري والاستثمارات الاقتصادية في البلاد[2] لقد كان التحفز الإيطالي للاستيلاء على ليبيا يزداد وفقاً لزيادة حدة التنافس الاستعماري في أفريقيا بشكل عام واقتسام ولايات الدولة العثمانية في شمال أفريقيا بشكل خاص. إن اهتمام إيطاليا الاستعماري تضاعف بشكل كبير بعد انحسار طموحاتها التوسعية في شرق أفريقيا على أثر الهزيمة التي تلقتها في «عدوة» على يد القوات الأثيوبية في عام 1896م وبعد تلك الهزيمة لم يبق لإيطاليا من مناطق نفوذ في شرق أفريقيا سوى أجزاء من إريتريا والسواحل الشرقية من الصومال والتي كانت قد تحصلت عليها في عام 1886م[3] لذلك بدأت الدوائر السياسية الحاكمة في إيطاليا تركز اهتماماتها الاستعمارية على ولاية

(1) عبد الله علي إبراهيم، «التطورات السياسية في ليبيا، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر»، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ (2000)، ص143.

(2) المرجع نفسه، والصفحة نفسها وما بعدها.

(3) المرجع نفسه والصفحة.

طرابلس الغرب وبرقة وتسعى بكل جدية لفرض السيطرة عليها، ففي عام 1860م بدأت رحلات الرواد والمستكشفين تأخذ طريقها إلى ليبيا حيث لفت هؤلاء الأشخاص انتباه إيطاليا إلى ليبيا فقد زار الرحّالة الألماني رولفس طرابلس عام 1864م وكذلك ولاية برقة وأكد في تقريراته بأن طرابلس وبرقة غنيتان بالموارد الزراعية والمعدنية. وأشار الرحّالة كامبيرو الذي زار ليبيا في عام 1881م إلى إمكانية إعادة إحياء زراعة أشجار الزيتون وبالتالي خلق صناعة وتجارة زيت الزيتون التي كانت مزدهرة منذ عهد الرومان. كما أشار إلى إمكانية زراعة الفول السوداني وتوسيع نطاق صيد الأسماك كما جاء في تقريره أنه من الضروري إنشاء نظام مصرفي في ليبيا من أجل تقديم المساعدة لأنشطة الإيطاليين والسكان المحليين مشيراً بذلك إلى الأنشطة ذات الطابع الصناعي[1] مثل صناعة الملابس الوطنية والحصير والفرش والجبنة والروائح العطرية واقترح كذلك إنشاء صناعة الملح.

وفي سنة 1881م قام المستكشف جيوسيبي هايمان برحلة استطلاعية من بنغازي إلى درنة وبعد هذه الرحلة نشر في إيطاليا كتاباً عن برقة تحدث فيه عن خصوبة وجمال برقة التي اعتبرها أجمل منطقة في أفريقيا الشمالية.

وفي عام 1902م نشر منوتيلي كتاباً بعنوان «طرابلس» يحتوي على معلومات جغرافية واقتصادية واجتماعية وتاريخية عن ولاية طرابلس وبرقة وأشار الكاتب في مقدمة كتابه بأن هذا الكتاب جاء نتيجة اهتمام الإيطاليين بولاية طرابلس الغرب.

وكتب منوتيلي في نفس الكتاب المشار إليه أعلاه العبارات التالية: «والملاحظة الأخيرة المؤلمة التي يجب الاعتراف بها هي أنه بالرغم من الاهتمام بطرابلس القائم في إيطاليا منذ عشرين سنة وبالرغم من أهميتها التجارية والأثرية

---

(1) نقلاً عن محمد مصطفى الشركسي، لمحات عن الأوضاع الاقتصادية في ليبيا أثناء العهد الإيطالي، مرجع سابق، ص9.

ومن قربها لإيطاليا فإن عدد الإيطاليين الذين ذهبوا إلى استكشافها أقل بقليل من عدد المستكشفين الألمان والإنجليز والفرنسيين. لقد اهتممنا نحن فقط بالثرثرة بينما أنجز الآخرون الحقائق والشيء الوحيد الذي نتج عن هذه الثرثرة هو أنها خلقت عدم الثقة فينا».

وقد أسست أول قنصلية إيطالية في طرابلس سنة 1861م واهتمت القنصليات الإيطالية بإرسال العديد من التقارير المختلفة عن ليبيا وقدر قنصل إيطاليا العام «فيكو» سنة 1901م الإيطاليين المتواجدين بولاية طرابلس الغرب بحوالي 704 نسمة، وفي عام 1904م خلفه ميدانا الذي قدرهم بحوالي 636 نسمة[1]. وفي الإحصائية التي أوردها بانزة في كتابه عن طرابلس التي زارها في 1909 يقدر عدد الإيطاليين بحوالي 1000 إيطالي[2].

وذكر كزلاديلا فالي «في كتابه (الصناعة في ليبيا) أن الجالية الإيطالية تمكنت في السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر من السيطرة على معظم الحركة التجارية في طرابلس وأكد ذلك سيلاني في كتابه بعنوان (20 سنة من الاحتلال الإيطالي) حيث ذكر في هذا الكتاب أن الإيطاليين الموجودين في ليبيا قبل الاحتلال كانوا يكونون أهم جالية من الناحية الثقافية والاقتصادية. وهي الجالية الوحيدة التي كانت تتمتع بمدارس ومؤسسات ثقافية واجتماعية ثم إنشاؤها من قبل الحكومة الإيطالية وكانت تملك منشآت تجارية ومالية من الطراز الأول ومسيطرة على معظم أوجه النشاط التجاري في ليبيا»[3].

وفي الحقيقة فإن النفوذ الإيطالي في ليبيا لم ترسخ أقدامه إلا في سنة 1907م عندما فتح مصرف روما فرعاً له في طرابلس وسأعرض الدور الذي لعبه

---

(1) نقلاً عن محمد مصطفى الشركسي، لمحات عن الأوضاع الاقتصادية في ليبيا أثناء العهد الإيطالي، مرجع سابق، ص10 وما بعدها.

(2) عماد الدين غانم (محرر ومترجم)، طرابلس مطلع القرن العشرين، مصدر سابق، ص191.

(3) نقلاً عن محمد مصطفى الشركسي، لمحات عن الأوضاع الاقتصادية في ليبيا أثناء العهد الإيطالي، المرجع السابق، ص10.

هذا المصرف في التمهيد للاحتلال الإيطالي[1].

إن الاهتمام الإيطالي بتنفيذ سياسة التغلغل السلمي في ليبيا تركز بشكل كبير على الجانب الاقتصادي وقد ظهر ذلك بشكل واضح في قيام إيطاليا بتأسيس فرع لمصرف روما في طرابلس في 15/ 4/ 1907م من أجل القيام بالاستثمارات الاقتصادية الكبيرة في البلاد. كما قام هذا المصرف بفتح فروع أخرى في كل من مصراتة وبنغازي والخمس وزليتن ودرنة[2].

وقد قام المصرف بدور خطير تمثل في شراء الأراضي من المواطنين بأسعار خيالية وصلت في بعض الحالات إلى ثلاثة أمثال القيمة الفعلية للأرض[3].

وبذلك تمكن خلال فترة قصيرة من الحصول على مساحات شاسعة من الأراضي في كل من طرابلس وبرقة قدرت بحوالي 400,000 هكتار حيث بلغ رأس مال المصرف بحلول عام 1911م حوالي 5 ملايين دولار[4] بالإضافة إلى ذلك اتسعت أعمال المصرف الاستثمارية فتضمنت منح قروض إلى التجار والمرابين من اليهود وأفراد من الجالية الإيطالية وحتى إلى بعض المواطنين الليبيين، كما شملت استثمارات مصرف روما إنشاء بعض المشاريع الأخرى خلال الفترة 1907 ـ 1910م منها مصنع كبس الحلفاء ومصنع للصابون ومعاصر لزيت الزيتون ومطحن للدقيق ومصنع للإسفنج وإنشاء مقر لفرز وتنظيف ريش

(1) للاطلاع على المزيد من المعلومات الخاصة بالدور الذي لعبه مصرف روما في التمهيد لسياسة التغلغل السلمي والاحتلال الإيطالي، انظر مجموعة الوثائق رقم 6، 7، 10، 11، 12 ملف وثائق التمهيد للغزو رقم 33 شعبة الوثائق والمخطوطات، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ملحق رقم (20 ـ 21 ـ 22 ـ 23 ـ 24).

(2) عقيل محمد البربار، مصرف روما ودور السلطات العثمانية في الوقوف ضد التسلسل الاقتصادي الإيطالي إلى ليبيا 1907 ـ 1911م، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1982، ص238.

(3) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(4) المرجع نفسه، ص240.

النعام وتأسيس مطبعة وقام المصرف بامتلاك وتشغيل خطين للملاحة بين الموانئ الإيطالية وبعض الموانئ في الولاية[1].

وفي المجال الزراعي انشأ مصرف روما مزرعة كبيرة في بنغازي بها حوالي 15 ألف رأس من الماشية كما تم زرع هذه المساحات عن طريق المناصفة مع بعض من القبائل العربية ببرقة وفي الميدان التجاري ركز مصرف روما اهتمامه على استيراد مواد البناء والملابس وفي تصدير الحلفاء والحبوب وريش النعام والصوف والماس والإسفنج.

ومن بين أهداف المصرف أيضاً هو استطلاع واستغلال الموارد المعدنية في البلاد وبالأخص الفوسفات والكبريت وفي هذا الخصوص كلف المهندس جان فيليبو بدراسة المواد الكبريتية الكائنة في منطقة سرت الشرقية وفي عام 1911م مول مصرف روما بعثة يترأسها المهندس الكونت اسكانيو سفورزا إلا أن هذه البعثة لاقت متاعب من قبل السلطات العثمانية[2].

ومما لا شك فيه أن الأنشطة التي قام بها فرع مصرف روما بطرابلس وجدت دعماً مباشراً من قبل الحكومة الإيطالية وبالتالي أصبح هذا المصرف في هذه الفترة الوجيزة التي سبقت الغزو الإيطالي يسيطر سيطرة تامة على معظم الأنشطة الاقتصادية في البلاد مع احتكار توريد بعض البضائع التجارية من إيطاليا إلى الولاية ومن هذه السلع المنسوجات والأخشاب والسكر والرخام والورق والنبيذ والأرز وغيرها[3].

(1) عقيل محمد البربار، مصرف روما ودور السلطات العثمانية في الوقوف ضد التسلسل الاقتصادي الإيطالي إلى ليبيا 1907 ـ 1911م، مرجع سابق، ص240.

(2) محمد مصطفى الشركسي، لمحات عن الأوضاع الاقتصادية في ليبيا أثناء العهد الإيطالي، مرجع سابق، ص13 وما بعدها.

(3) عبد الله علي إبراهيم، التطورات السياسية في ليبيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص146.

الخاتمة

ومن خلال العرض والتحليل والنقاش الذي ورد في فصول هذه الأطروحة توصل الباحث إلى جملة من النتائج التي يمكن إجمالها فيما يلي :

1 ـ شكل الموقع الجغرافي لليبيا أهمية استراتيجية، جعلت منها مطمعاً للقوى الاستعمارية عبر تاريخها الطويل فسواحلها الطويلة الممتدة من الشرق إلى الغرب وعمق حدودها من الشمال إلى الجنوب جعلها البوابة الأمثل للوصول إلى بلاد السودان الأوسط والغربي.

2 ـ فرضت هذه الأهمية خصوصية لليبيا في علاقاتها مع بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط من جهة، ومع مناطق ما وراء الصحراء من جهة أخرى، وانعكس ذلك في إكساب أهالي ليبيا خبرة خاصة من التواصل والدراية بدروب وخبايا المناطق المحيطة بهم.

3 ـ وعت دول أوروبا الناهضة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هذه الخصوصية لليبيا والليبيين، فأخذت تتنافس فيما بينها على استثمارها من أجل تحقيق أكبر كسب ممكن لاستعمار أفريقيا.

4 ـ في سبيل ذلك، تجلت سياسة التدخلات الأجنبية في ليبيا في القرن التاسع عشر، وتعددت روافدها ووسائلها مستغلة حالة الضعف التي كان عليها الحكام وحالة السخط والاضطرابات التي كانت عليها ولايات الدولة العثمانية عامة وليبيا خاصة.

5 ـ في هذا السياق التاريخي برزت ظاهرة الرحّالة إلى ليبيا في القرن التاسع

عشر، فتأسست الجمعيات الجغرافية الأوروبية وتنامت المساعي لإعداد الموهوبين من الأوروبيين للقيام برحلات في ليبيا طوال القرن .

6 ـ عرف القرن عدداً كبيراً من الرحّالة ولكن لاختلاف خبرة الأوائل منهم عن خبرة المتأخرين أمكن أن نميز بين رحّالة النصف الأول ورحّالة النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

7 ـ تميز رحّالة النصف الثاني عن رحّالة النصف الأول، بسمتين الأولى حصولهم على مزيد من التسهيلات من قبل الجهات الرسمية داخل ولاية طرابلس وخارجها، بسبب ازدياد نفوذ الدول الأوروبية في الدولة العثمانية، والسمة الأخرى في حجم وسعة المعلومات التي دونوها في رحلاتهم بالنسبة لرحلات النصف الأول.

8 ـ لم يكن عامل الزمن هو المميز الوحيد بين الرحّالة، بل تعددت مشاريعهم بتعدد دولهم، وطرق إعدادهم، والجهات التي رعت كلاً منهم، فتباينوا في الأهداف والوسائل حسب الظروف التي أحاطت بكل رحلة.

9 ـ انعكس ذلك في الرحّالة، فمنهم من تنكر في زي عربي مدعياً الإسلام، ومنهم من قام برحلته كاشفاً عن شخصيته مصرحاً بهويته استغلالاً لضغوط قنصل دولته، كما لجأ بعضهم لتوظيف عناصر ليبية مقابل منحهم مكافآت مالية. وفي كل الأحوال سجل كل رحّالة معلومات رحلته بما يخدم أهدافه ويتناسب مع توجهاته وتوجهات الجهة الراعية له. وإن غلب على معظمها الأهداف الاقتصادية والسياسية، حمل بعضها أهدافاً دينية وعلمية.

10 ـ لعبت الدولة العثمانية دوراً كبيراً في إنجاز بعض الرحّالة مهمتهم من خلال تأثير دولهم في الدولة العثمانية التي وفرت لهم الحماية وقدمت لهم التسهيلات.

11 ـ يرجع اختلاف صورة ليبيا فيما بين رحّالة القرن التاسع عشر، وفيما بينهم

وبين المصادر التاريخية وكتابات الرحّالة الآخرين، إلى عوامل أخرى خارج إطار تكوينهم وظروف رحلاتهم. ومن هذه العوامل، التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي مرت به ليبيا خلال القرن.

12 ـ ففي الجانب السياسي، بدأ القرن بسياسة ضعيفة ليوسف باشا القره مانلي، على المستويين الداخلي والخارجي، انتهت بالبلاد إلى وضع مأزوم حتى آخر الثلث من القرن التاسع عشر ليبدأ وضع سياسي جديد بعودة العثمانيين لحكم البلاد فيما عرف بالعهد العثماني الثاني. والذي ما لبث أن دخل بالبلاد مرحلة جديدة في آخر القرن برز فيها دور قناصل الدول الأجنبية مما مهد للاحتلال الإيطالي في مطلع القرن العشرين.

13 ـ وفي الجانب الاقتصادي، لم تثبت كذلك صورة البلاد على حال، إذ سارت في خط موازي للاضطرابات السياسية انعكس على الموارد الاقتصادية الأساسية، فالجهاد البحري وتجارة القوافل الصحراوية والبيوتات التجارية والأسواق، وتأثرت سلع العبور المتدفقة فيما وراء البحر الأبيض والصحراء الكبرى بالوضع الاقتصادي المتأزم، الذي بلغ ذروته بتحويل تجارة الصحراء عبر الممرات المائية ويستثنى من ذلك أنشطة الواحات الداخلية والزراعة وتربية الحيوان. بل إن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد ازدهاراً كبيراً في بعض الموارد الزراعية خاصة الحلفاء والتجارة القائمة عليها.

14 ـ وفي الجانب الثقافي والاجتماعي، مرت ليبيا في القرن التاسع عشر بمرحلتين أساسيتين المرحلة الأولى تنتهي بنهاية العقد الرابع، والأخرى تبدأ بالعقد الخامس حتى نهاية القرن. وكلا المرحلتين امتداد لمرحلتين مماثلتين مرت بهما الدولة العثمانية وهما مرحلة ما قبل التنظيمات، ومرحلة ما بعد التنظيمات في المرحلة الأولى كانت الدولة بولاياتها امتداد لما سبقها من قرون في الحفاظ على شخصيتها الثقافية والاجتماعية ولم يكن للسلطنة دور يذكر في إدارة الحركة الثقافية والعلمية للولايات، فلم تهتم مثلاً بالتعليم

باعتباره خارج مهامها، أما في المرحلة الثانية حدت فيها الدولة حذو دول أوروبا لا سيما فرنسا بعد سيطرتها على تونس والجزائر المجاورتين لليبيا لذلك شهد النصف الثاني اهتماماً من قبل الدولة العثمانية بالتعليم فأنشئت المدارس والمعاهد العلمية بطرابلس مما مهد إلى إحداث تغيرات جوهرية في البنية الثقافية والاجتماعية لمجتمع الليبي.

الملاحــق

ملحق رقم (1)

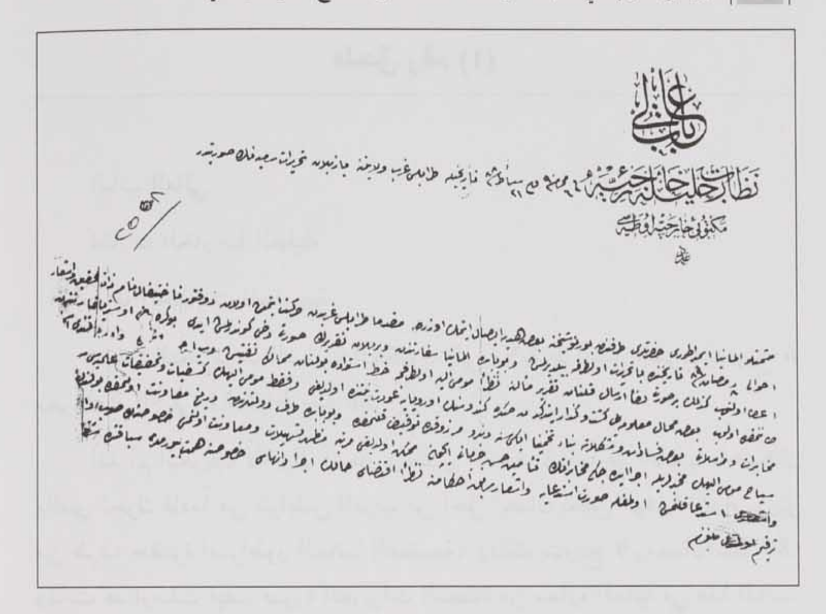
الباب العالي

نظارت الخارجية الجليلة

غرفة الخطابات الخارجية

صورة التحريرات السامية المكتوبة إلى ولاية طرابلس الغرب بتاريخ 6 محرم سنة 90 في 21 شباط سنة 88.

لقد تم التعريف لأحوال اشعار وتحقيق الشخصية للمدعو الطبيب ناختيكال والذي تحرك قادماً من طرابلس الغرب من أجل ايصال بعض الهدايا لشيخ بورنو من طرف حضرة امبراطور ألمانيا الفخيمة، وذلك بتاريخ 9 رمضان سنة 89. وكانت قد ارسلت ايضا صورة التقريرات المعطاة من سفارة ألمانيا في هذا الباب. كذلك أرسلت لفا (طيًا) هذه المرة صورة وأعطيت من سفارة النمسا. ولكن كان قد أوقف المشار إليه في مرزوق قبل سنتين بناء على مظنة بعض المشكلات والمفاسد للمراسلات والمخابرات ـ الخاصة ـ بالكشفيات والتحقيقات العلمية له، والذي كان في نيته العودة إلى أوروبا بعد أن مرّ وتجول في بعض الأماكن المعلومة وساح وفتش الممالك الموجودة في خط الاستواء وقد وجد أنه وقع أسف للمساعدة التي ـ قدمت ـ من طرف الدولة في هذا الباب. وقد تمت المساعدة وظهرت التسهيلات مرتبة بقدر الإمكان من أجل إجراء تأمين حسن للمخابرات التي سيجريها المشار إليه واستدعى الإشعار الخاص به وقد رُقّم الإشعار في سياقه، وقد صدر الأمر بإجراء الأمر وانهائه وفق ما يقتضيه الحال، وبناء على أحكام الإشعار السابق وصورة الاستدعاء. سيدي.



السائح ناختيجال الألماني حامل هدية إمبراطور ألمانيا إلى حاكم برنو، ملف القناصل، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، وثيقة رقم 312 م10.

ملحق رقم (2)

يتحدث عن وصول سي سعد وهو من أتباع فرنسا مبعوث من قبل المشير والي طرابلس وقد بعث إلى غات والتوارق بقصد السياحة!!؟ وبموجب بيدرلدي ـ أي امر رسمي ـ يحض على حسن استقباله ورعايته وقد وصل ومن معه يوم 26 (غير كامل) أي قبل تاريخ الرسالة إلى مرزق.

أما سي سعد فدخل المدينة وأقام بالداخل في نزل خاص للإقامة به لمدة شهر للاستراحة وبعد سيذهب لبعض المناطق وأخيرا يتوجه إلى المشيراي والي الولاية بطرابلس.

واما الحاج محمد اخنوخن الذي وصل ايضا مع سي سعد فانه فضل الإقامة خارج البلدة حيث نصبت له قياطين ومن برفقته وهو ما زال باقيا إلى الآن.

قائمقام

فزان ـ راشد محمد

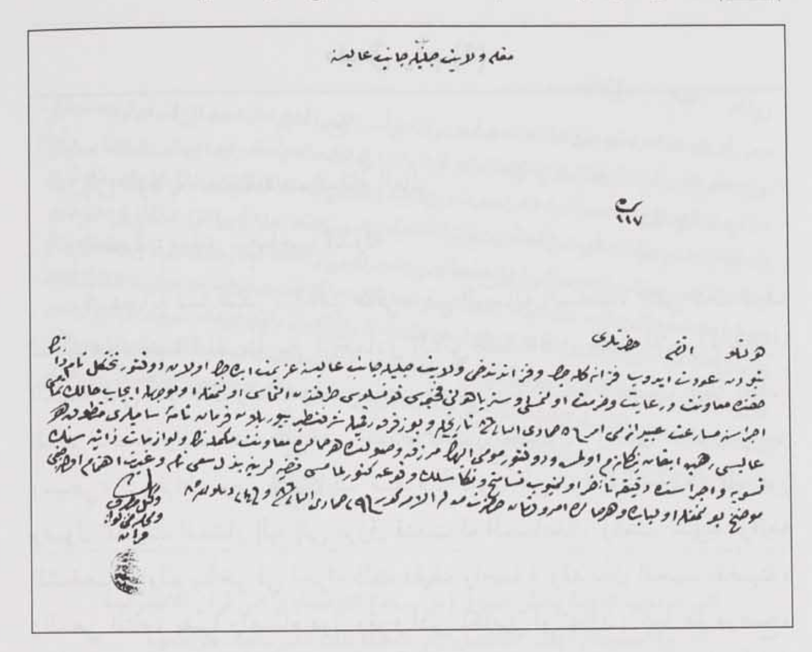
إلى صاحب الدولة بشأن دخول [س سعد] الفرنساوي إلى فزان للاستراحة والاستجمام، ملف القناصل، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، وثيقة رقم 92 ـ م3 ـ ق..

ملحق رقم (3)

إلى الولاية الجليلة ذات المقام العالي

حضرة ـ سيدي ـ صاحب الدولة

استجابة لما صدر من أمر عالي، في الرسالة السامية، التي كان شرف تسطيرها برقم 140، بتاريخ 5 جمادى الثاني سنة 86، وطلب الاسراع بإجراء المهمة على أتم حال والمأخوذ من طرف قنصل دولة النمسا الفخيم، فيما يخص تقديم الخدمة والمساعدة للشخص المدعو دكتور نختيكال، والذي سيعود من تبو وسيجيء إلى فزان، ومن فزان أيضاً سيعزم ـ العودة إلى الولاية الجليلة ؛ فإنه فور وصول الطبيب المشار إليه إلى مرزق قدمت له المساعدة، وتمت تسوية لوازمه الشخصية، ولم يتأخر في اجراء ذلك دقيقة واحدة ؛ وقد بذل الجهد لقضيته، والسعي التام، بغيرة واهتمام دون وقوع أدنى تكاسل أو تهاون، كما هو موضح، والأمر في ذلك الباب لحضرة من له الأمر 29 جمادى الثاني سنة 86 و24 أيلول سنة 85 وكيل متصرفية ومحاسب لواء فزان.



مذكرة وكيل قائم مقام فزان إلى الولاية، بشأن وصول السائح الدكتور ناختيجال، ملف القناصل، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، وثيقة رقم 189 ـ م 16 ش ق.

ملحق رقم (4)

الحمد لله لمن يستحق الحمد والأمر له من قبل ومن بعد

هذا الاتفاق الذي وقع بيننا وبين محب جنابنا قنصل الانجليز هنر وارنجتون بواسطة ...... متاع الكربيطة .... وبهذا تحملنا في مالنا وذمتنا علينا وعلى أبنائنا ومن يتولى من بعدنا كما أشرنا لذالك في الكنتراته الأولى الذي ندفع له من اليوم في تسعة وعشرين من هذا الشهر خمسة وتلاتين ألف ريال دور من جانب الذي يبقى منا ... الانجليز وايضاً كما تحملنا قبل نتحمل له الذي نعطوه خمسة وعشرين ألف ريال دور في سته أشهر من تاريخه والباقي الذي يبقى منا على عام والذي .... الباشي بطلب القويرنو الانجليز ولد مراليو ...... عليه في الخمسة وعشرين ألف ريال المذكورة إلى تمام العام واذا لم يرض بذلك يتحمل .... الخمسة وعشرين الف ريال في الستة اشهر وبقية الخلاص على تمام العام وعلى تمام النظام مختمة بخاتمه الذي يطبعه ويفيرم القنصل فيه والتمام بتاريخ 13 من ذي القعدة عام الف ومائتين وست وأربعين هجرية الموافقة لتسع وعشرين من ابريل عام الف وثمانمائة واحدى وتلاتين مسيحي عبده يوسف باشا قرمالي

صاحب ولاية طرابلس الغرب

وفقه مولاه يمنه وكرمه

وقولنا ندفعوا له خمسة وتلاتين ألف ريال دور بل ندفعوا له أربعة وتلاتين الف ريال دور والألف الزائدة على العدد المذكور ندفعوها له مع الخمسة وعشرين الف ريال المؤجلات على ستة اشهر كما هو مبين في هذا الاتفاق والتمام بتاريخ بمناه ... دام علاه



٥٢ / ٢٤

الانجليز

الحمد لله وحده والأمر لله من قبل ومن بعد

هذا الاتفاق الذي وقع بيننا وبين محب جنابنا قنصل
الانقليز همني وارنغتون بواسطة الكنترات هاته مع تمام [illegible]
[illegible] وهو ان تحملنا في مالنا وذمتنا علينا وعلى ابنائنا
ومن يتولى من بعدنا تمام اخلاص المال الذي في الكنترات [illegible] الذي نروج لسبعة
من اليوم في تسعة وعشرين من هذا الشهر خمسة وثلاثين الف ريال دورو
من جانب المال الذي يبقى منا للقنصل الانقليز وايضا لما تحملنا قبل
نتحمل له الذي نعطوه خمسة وعشرين الف ريال دورو في ستة اشهر من
تاريخه والباقي الذي يبقى منا على عام .. والذي هو سيدنا الباشا
بطلب القونصل الانقليز ولزم الذي هو يبيع عليه في الخمسة وعشرين
الف ريال المذكورة الى تمام العام واذا لم يرض بذلك نتحمل بدفع الخمسة
وعشرين الف ريال في الستة اشهر وبقية الخلاص على تمام العام
وعلى تمام الكلام ختمه بخاتمه .. الذي [illegible] ويبيع فيه
والتمام بتاريخ ١٢ من ذي القعدة عام الف ومايتين وست واربعين
هجرية الموافقة لتسعة وعشرين من ابريل عام الف وثمانماية واحدى
وثلاثين [illegible] عبد ربه يوسف باشا قرمانلي
صاحب ولاية طرابلس
الغرب وفقه مولاه
بمنه [illegible]

رسالة بختم يوسف باشا قره مانلي صاحب ولاية طرابلس الغرب، تفيد بتوقيع اتفاق بينه وبين قنصل الإنجليز، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات وثيقة رقم 52 ـ 24، ملف الأسرة القره مانلية.

ملحق رقم (5)

الحمد لمن له الحمد

طرابلس غرب 13 من ابريل سنة 1832 الموافق 13 من رمضان سنة 1247 القنصل جنرال فرانسة.

الى سعادة محب جنابنا الحاج محمد بيت المال اكرمه الله السلام عليكم وبعد فان قنصل وكيلنا موسيو جليت الذي يسلم لكم هذا المكتوب ملزوم بالنظر والوقوف على حقيقة الامر الذي توجهتم به من عند سعادة الباشا على ان جميع مداخيل بني غازي ودرنة تدخل في يده حتى يخلص في المماية واربعين الف فرنك الباقية عليه للحكم الفرنساوي وموسيو جليت الان ملزوم بقبض جميع ما يساوي الدراهم من مداخيل البلدين ولا يترك احدا ياخذ شيئا ولا يطعله في بر ولا بحر وانتم اذ شاء الله تشدوا معه بالحق من غير خلاف ولا اختلاف في الظاهر والباطن حتى يبلغ مراده ويتم غرضه في الامر الذي توجه من شانه فاذا فعلتم معه ذالك محتم التغير الذي في قلوبنا من اجلكم لان الكنتراته التي دهبتم بها من حضرة سعادة الباشا المكتوبة 14 من يولية سنة 1831 ولم تعمل بها ولم توف بشروطها جعل لنا بسبب ذالك تغير كثير لانك ذهبت في استخلاص جميع ما يدخل من البلدين وموافاتنا به حتى يتم الطلب المذكور للحكم الفرنساوي ولولا هذا السبب ما كنت تذهب إلى بني غازي ولا درنة.

وتعلم ان هذا الزعل الذي حصل لنا من اجلكم قد حصل اكثر منه للحكم الفرنساوي ولا يرتاح حتى ياخد من سيدك تتمة الشروط المعقودة على يد الويس اميرال روزميل غصبا دون الرضى والرجل الكامل العاقل الذي مثلكم يستحق يفهم طيب ويخمن اش يبغى يصير من اجل هاته الدراهم وكيف تكون عاقبتهم لما تأتي مراكب حربية يتعب من اجلها سيدك وجميع اهل البلد والعارف لا يعرف فمن الواجب واللازم عليك انك تجتهد في خلاصهم وتشد يدك مع وكيلنا فاذا

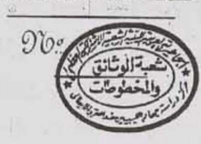
اخلصت معه ووافيته بالعدد المذكور وقدم علينا هو بنفسه نعرف نحن بذالك الدولة الفرنساوية ونقرروا لهم صورة الخلاص ونقف بينكم وبينهم قبل ان يصدر منهم ما يوجب الدوشمان الذي ملزوم الحكم الفرنساوي يعمله على قدر قيمته من شان تمام جميع الشروط المعقودة بين سعادة الباشا وبين الحكم الفرنساوي التي عملها على يد ويتراميرال روزميل المذكور وبالتاريخ المذكور.

ودمتم بخير وسعادة وانت لا يلحقك شك في محبتنا وكن مصدقا فيها وعاملا بمقتضاها ولا بد والسلام بتاريخ اعلاه من محبكم

القنصل شويبل جنرال فرانسه

CONSULAT GENERAL
de
FRANCE
à
TRIPOLY DE BARBARIE
N°

١٥/٢٤



الحمد لله وحده

طرابلس غرب ١٣ من ابريل ١٨٣٢ سنة الموافقة ١٢ من رمضان ١٢٤٧ سنة

القونصل جنرال فرانسه

الى سعادة محب جنابنا الحاج محمد بيت المال اكرمه الله السلام عليكم وبعد فان
قنصل وكيلنا موسيو جليت الذي يسلم لكم هذا المكتوب ملزوم بالنظر والوقوف على حقيقة
الامر الذي توجهتم به من عند سعادة الباشا على ان جميع مداخيل بنغازي ودرنه تدخل بيده
حتى يخلص ثمانماية واربعين الف فرنك الباقية عليه للحكم الفرنساوي وموسيو جليت الآن
ملزوم بقبض جميع ما يساوي الدراهم من مداخيل البلدين ولا يترك احدا يأخذ شيئا ولا
يطلعه بر ولا بحر وانتم ان شاء الله تشدوا معه بالحق من غير خلاف ولا اختلاف
في الظاهر والباطن حتى يبلغ مراده ويتم غرضه في الامر الذي توجه من شأنه فاذا فعلتم
معه ذلك محيتم التغيير الذي في قلوبنا من اجلكم لان الكنترات التي ذهبتم بها من حضرة
سعادة الباشا المكتوبة ٤ من يوليه ١٨٣١ سنة ولم تعمل بها ولم توف بشروطها
حصل لنا بسبب ذلك تغيير كثير لانك ذهبت في استخلاص جميع ما يدخل من البلدين
وموافقا نائبه حتى يتم الطلب المذكور للحكم الفرنساوي ولولا هذا السبب ما كنت تذهب
الى بنغازي ولا درنه
وتعلم ان هذا الزعل الذي حصل لنا من اجلكم قد حصل اكثر منه للحكم الفرنساوي
ولا يرتاح حتى يأخذ من سيدك تتمة الشروط المعقودة على يد الويس اميرال روزميل
غصبا دون الرضى والرجل الكامل العاقل الذي مثلكم يستحق يفهم طيب ويخمن
واش ينبغي يصير من اجل هاته الدراهم وكيف تكون عاقبتهم لما تاتي مراكب حربية تتعب
من اجلها سيدك وجميع اهل البلاد والعارف لا يعرف الا الواجب واللازم عليك
انك تجتهد في خلاصهم وتشد يدك مع وكيلنا فاذا اخلصت معه ووافيته بالعدد
المذكور وقدم علينا هو بنفسه نعرف نحن بذلك الدولة الفرنساوية ونقرروا
لهم صورة الخلاص ونقف بينكم وبينهم قبل ان يصدر منهم ما يوجب الدوشمان
الذي ملزوم الحكم الفرنساوي يعمله على قدر قيمته من شان تمام جميع الشروط
المعقودة بين سعادة الباشا وبين الحكم الفرنساوي التي عملها على يد
ويتراميرال روزميل المذكور وبالتاريخ المذكور

ودمتم بخير وسعادة وانت لا يلحقك شك في محبتنا وكن مصدقا فيها
وعاملا بمقتضاها ولا بد والسلام بتاريخ اعلاه من محبكم

القنصل شويبل جنرال فرانسه

القنصل الفرنسي يطلب من محمد بيت المال أن يذكروا الباشا بضرورة تنفيذ ما جاء في اتفاقية عقدت بينه وبين فرنسا بتاريخ 1831م، ويوضح له العواقب المترتبة على عدم تنفيذه الشروط، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 15 ـ 24، ملف محمد بيت المال، المجموعة الأولى والثانية.

ملحق رقم (6)

بعد تقبيل أيديكم الكرام، وشكر مآثركم الفخام، وما وجب لحضرتكم من الإجلال، والفضل المتوالي على الدوام، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ما دام الفلك وحركاته.

هذا وغير خاف على طلعتكم السنية وهمتكم العلية ما وقع للقلوب المقهورين أهل طرابلس من يوسف باشا حيث سلك فيهم مسالك الجور وأمر صبيانا واوباشا، وقسم عمالة طرابلس بين اقاربه واصهاره ومزقها كل ممزق على عبيده وأنصاره فكل صار فيما تولى، وانهمك على الجرائم وما ولى حتى صارت الرعية كلها فقراء لا يملكون جديداً، ولا يبالي وجلت كلها من وطنها إلى غيره وتركت نساءها وصغارها ولم تبالي وانهمك على الخمور واعلن في الجور، وعطل المساجد عن الصلوات باكل اموالها، وعطل الشريعة في المواريث والخصومات وكلية احوالها وباع مدافع المدينة والابراج، ولم يبقى من ذلك الا ما تعطل في الرواج وكذلك المراكب الحربيات، واتقل ظهور أهل البلاد بديون النصارى وهم بآلاف. ألف .. وانهمك على هواه حتى اتضح غواه وصد جده، وصلد زنده، وصارت الامة رعيا بلا راعي وغنما بلا ساعي.

قامت عليه العمالة شيئاً فشيئاً حتى اجتمعت على سقوط كلمته وانتهاك حرمته وغلق على نفسه ابواب البلاد وبحث على حتفه بضلفه، وخلع نفسه، وأولى ابنه على كما ترضاه أهل طرابلس وهو من الخبث والظلم بمكان جلي، لانه بنوه اقبح منه حالا واسوأ على الخلائق فعالا فامتد النفاق وزاد الشقاق واتفقت العمالة ان لا يكون بينهم ومن على وفاق ولا تلاق لانهم قد علموا ما فيه حين كان واليا على غريان فتركهم ما بين مسلوب ومقتول وعريان، وكذلك أهل تاورغاء وحواشيها فخرق من خوارق العادات، وثقل الجرايم ما أوهى بأهاليها واحدث بعد ان خلفه ابوه على المدينة اقوال زور، وآيات فجور سنها، انه باع

خمسة عشر مدفعا من مدافع النحاس وتعلل لاهل البلاد بالاقلال والافلاس وباع باقي مراكب الوجق، واخذ اموال مساجد المدينة وفيا جميع بيوت التجار الذين تركوهم في المدينة من اهل المنشية وغير التجار حين وقعت الواقعة وزور في السكة (العملة) على حضرتكم وعلى أهل مصر ... سابقه ولاحقه ....

وفي عام كذا قدم علينا فلان وطمعه بالاموال، وكتب الينا كتائب وزعم أنه من الدولة العلية مبتدئا قوله ظهريا وضننا أنه شيئا .... فكتب معه جوابات إلى الدولة، وزور على العلماء وارباب الوجوه الذين بالمنشية ووعدوا المذكور بالاموال فجرى في مجاله وصار من رجاله وأتى له بجواب من حضرة مولانا قبطان باشا وبجواب من حضرة مولانا الوزير انه والي طرابلس من غير مراعاة فصالح هذه الامة والخلائق.... ذلك انه نافع وانه في المكاره دافع..

ونحن بجوابين منهما ايضا ونحن أناس وجملة خدمة الدولة العلية مطيعين لهما في الاقوال والافعال.

مظلمة مقدمة في حق يوسف باشا بشأن المسلك الذي سلكه ضد أهالي طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 145 ـ 24، ملف الفقيه حسن العهد العثماني الثاني.

ملحق رقم (7)

من عبد ربه سلطان فرانسا شارل العاشر حفظه الله تعالى إلى حضرة فخر الامراء العظام وعين الاعيان الفخام امير المسلمين وناصر الدين يوسف باشا قرمالي والي طرابلس غرب المحروسة محب جنابنا خلّد الله دولته وادام عزّته آمين أمّا بعد فمهمّات لا تحتاج إلى البيان عوقتنا ان نفعل ماذا طلبتم منا في مكتوبكم الشريف المحرر في رجب الماضي واذا لم يكن لنا امكان فصل قضيتكم مع ري نابل وسيسيليا كحسب ارادتكم واشتهاءنا فالآن نظنّ ان يكون لنا محل ان نداخل في شان اصلاحكما وقد انبسط قلبنا من علمنا ميل خاطر ريي نابل إلى الصلح فمبنيا على ذلك وقينا خادمنا الامين وقنصلنا العميم رسو بسؤالكم عن مراد خاطركم المبارك فان ملتم ايضا إلى الصلح كما كان من قبل فنحن فارحون من ذلك فرحا عظيما وفوضنا إلى القنصل رسو ان يعرض لجنابكم عرض وساطتنا في هذا الامر واظهار اشتهاءنا ان يسكن مقترنا العداوات والحاربات بين حضرتكم وبين ريى نابل وان يعود بينكما المحبة القديمة والمودة السابقة وهذا يكون الاصلح لكما والارغب لنا اذ كان غرضنا الدايم ان ننفع اميرين اظهرا لنا وفاء المصادقة واخلاص المصافاة ومن طرفنا لا نطلب الا ان يكون لنا فرصة في اظهار اشتراك المحبة واتخاذ الاتفاق ودمتم بخير وعافية في امان ربّ العالمين حرّر في دارنا المسمّاة بسان كلو آشهر تشرين الأول سنة 1828 الخامسة من جلوسنا وهو 31 ربيع الأول سنة 1244.

٤٢/١٠

من عبد ربّه سلطان فرانسا شارل العاشر حفظه الله تعالى الى حضرة فخر الامراء العظام وعين الاعيان الفخام امير المسلمين وناصر الدين يوسف باشا قرمالى والى طرابلس غرب المحروسة محبّ جنابنا خلّد الله دولته وادام عزّته آمين امّا بعد فمهمّات لا تحتاج الى البيان عوّقتنا ان نفعل ما ذا طلبتم منّا فى مكتوبكم الشريف المحرّر فى رجب الماضى واذا لم يكن لنا امكان فصل قضيتكم مع ريى نابل وسيسيليا كحسب ارادتكم واشتهاءنا فالآن نظنّ ان يكون لنا محلّ ان نداخل فى شان اصلاحكما وقد انبسط قلبنا من علمنا ميل خاطر ريى نابل الى الصّلح فمبنيًّا على ذلك وصّينا خادمنا الامين وقنصلنا العميم رسو بسؤالكم عن مراد خاطركم المبارك فان ملتم ايضا الى الصّلح كما كان من قبل فنحن فارحون من ذلك فرحا عظيمًا وفوّضنا الى القنصل رسو ان يعرض لجنابكم عرض وساطتنا فى هذا الامر واظهار اشتهاءنا ان يسلى مقترنا العداوات والمحاربات بين حضرتكم وبين ريى نابل وان يعود بينكما المحبّة القديمة والمودّة السابقة وهذا يكون الاصلح لكما والارغب لنا اذ كان غرضنا الدايم ان ننفع اميرين اظهرا لنا وفاء المصدقة واخلاص المصافاة ومن شرفنا لا نطلب الّا ان يكون لنا فرصة فى اظهار اشتراك المحبّة واتّحاد الاتفاق ودمتم بخير وعافية فى امان ربّ العالمين حرّر فى دارنا المسمّاة بسان كلو ٦ شهر تشرين الاوّل سنه ١٨٢٦ الخامسة من جلوسنا وهو ٢١ ربيع الاوّل سنه ١٢٤٤

Je Certifie cette traduction conforme à l'original français ci-joint
Paris le 1er 8bre 1828. Kieffer

رسالة من سلطان فرنسا شارل العاشر إلى يوسف باشا قره مانلي تدور حول طلب يوسف باشا منه تسوية الخلاف الحاصل بينه وبين والي نابلي ومرسيليا، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 10 ـ 24، ملف الأسرة القره مانلية.

ملحق رقم (8)

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه وسلم

الى الأجل الأفضل الوجيه الاقبل المحترم المبجل ولدنا الحاج محمد بيت المال، اكرمه الله وأعانه على ما اولاه بمنه وكرمه آمين. السلام الاتم الاطيب الاعم عليكم ورحمة الله وبركاته، ولا رايد سوى الخير

يليه اعلامكم انه ورد علينا جوابكم وقريناه من بدايته إلى نهايته وفهمنا ما تظمنه خطابكم على تفصيله وجميع ما ذكرت صار في علمنا، وعرفتنا من جانب البرتيستو امتاع الانجليز فساعة الذي قدمت السكوته رمت ورقة للقنصل وهي على القلاع وسافرت وغابت ايام ورجعت من مالطه وجابت لنا ورقة من القويزي دور امتاع مالطه مضمونها يبغي خلاص الدراهم الذي جاء بهم البرتيستوا حالا في طرابلس بعد ذلك تكمنا مع قنصل الانقليز وعملنا معه اجلة شهرين يدفعوا الفلوس المذكورات، واعطينا كراء السكونة البياجي الذي مشت به لبني غازي المرة الاولى، وكراها شهرين متاع الاجلة الذي جعلناها معهم الجملة الف ومابة ريال زيادة الدراهم الاولات صارت الجملة تسعة الاف واربعة مابة وكسور، اما النصف عن ثلاثين يوما من وهم في اربعة عشر من محرم، والنصف الاخر عام الستين يوما من التاريخ المذكور، والسكوتة توجهت لمالطه وتبغي تقدم عليكم.

ولا كتبنا لك هذا الجواب الا لاجل تحضروا لها العدد المذكور أما النصف اعطيه انت وديره في حسابك مع جملة تساكرك واما النصف نزله في حساب الباي، لانكم قبل تبغوا تدفعوا اربعين في المائة.

فالحاصل يا ولدي انك تفصل هذه القضية وتهنينا منها كما هو شأنك والمعتاد منك، لأنك تعرف أمور النصارى ونشا فهم من قبل خصوصا هذا الوقت لأنني والله لو كان عندي دارهم حاضرات ما دفعت هذا العدد الآن عندي ولا

حوجتكم تدفعوهم لاني الحال كما لا يخفاك، ها نحن نسهلوا في المراكب ومرادنا توجهوهم ان شاء الله في اول شهر ربيع الأول وربنا يجعل لنا اعانة، فلا تحتاج لزيادة التأكيد في خلاص هذه الدراهم، وقطع مادتهم ويكون الشيء في السر ولا تخبر به حتى الذين معك لئلا يسمع صاحب الشليفه البيضاء، ربما يعمل مثل ذلك انت يا ولدنا تبقى تسهل روحك ونخلص مادة النصارى لانهم اكثروا علينا بالنشاف، فالذي يتحصل من لزمة بني غازي خاصصهم بيه على السواء لانهم ما يزيدوا في النشاف الا اذا اخذوا واحد شيئا زائدا على الآخر، وقد طالت غيبتك علينا وتوحشناك غاية ما يكون لانك عضو منا، وتدفع عنا الهم وتعيننا على الامور الذي ما يقوم فيها مقامك أحد غيرك، خصوصا الان تعددت الشغايل وكثرت من جملتها قنصل الانجليز واطي بنديرته من اجل كواعظ الرومي الذي مات، وتسهيل الشقوف وتسقيد العروبة لانهم الان كلهم مجمولين عندنا وربنا يعيننا على ذلك ويجمعنا بكم على اسر حال في ابرك الساعات واشد الاوقات بحرمة صاحب المعجزات صلى الله عليه وسلم عدد ما مضى وما هو آت وما انت الا ولدنا واقرب ما لدينا من العمال والخواص من الرجال، والله يجيب تصرفات الجميع في الصواب سوى الخير والسلام في 22 محرم 1245هـ.

المرعى بالله عبده يوسف باشا

قره مانلي ايده الله أمين

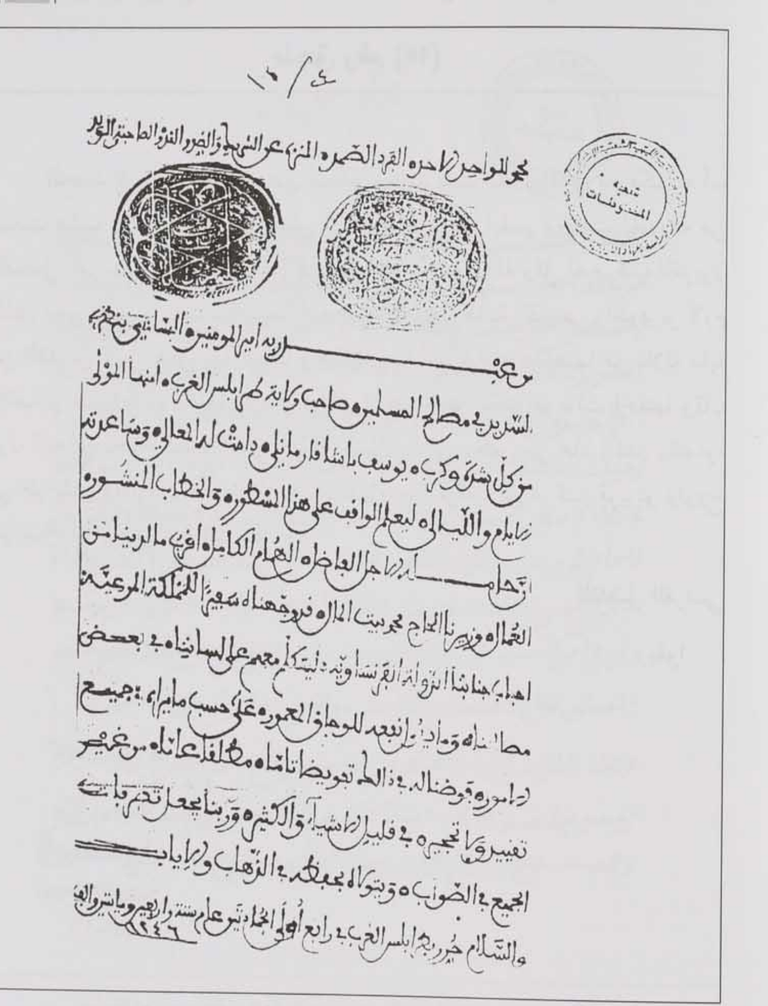
آمين

رسالة من يوسف باشا قره مانلي إلى محمد بيت المال بخصوص البرميستو الخاص بالإنجليز، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 8 ـ 24 ملف محمد بيت المال، المجموعة الأولى والثانية

ملحق رقم (9)

الحمد للواحد الاحد الفرد الصمد المنزه عن الشريك

من عبد ربه أمير المؤمنين. . . بنصره السديد في مصالح المسلمين صاحب ولاية طرابلس الغرب أمنها المولى من كل شره وكربه يوسف باشا قارمانلي دامت له المعالي وساعدته الأيام والليالي ليعلم الواقف على هذا المسطور والخطاب المنشور أن حامله الأجل الفاضل الهمام الكامل اقرب ما لدينا من العمال وزيرنا الحاج محمد بيت المال قد وجهنه سفيرا للملكة المرعية أحباب جنابنا الدولة الفرنساوية ليتكلم معهم على لساننا في بعض مصالحنا وما يقول نفعه للوفاق المعمورة على حسب ما يراه في جميع الأمور فوضنا له في ذلك تفويضا تاما معلقا عاما من غير تقييد ولا تحجير في قليل الأشياء والكثيرة وربنا يجعل تصرفات الجميع في الصواب ويتولاه بحفظه في الذهاب والإياب والسلام حرر بطرابلس الغرب في رابع أول الجمادين عام ستة وأربعين ومائتين وألف سنة 1246.



الحمد للواحد الاحد الفرد الصمد المنزه عن الشريك

السديد في مصالح المسلمين صاحب ولاية طرابلس الغرب امنها المولى

من كل شره وكربه يوسف باشا قارمانلي دامت له المعالي وساعدته

الايام والليالي ليعلم الواقف على هذا المسطور والخطاب المنشور

ان حامله الاجل الفاضل الهمام الكامل اقرب ما لدينا من

العمال وزيرنا الحاج محمد بيت المال قد وجهناه سفيرا للمملكة المرعية

احباب جنابنا الدولة الفرنساوية ليتكلم معهم على لساننا في بعض

مصالحنا وما يقول نفعه للوفاق المعمورة على حسب ما يراه في جميع

الامور فوضنا له في ذلك تفويضا تاما معلقا عاما من غير

تقييد ولا تحجير في قليل الاشياء والكثيرة وربنا يجعل تصرفات

الجميع في الصواب ويتولاه بحفظه في الذهاب والاياب

والسلام حرر بطرابلس الغرب في رابع اول الجمادين عام ستة واربعين ومايتين والف

١٢٤٦

تفويض من يوسف باشا قره مانلي إلى محمد بيت المال، بخصوص التفاوض مع فرنسا، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 11 ـ 24، ملف محمد بيت المال، المجموعة الأولى والثانية.

ملحق رقم (10)

الحمد لله. . . محبنا سيدي الحاج محمد بيت المال الذي نعرفكم به أنه قدمت علينا مرتقاوه فرنسيس على أربعة أيام من طرابلس وجابت له ورقه من القنصل الفرنسيس يقول لنا فيها اكتب للحاج محمد ورقة وقل له مركب القويرن الذي تبغى الفلوس جت لها سبعة أيام قبل التاريخ وطالبة الفلوس والقويرنو لازم من الفلوس لانها عمل لها الباشا وجلة (اجل) عشرة ايام يخلصها في ثلاثة ماية والف فرنك واذا لم تخلص في هذه تبقى تسافر لانها الكنتراته فاتت اجلتها وقال قول للحاج محمد يبعث الذي حصله جملة والذي يخص من هذا القدر يكملوه في طرابلس واذا كان ما صارش هذا الكلام وان تركب في مركب قويرنو وتروح لفرانسا وانا توصي سيادتك بالازم

القنصل الفرنسي

ريغوا



٢٤/ ١٤

الحمد لله محبنا سيدي الحاج محمد بيت المال الذي نعرفكم به انه قدمت علينا
مرتقاوه فرنسيس على اربعة ايام من طرابلس وجابت له ورقه من
القنصل الفرنسيس يقول لنا فيها اكتب للحاج محمد ورقه وقل له مركب
القويرن الذي تبغى الفلوس جت لها سبعة ايام قبل التاريخ وطالبه
الفلوس والقويرنو ابغو الازم من الفلوس لانها عمل لها الباشا
وجلة عشرة ايام يخلصها في ثلاثة ماية الف فرنك واذا لم تخلص
في هاذه تبقى تسافر لانها الكنترات فاتت وجلتها وقال قول
للحاج محمد يبعث الذي حصله جملة والذي يخص من هاذا القدر يكمله
في طرابلس واذا كان ما صارش هاذا الكلام وان تركب في مركب قويرنو
وتروح لفرانسة وانا نوصي سيادتك بالازم من هاذا الكلام يصير
ونقضي كلام القنصل وكلامك والايام كل شي محفوظ
وهاذا الذي قاله القنصل الفرنسيس في طرابلس [illegible]
بيه ونبلغوه لك كيف ما عرفنا هو بيه وانت صاحب [illegible]
[illegible] ربيع الثاني ١٢٤٢ محبكم [illegible]
قنصل الفرنسيس
ريغوا

رسالة من القنصل الفرنسي إلى محمد بيت المال بخصوص ما لفرنسا من نقود والي طرابلس ووصول المركب المطالب بالمال، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 14 ـ 24، ملف محمد بيت المال، المجموعة الأولى والثانية.

ملحق رقم (11)

يوسف باشا قرمنلي

إلى سعادة الاكرم العالي الاعظم صاحب ولاية

طرابلس الغرب ادام الله بقاه

غب اهداء التحية والتسليم واداء مراسم التكريم المنهى إلى جنابكم انه قد ارسلنا اليكم عن يد السيد الحاج محمد بيت المال مرسولكم مكتوب مورخ في شهر الماضي عسى ليدكم باوفر الخيرات لجنابكم واوضحنا في ذالك المكتوب غاية مرغوبنا في ابقاء وازدياد الحبّ والخلوص الكاين بيننا وبين جنابكم ولتاكيد صفوة قلبنا نحوكم اخترنا موسيو شوابل الاعز الفاضل وجعلناه قونصولنا جنرال وكيلنا في مملكتكم وعندكم والقنصول المذكور في ما وليناه من المناسب قد اظهر معرفة تامة بالامور وهمّة صادقة ولاجل ذالك محقق عندنا انه لم يصدر منه الّا ما يرضي جنابنا ويوجب اعتمادكم عليه ونرجو جنابكم تكرمه عليه بحسن القبول وتصدّقوه في كلما يقول لكم عن لساننا لا سيما في ما يخصّ حماية وصيانة جميع الفرانسيز المقيمين في بلدكم ومسعادتهم في أمور متجرهم واشدّ وصيتنا عليه ان يشرح لجنابكم محبتنا الصافية لكم والله تعالى بجزيل خيركم ويطيل دوامكم والسلام

لويس فيليب

تحريراً في قصرنا السلطاني في باري في اليوم الثلاثين من شهر ابريل سنة 1831

يوسف باشا قرمنلى

الى سعادة الاكرم العالى الاعظم صاحب ولاية

طرابلس الغرب ادام الله بقاه

غب اهداء التحية و التسليم واداء مراسم التكريم المنهى الى جنابكم انه قد ارسلنا
اليكم عن يد السيد الحاج محمد بيت المال مرسولكم مكتوب مورخ فى شهر الماضى
عسى ليدكم باوفر الخيرات لجنابكم واوضحنا فى ذالك المكتوب غاية مرغوبنا فى ابقاء
وازدياد الحب والخلوص الكاين بيننا وبين جنابكم ولتاكيد صفوة قلبنا نحوكم اخترنا
موسيو شوابل الاعز الفاضل وجعلناه قونصولنا جنرال وكيلنا فى مملكتكم وعندكم
والقنصول المذكور فى ما وليناه من المناسب قد اظهر معرفة تامة بالامور وهمة صادقة
ولاجل ذالك محقق عندنا انه لم يصدر منه الا ما يرضى جنابنا ويوجب اعتمادكم عليه
ونرجو جنابكم تكرمه عليه بحسن القبول وتصدقوه فى كلما يقول لكم عن لساننا لا سيما
فى ما يخص حماية وصيانة جميع الفرانسيز المقيمين فى بلدكم ومسعادتهم فى امور متجرهم
واشد وصيتنا عليه ان يشرح لجنابكم محبتنا الصافية لكم والله تعالى بجزيل خيركم و
يطيل دوامكم والسلام

لويس فيليب

شعبة الوثائق والمخطوطات

تحريرا فى قصرنا السلطانى فى بارى فى اليوم الثلاثين من شهر ابريل ١٨٣١ السنة

رسالة من لويس فيليب إلى يوسف باشا صاحب ولاية طرابلس الغرب يفيده بتعيين قنصل جديد لفرنسا ويطلب منه مساعدته في تادية واجبه. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 32 ـ 24 ملف محمد بيت المال، المجموعة الأولى والثانية

ملحق رقم (12)

الحمد لله صلى الله على سيدنا محمد

الى الاجل الافضل الوجيه الامثل المحترم والمبجل ولدنا الحاج محمد بيت المال اصلح الله له الحال والمال بمنه وكرمه امين السلام الاتم الاطيب الاعم عليكم ورحمة الله وبركاته ولا رائد سوى الخير يليه اعلامكم موجب الكتب اليكم هو نها قدمت علينا السكونه من مالطة وها نحن بدلنا للمركانتي الانجليز هترووروص تداكره باسمك انت والباى وها هو قادم عليكم تبقوا تخلصوه في تداكره على نحو ما دكرنا لك سابقا وما هو مذكور في الكنتراتة ولابد وهنينا من جانبهم وريحنا من ذلك ولا بد تم ولابد ان يكون عملك على ما دكرنا من غير مزاهدة ولا تراخ وربنا يجيب تصرفات الجميع في الصواب ولا رائد سوى الخير

السلام بتاريخ 7 من صفر الخير 1245هـ

المرعى بالله عبده

يوسف باشا قرمانلي

رسالة من يوسف باشا إلى محمد بيت المال يفوضه فيها في التصرف بالسفينة الإنجليزية القادمة من مالطا، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 48 ـ 24، ملف محمد بيت المال، المجموعة الأولى والثانية

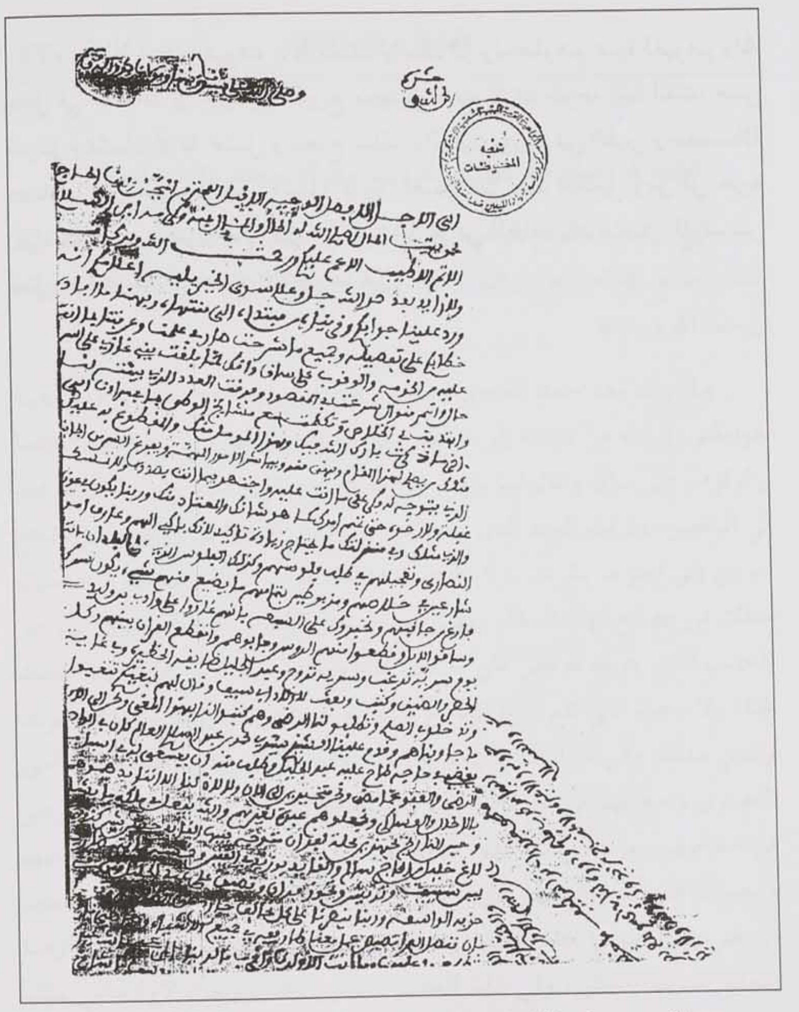
ملحق رقم (13)

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد واله وسلم

الى الاجل الافضل الوجيه الامثل المحترم المبجل ولدنا الحاج محمد بيت المال اصلح الله له الحال والمال بمنه وكرمه السلام الاتم الاطيب الاعم عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولا زائد بعد حمد الله جل وعلا سوى الخير يليه اعلامكم انه ورد علينا جوابكم وقريناه من مبتدئه إلى منتهاه وفهمناه وعرفنا بما انت عليه من الخدمة والوقوف على ساق وانك لما بلغت بنى غازي على اسر حال واتم منوال شرعت في المقصود وفرقت العدد الدى بينته لنا وابتديت في الخلاص وتكمت مع مشائخ الوطن إلى اخر ما دكرت بارك الله فيك وهذا المؤمل منك والمقطوع به عليك متلك من يصلح لهذا المقام ويهنى فيه ويباشر الامور المهمة ويفرغ السر من الجانب الذي يتوجه له فكر على ما انت عليه واجتهد فيما انت بصدده ولا تمسك غفلة ولا رخوة حتى تتم امرك كما هو شانك والمعتاد منك وربنا يكون في عونك والدي متلك وفي منزلتك ما يحتاج زيادة تأكيد لانك باكي الهم عارف أمور النصارى وتعجيلهم في طلب فلوسهم وكدلك الفلوس الذي على البلدان شارعين في خلاصهم ومزبوطين بتمامهم. ما يضيع منهم شي يكون سرك فارغ من جانبهم وتجبروك على السبعة بانهم غاروا على وادي بني وليد وساقوا الابل قطعوا منهم الروص وجابوهم وانقطع القران بينهم وكل يوم سريه ترغب وسريه تزوج وعبد الجليل ضايقة الحظيرة وفي غاية الحصر والضيق وكتب وبعت لاولاد ابي سيف وقال لهم نبغيكم تتعبوا وتدخلوا في الصلح وتطلبوا لنا الرضى وهم كتبوا لنا بهذا المعنى ونحن إلى الان ما جاوبناهم وقدم علينا الشيخ سعد بن محمد بن عبد السلام العالم كان في الوادي يقضي في حاجة طاح عليه عبد الجليل وطلب منه ان يسعى له في اسباب الرضى والعفو عما مضى ونحن متحيرين إلى الان

ولالاه لنا الا اننا ندهبوهم بالا محال والعساكر ونجعلوهم عبرة لغيرهم والله يفعل في ملكه ما يشاء وحين التاريخ مجهزين محله لفزان متوجه فيها القائد حسن شركز وعثمان لاغا خليل والحاج سالم والقايد بوزيد في الفين وخمسمائة مضارب بين سبيب وتريس وتحوز فزان وتضيق على عبد الجليل ومن في حزبه الواسعة وربنا ينصرنا على كل مخالف خارج عن الطاعة بان قنصل الفرنسيس عمل معنا طرتقة في جميع الاشياء ها هي



رسالة من يوسف باشا القره مانلي إلى محمد بيت المال تتعرض إلى ذكر عبد الجليل سيف النصر وطلبه رضى يوسف باشا عليه وتوسطه في طلب ذلك، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 12-24، ملف محمد بيت المال، المجموعة الأولى والثانية

ملحق رقم (14)

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

إلى الأجل الاكمل المحترم المبجل ولدنا سيدي الحاج محمد بيت المال اصلح الله حاله أمن السلام الكامل الاتم ورضوانه الشامل الاعم عليكم ورحمة الله وبركاته بحمد الله جل وعلى سوى الخير ويليه اعلامكم من شأن كنا كتبنا لكم جواب غير هذا وعرفناك فيه بجميع الاخبار والان قدم علينا رقاص من فزان من الباي محمد سركز على خمسة عشر يوم وخبرنا على بلد مرزق محصورة من أولاد سليمان وورفلة وناض بينهم البارود وعاركوا الباي محمد ومات منهم خمسة وعشرين نفر وساعة الكتب موجهين القايد حسن بن عبد الله بمحله لفزان فيها ثلاثة آلاف مضارب.

وقدم علينا البريد متاعنا الذي عند المستر روا من سكندرية على سبعة عشر يوم موسوق بالحجاج الاطرابلسية واجتمعوا لنا جميع القناصل متاع البلاد وطلبوا منا تطريد البريك بما فيه من الحجاج خوفا من الامراض الغريبة الذي يخبروا فينا ساعة واحدة بموت بنادم من غير تطويل بسبب ذالك طردناه يرجع للاسكندرية ولا ثانيا ويروحوا الحجاج من هناك في البر فالذي يكون عليه عملك تعلى حسك على مرست درنة وبني غازي وجميع المرسى التي على ساحل البحر الشرقي ان جميع الشقوف الوارد من ناحية الشرق ما ينزلوا ولا يقربوا بلاد ولا نخلوهم ينزلوا الناس من المراكب وازبطوا الكرنتينه .. سرنا من هذا الجانب.

وقد اخبرونا على الجوازي الحمر قدموا لطرفكم من الشرق على طريق أوجلة ولم تعلموا حقيقة حالهم وأمرهم عليه تبقى حين وصول الجواب اليك تبعث لهم من يلاقيهم على بره، الحاج رمضان الادغم واخيك على الذين باوجلة يأخذوا خبرهم وحقيقتهم ويفحصوا لنا امرهم وخود منهم الرهائن بعدما تقابلهم وتبيت امرهم على كل حال ظاهر وباطن بجميع خبرهم الخافي والباين ولا

تخليهم يقربوا العرب الا بعد ما تفتش حقيقتهم ويعطوك الرهائن وربنا يكون في عونك ويجيبك في الصواب بجاه النبي الاواب ولا رائد سوى الخير والسلام

في 1 من ربيع الثاني 1247هـ

من المرعى بالله

عبده يوسف باشا القره مانلي

رسالة من يوسف باشا إلى محمد بيت المال تتعلق بموضوع الحجاج الطرابلسيين القادمين عن طريق المهجر من الإسكندرية والمرض الغريب المتفشي بينهم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 13 ـ 24، ملف محمد بيت المال، المجموعة الأولى والثانية

ملحق رقم (15)

الى حضرة الاجل الفاضل الافضل محبنا واعز الاحباب عندنا سيدي الحاج محمد بيت المال، اكرمه الله امين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته والله نخبرك به الخير ان شاء الله، وكنا سابقا لنا ارسلنا لك جواب مع القبطان طومار وفيه عرفناك على التفصيل وساعة الكتب انا متألم لا تؤاخذنا ما نقدر التطويل ان شاء الله يشفينا الله ونعرفوك مع غير هذا وانا مرادي نريد تمسك المركب يوم الاثنين ونعطيه مصروفه عشرين أو خمسة وعشرين دور لاجل باش نعرفك على اخبار ورفلة وما يجرا من البداية إلى النهاية وتعلم سيدي يوسم 9 من ثاني الجمادين قدم من المحلة من المحلة المنصورة زوز شواشنة واحد منهم محمد بن عصمان واحمد الفرطاس وكتب معهم الباب جواب إلى . . . . من أجل ان المحلة طولت والباش تحير وجميع الناس . . . . . لما قدموا له . . . . رحلت المحلة من ترهونة نزلت بينها وبين كوارغلية مصراتة سارق ابل من مصراتة وهرب إلى الوادي ولما ركب عبد الجليل وجيشه ركب، الكورغلي معهم لما رآه عبد الجليل معهم امستخونه وقال لهم ردوا هذا قالوا له ارجع، قال كيف نرجع انتم رجال وأنا مرأة قالوا له قال الشيخ اقعد في ذالك العلوة، فال ما نقعد كان تريدوني نرجع للوادي ترجع قالوا له ارجع . . . . عبد الجليل وجيشه على المحلة وصلوا لها في الأربع ساعات ووزع الناس بالعركة عن المحلة وبقي بينهم الطراد والمدفع ما بطل بالدويلي وهم اشد ما يكون واذا بالكورغلي خلف فرسه ونزل تراس يمشي وملأ غدريته وما زال سائر على ان وصل إلى عند عبد الجليل ضربه بذلك الغدري . . . اجله جاءت في الحصان ضربه وهو سلم وهرب الكورغلي، وجاء إلى المحلة . . . .

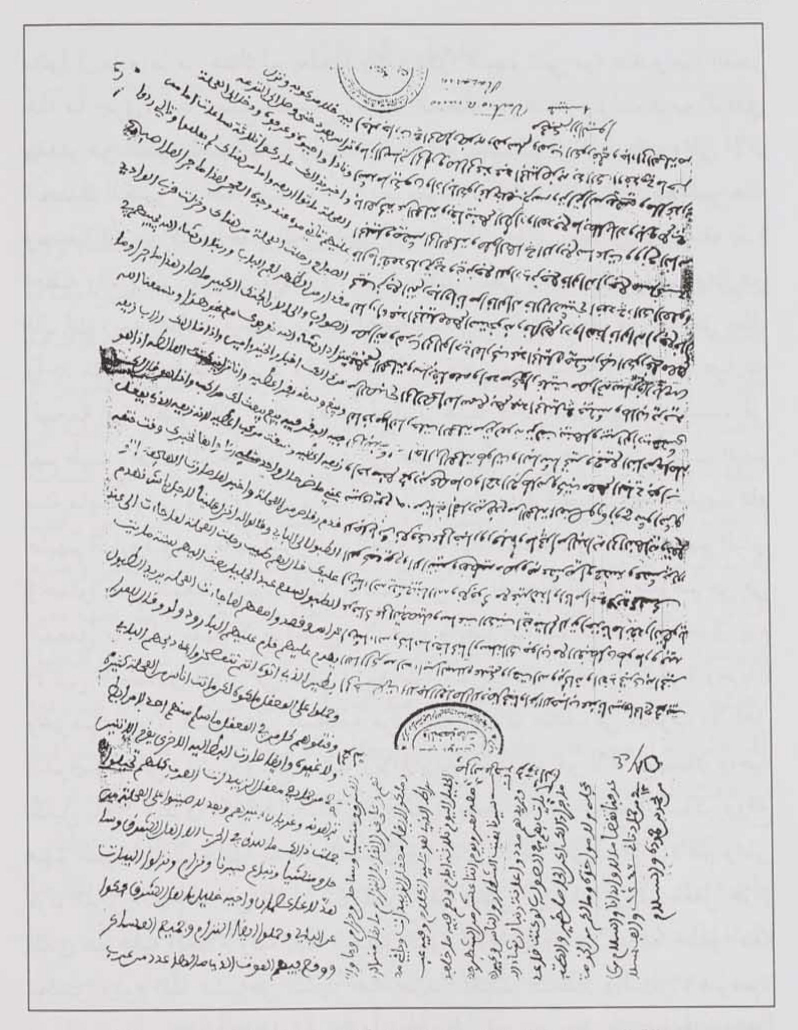
من محبكم زواليو

فيه خلّا مركوبه ونزل تراس يمرد حتى وصل على الترعة، ونادا واجبوه وعرفوه ودخل إلى المحلة واخبر بذلك عاركوا ثلاثة ساعات، اما من المحلة

ماتوا اربعة واما من هناك لم يعلموا وتالي ردوا عليهم ثاني مرة عند وجوه الفجر هذا ما جرى، لما اصبح الصياح رحلت المحلة من هناك ونزلت قرب الوادي مقدار من الظهر لفم الباب وربنا ان شاء الله يجيبهم في الصواب والى الان الجندك الكبير ما صار هنا ما جرا وما ينزاد ان شاء الله فعرفوك مع غير هذا وسمعنا الله من ذلك اخبار الخير امين واذا قال لك رزاي زيمه ويبغي وسقه بقرا اعطيه وانا تراني كتبت المالطة اذا هو فيه البقر يبغي يبعث لك مراكب واذا هو قال لك زيمه اعطيت وسقت مركب اعطيه لانه زيمه الذي يفعل عني ما حق حال واحد مثلي انا وايضا نخبرك وقت حنفه قدم رقاص من المحلة واخبر لما صارت الهجمة اتوا الطبول إلى الباي وقالوا له انزل علينا لاجل باش نهدهم عليك، قل لهم طيب رحلت المحلة لما جاءت إلى عند الطبول سمع عبد الجليل بعث اليهم ستة مايت تراس وقعدوا معهم لما جاءت المحلة يريد الطبول يهدم عليهم قام عليهم البارود ولو وقال للمرابطين الذي اتوه انتم تتمصخروا على دبحهم الباي وحملوا على المعقل ملوه، لكن ماتت اناس من المحلة كثيرة وقتلوهم من في المعقل ما سلم منهم لا مرابطين ولا غيره وايضا صارت البطالية الاخرى يوم الاثنين 9 جمادى الثاني في معقل الزبيدات، العرب كلهم تحيلوا بترهونة وغريان وغيرهم وبعد لا صيتوا على المحلة، من جملة تلك ما صدف في الحرب الا اهل الشرق وساحل ومشينا وتباع سيدنا ونزام نزلوا البيات، هو لاغا عصمان واخيه خليل باهل الشرق فكوا على الباي وحملوا ايضا التزام وجميع العساكر ووقع فيهم الموت الذي حالها عدد من الشرق ومنشيا وما حل ونزام وما والاهم وعلى قول القائل التزام ما بقي منه . . . وملكوا ايضا معقل الزبيدات وباقي معقل حرار الذي هو عليه الكلام وفيه عبد الجليل اليوم ثلاثة أيام وهم فيه ما خلقوا معه تحسرا ويوم اثنا عشر من الشهر جاء سيدنا بقيت الشطار والناس وغيرهم، ويريدهم مدد واعانة ربنا ان شاء الله يأت بهم في الصواب، لو كنت قاعد ما جرا ذلك لكن الحاصل خير والكتب عجلة ولا مواخذة ومالكم من الخدمة عرفنا

في 13 جماد ثاني 1247هـ

محمد بن حموده والسلام



رسالة إلى محمد بيت المال يتحدث عن أخبار ورفلة وترهونة ومصراتة وعبد الجليل وبتوقيع كل من زواليو ومحمد بن حمودة، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 58 ـ 24، ملف محمد بيت المال، المجموعة الأولى والثانية

ملحق رقم (16)

عبد الجليل ابن سيف النصر يكتب إلى مصطفى قرجي ليتوسط لدى الوالي بان يجيب على الرسائل التي بعثها له يعرض عليه الطاعة والدخول تحت حكم الدولة.

الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا محمد واله وسلم

الاجل الأفضل المحترم محبنا في الله ورسوله سيدي مصطفى بن عبد الله قرجي اكرمه الله امين السلام الاتم عليكم ورحمة الله وبركاته هذا ولتعلم اننا راسلنا والى النعم باجوبة عديدة سابقا احدهما صحبت سيدي حسن بن نيران وعلمناه فيهن بنشر الطاعة ومرادنا في اطفا نيران الفتن لتكون الناس في امن وامان وترتاح العباد نقولوا ان شاء الله بلغنه واطلع على ما فيهن لا من الفتن بين المسلحين في بعضهم معرة في الدين امام الوجاقات والقرانات ولبست بطريقة مستقيمة والذي مثلك انت تعرف الاحوال وتعرف مواجبنا وطريق ابائنا واسلافنا وما وقع في الماضي امر وقدره الباري والقضي لا يرتد والقصد في الحاضر والمستقبل فها نحن بلغنا سرت ولا قدمنا الا لاجل خدمة الدولة العلية وما يجلب لنا رضاها قولا وفعلا وطلب سبل الستر على العباد فالذي هو واجب لنا من والى النعم وملازمنا الجارية كما انت تعرفهن فلا يكن منه فيهن تقصير مع مبات الكلمة التامة والذي في جنابنا نحن لم يكن عندنا فيه تقصير ويتم بحول الله وقوته وها نا وجهنا اليه واليكم جوابا ومنتظرين لما ياتي منه ومنكم مع العلم لما اشرناه وفيه كفاية والسلام بتاريخ 18 في صفر الخبر سنة 1258 عبده عبد الجليل وفقه الله.

الحاصل انت راجل من السابقين وتعرف الناس ومنازلها ونحن بقولنا ننشروا ما نتباعوا ولا مضى منا سابقا ذنب يودي إلى شبه ذلك نحن اشوا ذنب من ساير الناس واهل الدولة العلية منسوب عليهم الحملان والمجاوزة وكثرنا التكرار بالمراسلة ولم نروا منكم رجوع جواب فليس ذلك من الواجب وهذا ما واجب

علينا المناجاة وطلب الهنا الذي اوجبت الشريعة المحمدية ان وجدناها فهذا المقصود وان لم نجدوها اما نرفعوا الامر على طريق اخرى والا الامر لله وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن والسلام وقولنا على طريق اخرى بل لا سلام بل ولولا الحشم والحسب من العمالة لما اتصلنا لذلك كله لاننا من فضل الله اهل وسع ولا نحسبوا طلبنا في راحة الضعفا والمساكين يقع فيها المحالهاه والمناساة مع الاخوة والحاصل ان وجدنا بيات الكلمة جميع ما ياتي على وفق مراد والى النعم ما عندنا فيه تقصير وان لم نجدوا فنحن بريئون من اثم الفقراء

والسلام

رسالة من عبد الجليل يتوسط فيها لدى الباشا، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس، وثيقة رقم 66 ـ م2 ـ ح 1، ملف الشئون الداخلية

ملحق رقم (17)

الحمد لله

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

صار نفاق في بلد بني وليد في دولة يوسف باشا قارمالي عام 1247هـ ورفلة وقدادفة نافقوا وعقلوا في سرار في السعدات وفي قصبة الحصنة وحشد لنا محلة خمسة واربعين الف من كل قبيلة من بلدين بني غازي إلى وطن سيدي ابوعجيلة اهل برقة الزاوية والحسون والفرجان وعبادله ومعدان وتاورغاء ومصراتة وعربها وبلد بزليتن والعمائم والساحل ومسلاتة البلدين والجفارة جملة وترهونة وناس تاجوره وطرابلس وجنزور والزاوية الغربية ورشفانة وارقيعات وعكاره وختنة وعلاونة وعجيلات وغيرهم وناس غريان واصابعة والسبعة وأهل مزدة والزوايد والحطمان. ولا قعد عنا احد، ولا نفعنا الا الله تعالى.

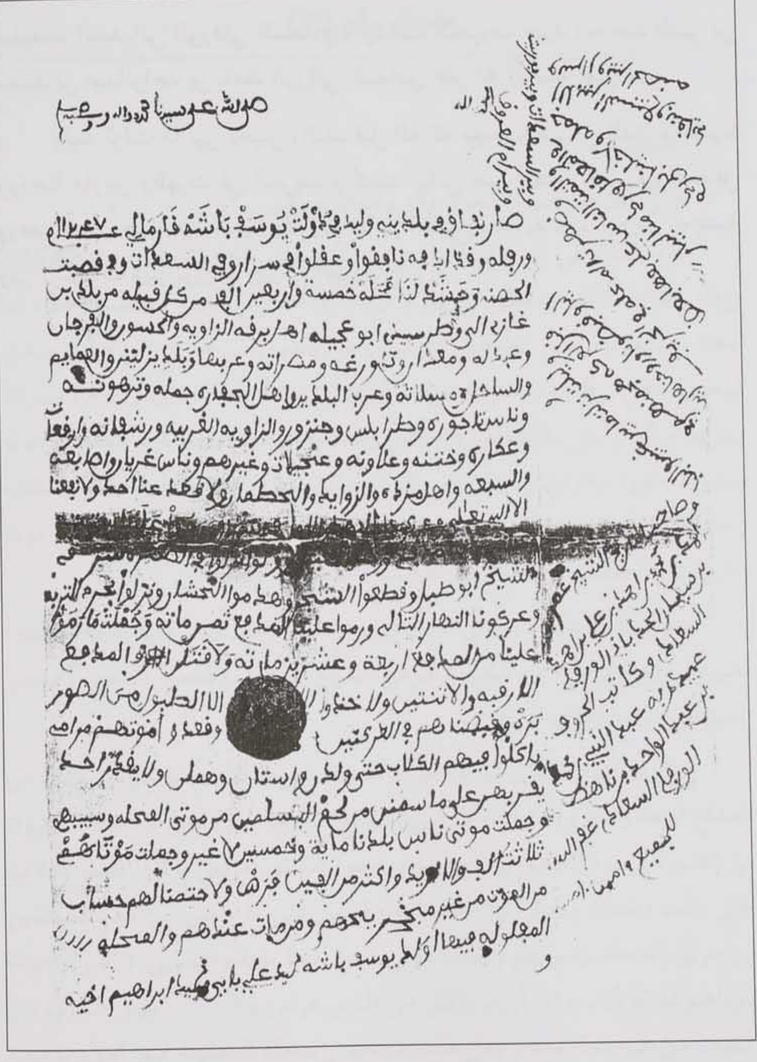
وعركونا النهار الاول في سرار ورموا علينا ستت عشرماية مدفع ورحلوا لغبين، وولوا نزولوا في الظهرة شرقي الشيخ أبوطبل وقطعوا الشجر وهدموا الحيشان ونزلوا بحري التربة.

عركونا النهار التالي ورموا علينا المدفع ثمن مائة وجملة مارموا علينا من المدفع أربعة وعشرين ماية، ولا قتلى المدفع الا رقبة والا تنتين ولاخذوا الطبول من الصورة بره وقبضناهم في العركتين وقعدوا امواتهم مرامي يأكلوا فيهم الكلاب حتى ولدن واستان وهملن ولا يقدر احد يقربهن على ما سمتن من لحم المسلمين من موتى المحله وسببيهم وجملة موتى ناس بلدنا ماية وخمسين لا غير وجملة موتاهم ثلاثة ألف والا أزيد واكثر من الفين فرص ولا .... لهم حساب من الموت من غير مجاريحهم ومن مات عندهم والمحلة المفلولة فيها اولاد يوسف باشه سيدي علي باي وسيدي ابراهيم اخيه.

وصاحب التاريخ الشيخ عمر احمد بن محمد بن احمد بن علي بن احمد بن

سليمان الحدياني الورفلي السعادي، وكاتب الحروف عبيد ربه عبد النبي بن محمد بن عبدالواحد بن ناهظ الورفلي السعادي غفر الله للجميع آمين آمين

وليلة نزلت ما بين نحبين والبلد قبل العركة مجمعنا هم في الليل وقبضونا وروحنا هاربين وظهرت في الخريف والتمت الناس على بعضها بعض في المعاقل وردمنا لبيار جملة ولا خلينا بلا ردم الابير السبيع وبنقايد وسرار وبير الحصنة وبير السعدات وبير بوريشه وبير ام العروق



حرب عبد الجليل سيف النصر مع ورفلة،

مختار بن يونس مكتبة خاصة

ملحق رقم (18)

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

الى المكرمين الاجلين اولادنا الشيخ يوسف بوشيبه والشيخ موسى جروا نصر اصلح الله حالهم امين، السلام الاتم عليكم ورحمة الله وبركاته، ويليه اعلامكم موجب الكتب اليكم من شأن نخبروكم على ما وقع في اهل وادي بني وليد او ما حل بهم من سوء الحال، وقتل الرجال بانهم لما توجهوا لهم الاسعدين بن الاشدين انجالنا سيدي علي بي وسيدي ابراهيم بي بالامحال، المنصورات قاصدينهم في حصونهم بالعين القوية فاول واقعة وقعت عليهم لما نزلوا الامحال باسفل الوادي قبل ان يصلوا إلى قربهم، سولت لهم انفسهم الخبيثة. . . وتربس يبغوا يهجموا الامحال في الليل فوجدوهم على اهبة واقفين. . . والمدافع في كل ترعة وناض عليهم البارود من كل ناحية مدة ثلاثة ساعات، والمدفع خدام بالدويلي والكور والرصاص كذلك، ولم ينالوا شيئا وانهزموا مقبوضين خايبين، ومات منهم في هذه الليلة ماية وخمسين رقبة من غير المجاريح، والمحلة لم يمت منها احد حتى رقبة واحدة وفي صبحية الهجمة رحلت المحلة المنصورة ونزلنا بقرب صرار الذي عاقلين فيه ورفله كلهم الفوقين ولوطين، ومعقل بن قايد، واحاطت بهم العساكر وهموهم أمام معقل بن قايد اخذوه في اسرع. . . وقتلوا من فيه وفيوه، واما معقل سرار محصن ركحت فيه العركة وطالت وتلاقت مرات يطلعوهم من المتاريز ويرجعو له وبقت الناس تشفع لهدوا اولاد بوسيف وطاح على الاسعد بن الارشدين انجالنا البيات وطلب منهم العفو فاخذوا بخاطرهم وكفوا الناس عن القتال فمات من أهل وادي بني وليد اربعة ماية رقبة من غير المجاريح ما لهم احساب اما الخيل التي جنيوهم اهل المحلة ماتين فرس من غير الذي ماتوا واجرحوا واما المحلة ما مات منها الا ماية وخمسين رقبة من كل نسية اثنين ثلاثة ما فيهم من متسمي الا ولد الشيخ

بلقاسم بن منتصر وولد . . . بن ابراهيم من عيلة الادغم والحاج احمد بن عبد الصمد بن سلطان، وشرعت العساكر في هدم الديار وتقطيع الاشجار ولم يبقى لورفلة من سرار إلى دفع الوادي زيتونة ولا نخله ولا حوش مبني ثم قدموا علينا المرابطين أولاد بوسيف وغيرهم وطلبوا منا العفو والصفح وحقن دماء بقيتهم، فساعدناهم وأخذنا بخواطرهم، وسعينا بركتهم بعد ان التزموا لنا ان عبد الجليل وورفلة يعطونا عشرين رهين من خيارهم ويعطوا الف وخمسمائة ناقة ومائة وخمسين راس عبد ويرجعوا جميع ما اخذوا من فزان بتمامه ولما تحملوا لنا بهذه الشروط، وجابوا الرهاين وصلوهم للقيطون الباي عفونا على اهل الوادي ورفعنا عنهم القتال، واما الباي محمد شركز باي فزان بانه مات مريضا رحمه الله عليه وابنه احمد ومن معه فحين يبلغهم (كذا) المكني روحوا على خير وعافية يكون هذا في علمكم، وما انتم الا اولادنا او خدامنا وربنا يجيبكم في الصواب ويرشدكم لما يرضينا، ولا زيادة سوى الخير والسلام.

بتاريخ . . . من رجب الاصب 1247هـ **من المرعى بالله عبده يوسف باشا**

القره مانلي ـ أيده الله آمين

رسالة إلى كل من الشيخ يوسف والشيخ موسى جروا تدور حول المعركة التي وقعت بين أهالي بني وليد والعساكر بقيادة علي باي وإبراهيم باي وطلب الأهالي العفو بعد ذلك وتعداد لعدد القتلى والخسائر المترتبة على تلك المعركة، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 20 ـ 24، ملف الأسرة القره مانلية

ملحق رقم (19)

من محروسة طرابلس الغرب إلى عروسة تونس الموارخ/ 21 صفر 98

الى حضرة الاجل الفاضل المحترم الاعز عوض مقام ولدونا سيدي الشيخ محمد الخازمي يكون في . . . . سعيد . . . . شهيد وأما بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وازكى تحياته وقبل هذا حررنا اليكم جواب الموارخ 14 صفر سنة 98 وعرفناكم فيه كبداية تعلم يا سيدي يوم الخميس قدم بابور الطليان على طريق مالطة ولم وجدنا منكم جواب ويوم الجمعة مع التاريخ قدم من طرفكم بابور . . . . لم وجدنا منكم جواب لعله المانع خير ان شاء الله وان شاء الله . . . لاسو لا سويه بجاه محمد عليه السلام ويأتيك على هذا الجواب زوج . . . عنهم مائتين ليره اتيلز 200 عدد عنهم . . . 25400 سعر ليره اتيلز 127 خمسة عشرين الف واربعمائة . . . هذا الجواب الكمبيالات وتعرف بن شمعون ياخد لنا عشرة بتاتي . . . ميزان الغالب كيلو عدد والضايع يكون احمر احسن من الاكحل وتاخد لنا . . . قطن مغزول ازرق ويكون زايد الصباغ ادكن من الأول ويزيد القطن تغطيسه باش يكون طيب الانه القطن الاول فاتح وتعرفنا على ذلك وتحرص على الخام خمسة ليراه وخمسة ونصف ومن غير ما . . . على حضرة سيادتكم تعرف لي وبن شمعون وربنا يسخر لنا ولكم الاحوال بجاه محمد عليه السلام والقادم اليكم في هذا البابور حضرة البلدية طرابلس غرب سيدي احمد افندي النائب ومعه حضرة الشيخ الحاج محمد بن مصطفى في مدة ورغمه ومن غيري مأمورية على حضرة سيادتكم يكون .. البال منهم لان سيدي احمد افندي النائب من اكبار البلاد واعز وسيدي حضرة الشيخ اعز الاحباب ويوم التاريخ قدم لنا جواب من باريس وبلغنا فيه بعض . . . الريش الذي خلاص عرفناهم في البيع وبلغ سلمنا إلى ابناكم وكافة الاحباب وهذا ملزم وعرفانكم فيه وما يلزم مرقوف على التصريف والسلام من عرض ابنكم محمد بن الحاج عبد الله الصقر.

رسالة تجارية من السيد عبد الله الصقر بطرابلس
إلى الشيخ محمد الخازمي التاجر التونسي، دار المحفوظات التاريخية،
طرابلس، وثيقة رقم 145 ـ م6 ـ ت ج، ملف التجارة

ملحق رقم (20)

إلى حضرة مقام الصدارة (رياسة الوزراء)

20 كانون الثاني 1323

2 فبراير 1908

توضع إلى الظرف (سري)

رقم 25

ان بنك روما الذي احيط معالي فخامتكم علما بكيفية فتحه من المخابرات الجارية بدأ في تنفيذ اغراضه بكل قوة وهي وضع اسس للتدخل واحداث المشاكل واستملاك الاراضي لتوطين المهاجرين الايطاليين وتزيد نفوسهم في هذه الولاية وفي متصرفية بنغازي والحقيقة احيل هنا دون شراء البنك لاملاك الاهالي السذج رغما على دفعه اثمانا تزيد على قيمتها ببضع مرات وذلك بتقديم القروض الكافية من طرف البنك الزراعي الذي زود اخيرا بمبلغ اثنين وعشرين الف جنيه وفرع البنك العثماني لذوي الحاجة من الاهالي ولكن حسب الاخبار والتحقيقات الموثوقة ان معاملات البيع والاستملاك في بنغازي تسير إلى الامام.

وحيث أن بعض الاجانب هنا قاموا ببيع عقاراتهم التي تملكوها منذ وقت مضى فقد اتخذت بعض التدابير اللازمة والممكنة في هذا الشأن

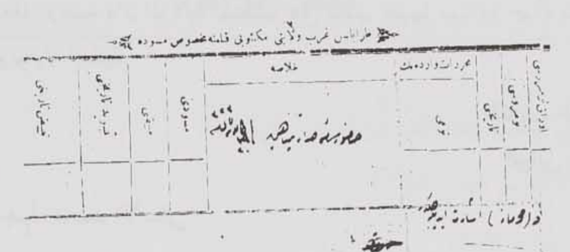
من المعلوم ان بروتوكول الاملاك والاستملاك يسمح للاجانب بشراء اراضي واملاك وتملكها تملكا شخصيا منفردا لسكناهم غير ان تملك الاراضي والعقارات من طرف مؤسسة مالية كبيرة كبنك روما الذي فتح سياسيا لهذه الغرض والذي انهمك في شراء الاملاك والاراضي من كل نوع باثمان مغرية منافسا بذلك الراغبين في شرائها من الوطنيين يخالف احكام بروتوكول الاملاك والاستملاك

ولا يقبله العقل وعليه فان الولاية تستفسر هل يجب عليها مساندة جرأة بنك روما في اعماله ونواياه العلنية.

الكاتب العام فؤاد

الوالي رجب

المترجم/ محمد الأسطى



تقرير مقدم من الكاتب العام للوالي رجب باشا إلى رئاسة الوزارة تحت عنوان (سري) يبين فيه أعمال بنك روما الذي افتتح بطرابلس حيث قام بشراء الأراضي، والتوسع فيها وإحداث المشاكل وتقديم القروض كوسيلة للتمهيد للغزو، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 6، ملف رقم 33، ملف وثائق التمهيد للغزو.

ملحق رقم (21)

17 ابريل 1908

تقرير بنك روما إلى قنصل ايطاليا العام

في 16 ابريل قررنا تشغيل خط بحرى للسفر بين مصراتة وطرابلس وارسلنا اعلاناتنا بذلك للتجار المصدرين بطرابلس كما اعلمناه بواسطه المنادى في الاسواق والشوارع وعلى اثر ذلك اتصلت بمكتب وكالتنا للبواخر جماعات كثيرة جلهم من الترك والعرب، واستفسروا من تعريفه السفر والشحن فوجدوها ملائمة ولكن بعد ان دارت شائعات بان الحكومة المحلية سوف لن تسمح لرعاياها بركوب الباخرة قل عدد المراجعين.

وهؤلاء الاشخاص الذين اخذوا تذاكر لاجل السياحة

درجة أولى إلى الخمس	كاوالير دانتي بالداري
درجة أولى إلى مصراتة	ماركو مارو للي
درجة أولى إلى مصراتة	م. ازميريلي
درجة أولى إلى الخمس	كارميلو زميت
درجة ثالثة إلى الخمس	بيزاني سالو اتوري
درجة ثالثة إلى الخمس	نانالينو بوزانقه
درجة ثالثة إلى الخمس	الأسطى محمد
درجة ثالثة إلى الخمس	عبد القادر
درجة ثالثة إلى زليطن	الحاج المختار
درجة ثالثة إلى الخمس	مصطفى

البضائع:

إلى زليطن : 1855 كيلو غرام من الحاج خليفة الجعفري سكر وبن

إلى مصراتة : 590 كيلو غرام من محمد المبروك اقمشة

إلى زليطن : 260 كيلو غرام من دائرة الاحتكار تبغ وسجائر

إلى الخمس : 195 كيلو غرام من دائرة الاحتكار تبغ وسجائر

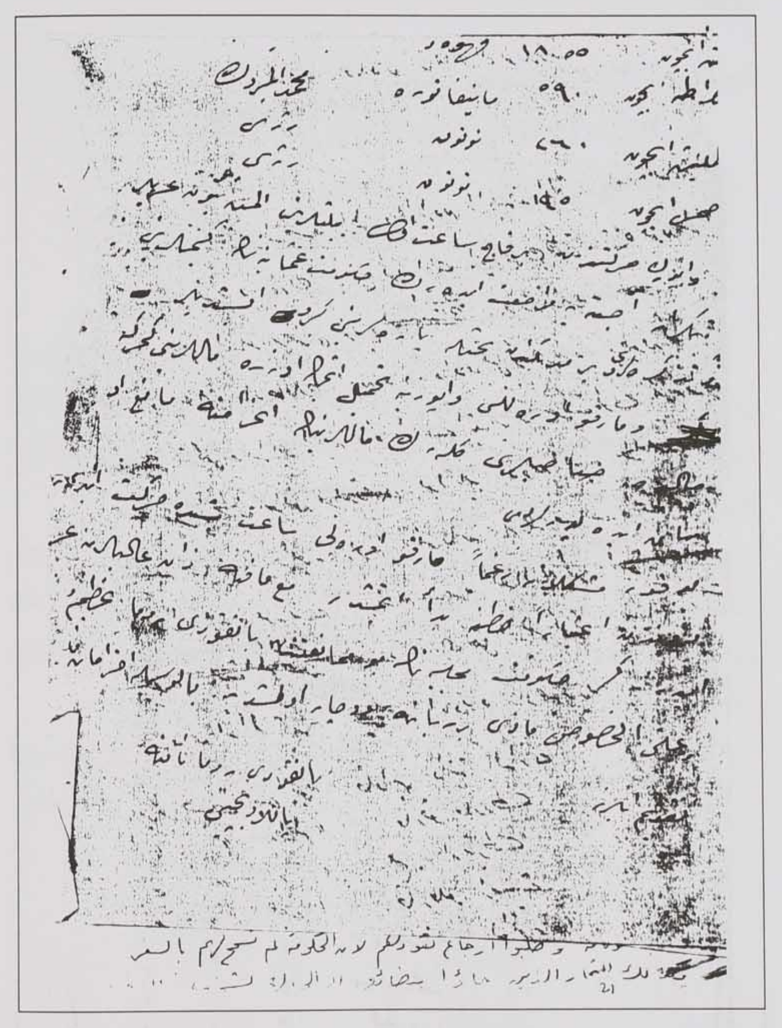
وقبل سفر الباخرة ببضع ساعات جاء كل العرب الذين اخذوا تذاكر السفر لمكتب الوكالة وطلبوا ارجاع نقودهم لان الحكومة لم تسمح لهم بالسفر وكذلك التجار الذين جاؤا ببضائعهم إلى الجمارك لشحنها في الباخرة «ماركو وريليو» عدلوا عن تحميلها.

ورغما على كل هذه العراقيل سافرت الباخرة ماركو اوريليو في الساعة الخامسة مبتدئة رحلاتها اعتبارا من الامس. ومع هذا فاننا نفيد معاليكم بان بنك روما اصيب باضرار مادية ومعنوية عظيمة من جراء هذه المقاطعة التي اجرتها الحكومة المحلية وبهذه الوسيلة تقدم احتراماتنا الفائقة.

عن بنك روما

باللاريجي

المترجم محمد الأسطى



تقرير بنك روما إلى قنصل إيطاليا العام يبين فيه ما اتخذ من وسائل لتسير خط بحري بين كل من طرابلس ومصراتة ومساعدة التجار والمسافرين ثم تدخل الحكومة العثمانية ومنعهم من ذلك، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 7، ملف رقم 33، ملف وثائق التمهيد للغزو.

ملحق رقم (22)

برقية من زوارة

إلى ولاية طرابلس الغرب

سيقدم إلى هنا حميده القاجيجي ورفيقه لتأسيس بنك روما لأجل التجارة استأذن عن كيفية المعاملة التي ستتخذ في حقهما.

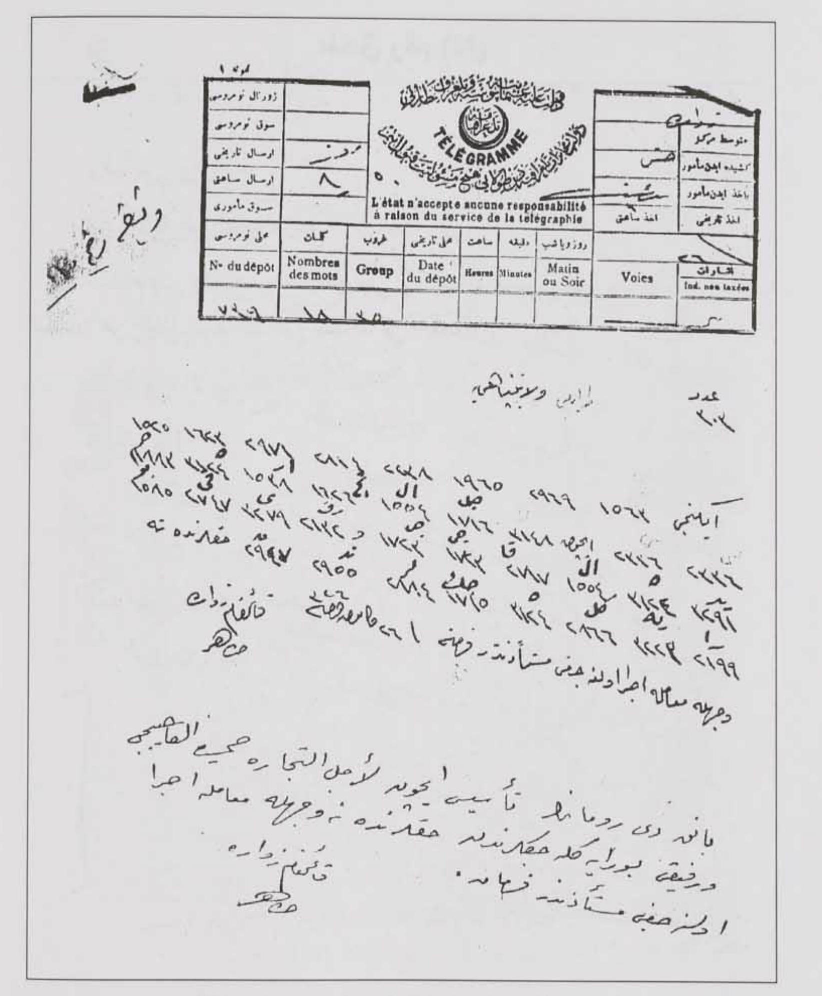
26 كانون الأول 1326

8 يناير 1910

قائمقام زوارة

الطاهر

المترجم/ محمد الأسطى



TÉLÉGRAMME

L'état n'accepte aucune responsabilité à raison du service de la télégraphie

N° du dépôt	Nombres des mots	Group	Date du dépôt	Heures	Minutes	Matin ou Soir	Voies	Ind. non taxées

استفسار من قائم مقام زوارة الطاهر بخصوص قدوم القاجيجي ورفيقه لأجل تأسيس بنك روما وما يجب اتخاذه حيالهما، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 10، ملف رقم 23، ملف وثائق التمهيد للغزو.

ملحق رقم (23)

برقية بالشفرة

إلى حضرة حامي الولاية

إن فائق[1] نعامه المقيم بطرابلس القائم بأعمال الرهن والشراء باسم بنك روما أرسل في هذه المرة الشيخ الطيب المسعودي الطرابلسي وخلافو[2] الطويل لإجراء معاملة رهن منزل وسانية ومعصرة الحرشاء مقابل تسعين جنيها وقد راجعا المذكوران المحكمة في هذا الخصوص

اعرض هذه المعلومات واستأذن عن كيفية معاملتهما

16 شباط 1326

1 مارس 1910

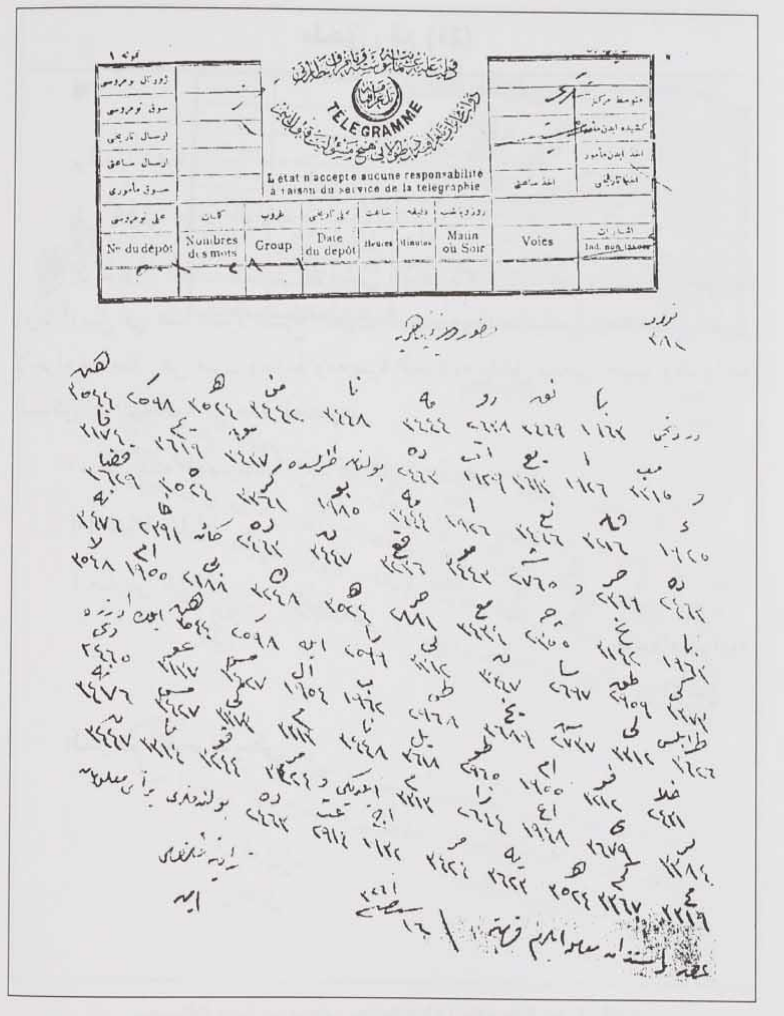
قائمقام الزاوية

الأمين

المترجم محمد الأسطى

(1) فائق نعام مسيحي من الموصل (العراق) تم تحصيله في روما، يتقن الإيطالية والتركية والعربية واللاتينية واليونانية والفرنسية.

(2) خلافو الطويل يهودي من طرابلس.



TÉLÉGRAMME

L'état n'accepte aucune responsabilité à raison du service de la télégraphie

N° du dépôt	Nombres des mots	Group	Date du dépôt	Heures	Minutes	Matin ou Soir	Voies

برقية من قائم مقام الزاوية الامين يستفسر فيها عن كيفية معاملة كل من فائق نعامة والمسعودي اللذين جاءو إلى الحرشاء لإجراء عملية رهن لصالح بنك روما، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 11، ملف رقم 33، ملف وثائق التمهيد للغزو.

ملحق رقم (24)

مقاومة الأهالي للتغلغل السلمي الإيطالي

إلى حضرة الوالي

علمنا مما نشرته الصحف الاجنبية ومن البرقيات التي وزعتها مختلف المصادر الاوروبية بانه قد اسند تنفيذ مشاريع وهي انشاء ميناء طرابلس ومد خط للسكة الحديدية لشركة ايطالية وان سفير الدولة العثمانية بروما قد ايد هذا الخبر.

ان اطماع ايطاليا نحو هذه الولاية التي يخيل انها خالية وليس لها من يذود عن ترابها لا تخفى على احد. ان اعطاء مشاريع كهذه لشركة ايطالية ستخلق لنا مشاكل جمة في المستقبل وبالتالي تسبب اضرارا اقتصادية للتجار واصحاب رؤس الأموال من المواطنين.

لذلك نقترح باسم المصلحة العامة ان تتم هذه المشاريع بواسطة رؤس اموال وطنية واذا تطلب الحال إلى الرجوع لرأس مال اجنبي فلا يكون ذلك من بنك روما الذي يقدم قروضا لفقراء الفلاحين بشروط دنيئة خبيثة لكي يستولي على مزارعهم ولا من البنوك الايطالية الاخرى التي تنتهج نفس الغرض في التوسع في بلادنا ولا من الدول العظمى التي لها اتجاه استعماري بل من رؤوس أموال الدول الصغرى.

نقدم اقتراحاتنا هذه باسم المصلحة الوطنية ونؤكد استعدادنا لتقديم كل التضحيات المالية والبدنية في سبيل نهضة بلادنا ورقيها.

ان مما لا شك فيه نظرا للتشكل الطبيعي للطبقات الارضية في ولايتنا وجود الكثير من المعادن التي سوف ينقب عنها فنيا وتحدد مقاديرها واذ ذاك يمكننا طلب قروض مقابل هذه الثروة الطبيعية لتنفيذ مشاريع الولاية ونرجوا بالحاح ان

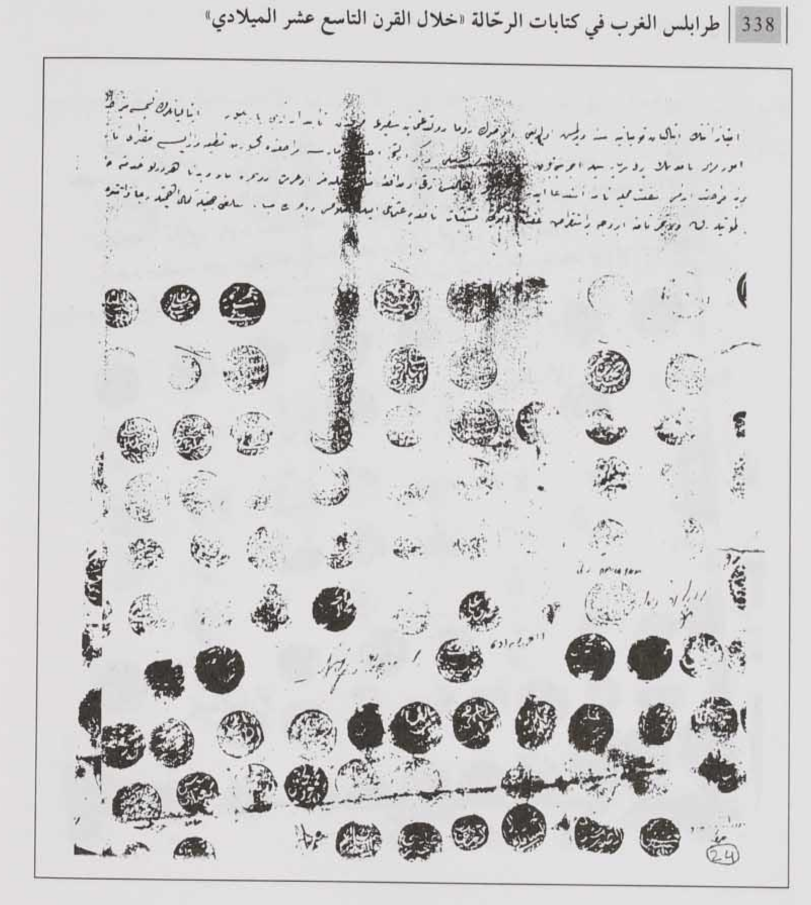
يشرع في تنفيذها بأيدٍ عثمانية صرفة نظراً لاهميتها الاقتصادية وتعلقها بمصير بلادنا.

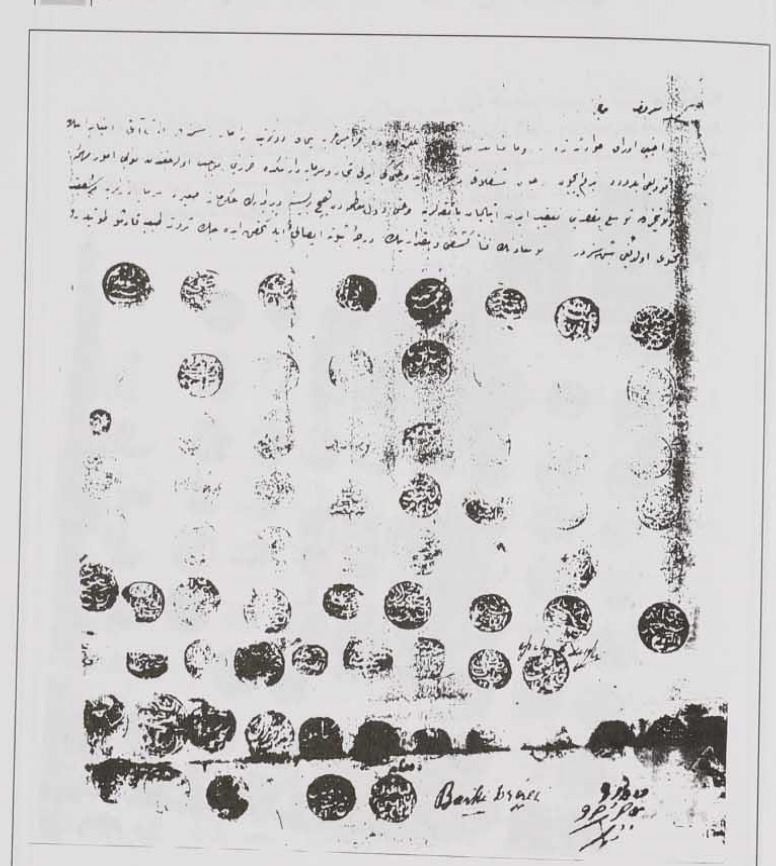
27 كانون الأول 1326 (من تقويم السنة المالية)

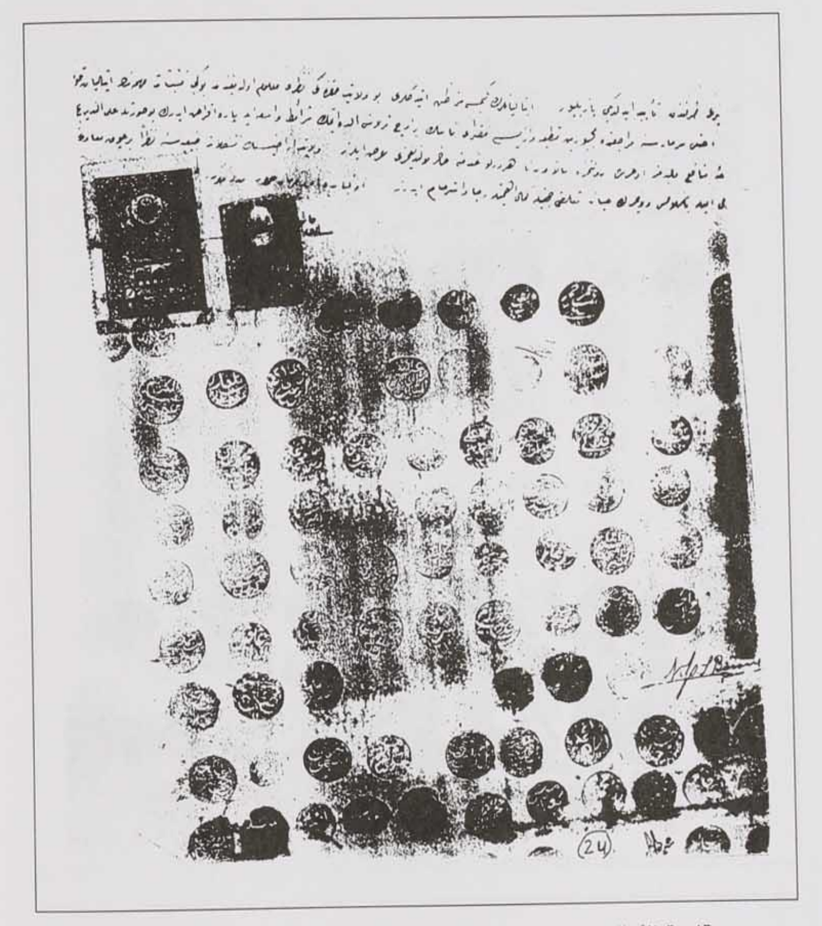
ديسمبر 1910م

توقيعات (أختام) عشرات المواطنين

المترجم/ محمد الأسطى







مقاومة الأهالي للتغلغل السلمي الإيطالي حيث عارضوا ما تقوم به إيطاليا من مشاريع كمد خط سكة حديد وتوسيع الميناء، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وثيقة رقم 12، ملف رقم 33، ملف وثائق التمهيد للغزو.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً/ المصادر غير المنشورة:

ـ الوثائق:

1 ـ وثائق دار المحفوظات التاريخية:

- ملف القناصل.
- ملف الشؤون الداخلية.
- ملف النواحي الإدارية.
- ملف التجارة والتجار.

2 ـ وثائق مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية:

- ملف الفقيه حسن ـ الحرب الأهلية.
- ملف الفقيه حسن ـ العهد العثماني.
- ملف محمد بيت المال ـ المجموعة الأولى والثانية.
- ملف الأسرة القره مانلية.

ثانياً/ المصادر المنشورة:

أ ـ المصادر العربية والمعربة :

- ابن غلبون، **التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار**، تحقيق الطاهر الزاوي، طرابلس، 1931م.
- تولي، ريتشارد، **عشر سنوات في بلاط طرابلس**، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة ليبيا، طرابلس: مكتبة الفرجاني.
- تشايجي، عبد الرحمن، **الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى**، ترجمة علي إعزازي، مراجعة محمد الأسطى، تقديم محمد الطاهر الجراري، ط2، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1993م.
- التجاني، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، تونس: المطبعة الرسمية، 1958م.

- التونسي، محمد بن عمر، **رحلة إلى وداي**، تحقيق عبد الباقي محمد، الخرطوم: دار منكوب، 2002ف.
- جامي، عبد القادر، **من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى**، ترجمة محمد الأسطى، طرابلس: دار المصراتي، 1974م.
- الحشائشي، محمد بن عثمان، **جلاء الكرب عن طرابلس الغرب**، تقديم وتحقيق علي مصطفى المصراتي، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر 1965م.
- الحشائشي، محمد بن عثمان، **الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق**، قدم لها وعلق عليها وراجع ترجمتها إلى العربية محمد المرزوقي، تونس: الدار التونسية للنشر، 1988م.
- **دائرة المعارف الإسلامية**، المجلد السادس، والسابع، والثامن.
- ريتشاردسون، جيمس، **ترحال في الصحراء**، ترجمة الهادي أبو لقمة، بنغازي، جامعة قاريونس، 1993م.
- الزاوي، الطاهر، **معجم البلدان الليبية**، ليبيا ـ طرابلس، 1968م.
- غانم، عماد الدين (محرر) **الصحراء الكبرى**، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1979م.
- غانم عماد الدين (محرر ومترجم) **تقارير غوتلوب أدولف كراوزة الصحفية حول الغزو الإيطالي لليبيا**، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1993م.
- غانم عماد الدين (محرر ومترجم)، **أرفين فون باري (1846 ـ 1877) ورحلته إلى غات وبلاد الأير**، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1995م.
- غانم عماد الدين (محرر ومترجم)، **رحلة عبر أفريقيا**، مشاهدات الرحّالة الألماني رولفس في ليبيا وبرنو وخليج غينيا، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1996م.
- غانم عماد الدين (محرر ومترجم)، إفالد بانزه، **طرابلس مطلع القرن العشرين**، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1998م.
- غانم عماد الدين (محرر ومترجم)، **رحلة إلى الكفرة**، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط1، 2000م.
- غانم عماد الدين (محرر ومترجم)، **رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية**، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط1، 2002م.
- غانم عماد الدين (محرر ومترجم)، سلفاتور لودفيغ، **السواحل الليبية التونسية في الرحلة البحرية للأمير النمساوي سلفاتور لودفيغ**، 1873م، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2005م.

- غانم عماد الدين (محرر ومترجم)، فون مالتسان، **رحلة في أيالتي تونس وطرابلس**، مخطوط.
- الفقيه حسن، حسن، **اليوميات الليبية**، الجزء الأول، تحقيق محمد الأسطى، عمار جحيدر، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1984م.
- فيرو، شارل، **الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي**، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، جامعة قاريونس، ط4، 1998م.
- لايون، **مدخل إلى الصحراء**، ترجمة الهادي أبو لقمة.
- ليون، جون فرنسيس، **من طرابلس إلى فزان 1818 ـ 1820م**، ترجمة مصطفى جودة، طرابلس، (تونس: الدار العربية للكتاب، 1976م).
- المصراتي، علي مصطفى، غومة، فارس الصحراء، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1960م.
- الأنصاري، أحمد النائب، **المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب**، طرابلس، مكتبة الفرجاني، د.ت.
- ناختيجال، جوستاف، **الصحراء وبلاد السودان**، طرابلس وفزان وتبستي وتبو، المجلد الأول، ترجمة عبد القادر المحيشي، مخطوط.

ب ـ المصادر الأجنبية

1 - Barth, Heinrich Reisen und Entdeckungen in Nord und Central a Afrika. Vol. 1.

2 - Beurmann Karl Moritz von, Voyages et Explorations 1860-1863St. Illide 1973.

3 - Eduard Vogel's Reise nach Centralafrika Marz. 1853-Jan. 1854 Petermann's geographische Mitteilungen 2 (1855).

4 - Gustav Nactigal, Sahara und Sudan, Berlin, I

5 - Wagner Hermann (Ed.). Schilderung der Reisen und Entdeckungen des Dr. Eduard Vogel in Central - Africa Leipzig. 1869.

6 - Clapperton, Denham. Oudney Narrative of Travels and Discover. Ies in northern and Central Africa, London, 1886.

2 ـ المراجع

أولاً/ المراجع العربية والمعربة:

- إبراهيم، عبد الله علي، **مجلس الإدارة في ليبيا في العهد العثماني الثاني**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1980م.

- إبراهيم، عبد الله علي، **التطورات السياسية في ليبيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 2000.
- الأحول، خليفة محمد، **الجالية اليهودية بولاية طرابلس الغرب 1864 ـ 1911م**، رسالة ماجستير، جامعة الفاتح، كلية التربية، 1985م، غير منشورة.
- أندرسون، ليزا، **آراء غربية في إصلاح عثماني**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1985م.
- إسماعيل، عمر، **سقوط الدولة القره مانلية في ليبيا 1795 ـ 1835م**، القاهرة، كلية الآداب، جامعة عين شمس.
- إسماعيل، عمر، **التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا 1835 ـ 1882م**، القاهرة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1966م.
- البربار، عقيل محمد، **مصرف روما ودور السلطات العثمانية في الوقوف ضد التسلسل الاقتصادي الإيطالي إلى ليبيا 1907 ـ 1911م**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1982.
- بتشي الأخوان، **الساحل الليبي 1821 ـ 1822م**، ترجمة الهادي أبولقمة.
- بروشين، **تاريخ ليبيا في العصر الحديث منتصف القرن السادس عشر مطلع القرن العشرين**، ترجمة وتقديم عماد حاتم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1999 لبنان، بيروت: دار المحيط العربي.
- بعيو، مصطفى عبد الله، **المجمل في تاريخ لوبيا من أقدم العصور إلى العصر الحاضر**، الإسكندرية: دار المعارف، 1947م.
- بعيو، مصطفى عبد الله، **دراسات في التاريخ اللوبي**، الأسس التاريخية لمستقبل لوبيا، الإسكندرية: مطابع عابدين، 1953م.
- بعيو، مصطفى عبد الله، **بعض ملامح تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر**، ليبيا في التاريخ، المؤتمر التاريخي، 1968م، بنغازي، الجامعة الليبية، كلية الآداب.
- بوشويرب، عبد الكريم، **مجلة طرابلس القديمة**، 30 إبرايل 1988م.
- بوعزيز، يحيى، **اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1981م.
- بوعزيز، يحيى، **طرق القوافل والأسواق التجارية في الصحراء الكبرى**، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، بغداد: معهد البحوث والدراسات العربية، 1404هـ/ 1984م.
- بوفيل، **تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير**، ترجمة الهادي أبو لقمة، محمد عزيز، بنغازي: جامعة قاريونس، 1988م.

- ابن موسى، تيسير، **المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني**، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1988م.
- بيازا، كالوجير، **إحصاءات عن تجارة بنغازي**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1999م.
- بونو، سلفاتور، **تجارة طرابلس عبر الصحراء في العقد الأول من القرن العشرين**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1981م.
- أبو عجيلة، محمد الهادي، **التنافس الإنجليزي الفرنسي حول ليبيا في عهد يوسف باشا القره مانلي**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1993م.
- تستا، أ.، عرض إحصائي عن ولاية طرابلس الغرب (ليبيا)، ترجمة حامد علي أوحيدة، الشهيد، طرابلس ـ 9 ـ 1988م.
- التقرير السنوي لسنة 1891م الصادر عن القنصلية الإمبراطورية النمساوية المجرية في طرابلس.
- الثني، نور الدين مصطفى، **عين الفرس بغدامس مَعْلَم حضاري مميز**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1996م.
- الثني، نور الدين مصطفى، **لمحات عن تاريخ العلاقات التجارية بين طرابلس وغدامس البحوث التاريخية**، طرابلس ـ 2 ـ 1999م.
- التليسي، خليفة، **حكاية مدينة طرابلس لدى الرحّالة العرب والأجانب**، طرابلس: الدار العربية للكتاب، ط3، 1997م.
- جحيدر، عمار، **أبعاد نظرية لتاريخ ليبيا الاجتماعي في العصر الحديث**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1984م.
- جحيدر، عمار، **من تاريخ طرابلس الاجتماعي في القرن التاسع عشر**، عرس الختان، طرابلس: القديمة، العدد 13، 1987م.
- الجراري، محمد طاهر، افتتاحية العدد، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1981م.
- الجراري، محمد طاهر، **التعليم في ليبيا قبل وبعد سنة 1911م**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 2001م.
- جريج. أ. ج شيل، **تاريخ التعليم في إقليم طرابلس منذ الاحتلال العثماني حتى السنة الخامسة للإدارة العسكرية البريطانية للإقليم**، ترجمة أحمد العاقل، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2005م.
- جريدة طرابلس الغرب، العدد 1337، السنة 40، سبتمبر 1910م.

- جولا، شان لامين، **مخطوط خواطر وآراء حول الزراعة**، ترجمة وتقديم عبد الكريم أبو شويرب، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1981م.
- الحريري، عبد المولى صالح، **نظرة تحليلية لأبعاد سياسة يوسف باشا القره مانلي الاقتصادية على العلاقات الاجتماعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر**، المجلة التاريخية المغربية، تونس: السنة الثانية عشر، العدد 37 ـ 38، جوان 1985م.
- حسين، أحمد إلياس، **سلع التجارة الصحراوية** (عماد الدين غانم ـ محرر ومترجم) الصحراء الكبرى، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1979م.
- الحسناوي، حبيب وداعة، **ظروف وأبعاد امتداد الإدارة العثمانية الجديدة لغدامس سنة 1842م** كما ترويها رسالة غدامسية، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1980م.
- الحضيري، محمد المدني، **الطريق من طرابلس إلى فزان**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1979م.
- حامد، سعيد علي، **من تحصينات مدينة طرابلس برج بوليلة**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 2003م.
- الحنديري، سعيد، **المحاولات الفرنسية لتحويل وجهة القوافل العائدة من السودان إلى الجزائر**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1996م.
- الخباط، خليفة محمد، **العلاقة السياسية بين أيالة طرابلس الغرب وانجلترا 1795 ـ 1832م**، طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع، 1985م.
- الدجاني، أحمد صدقي، **ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي أو طرابلس الغرب في أواخر العهد العثماني الثاني 1882 ـ 1911م**، ط1، القاهرة، 1971م.
- الدجاني، أحمد صدقي، **وثائق تاريخ ليبيا الحديث، الوثائق العثمانية 1881م ـ 1911م**، ترجمة عبد السلام أدهم، بيروت: دار صادر 1974م.
- الدجاني، أحمد صدقي، **أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، طرابلس: دار المصراتي، د.ت.
- الدناصوري، جمال الدين، **جغرافية فزان**، بنغازي: دار ليبيا للنشر والتوزيع، 1967م.
- روسي، أتوري، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1910م**، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، ط2، طرابلس: الدار العربية للكتاب، 1991م.
- الزاوي، الطاهر أحمد، **أعلام ليبيا**، طرابلس: مكتبة الفرجاني، 1961م.
- الزاوي، الطاهر أحمد، **تاريخ الفتح العربي في ليبيا**، القاهرة: دار المعارف.

- زنبير، محمد، **تجارة القوافل في المغرب «تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر»**، بغداد: معهد البحوث والدراسات العربية، 1984م.
- زيادي، نقولا، **الحشائشي ورحلته إلى ليبيا**، العربي، العدد 168، نوفمبر 1972م.
- الساقزلي، عبد الطيف، **ليبيا الثورة**، القاهرة: جامعة القاهرة، 1389.
- السوري، صلاح الدين، **تحديث المؤسسات التعليمية والقضائية والدينية في ولاية طرابلس الغرب**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1983م.
- السوري، صلاح الدين، **الضرائب العثمانية في ولاية طرابلس الغرب وفي متصرفية بنغازي في العهد العثماني الثاني، مشاكل الضغط والتوتر**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1984م.
- سويسي، محمد بشير، **أوضاع التعليم في ليبيا (1835 ـ 1950)**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1999م.
- الشريف، خديجة باعلي، **طريقة تقويم تجارة القوافل الغدامسية للسلع والبضائع**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1988م.
- الشركسي، محمد مصطفى، **تقرير قنصل إيطاليا لعام 1901م**، محفوظات السرايا الحمراء، طرابلس.
- الشركسي، محمد مصطفى، **لمحات عن الأوضاع الاقتصادية في ليبيا أثناء العهد الإيطالي**، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1976م.
- الشركسي، محمد مصطفى، **بعض ملامح تجارة طرابلس الغرب مع الخارج خلال العهد العثماني الثاني**، الشهيد، طرابلس ـ 11 ـ 1990م.
- الشيخ، رأفت غنيمي، **تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة**، ط1، 1972م، دار التنمية للنشر والتوزيع.
- الطوير، محمد امحمد، **الانتفاضات الوطنية ضد الحكومة العثمانية**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1985م.
- الطوير، محمد امحمد، **انتفاضة واحة أم الأرانب سنة 1844م ضد العثمانيين**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1991م.
- الطوير، محمد امحمد، **ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني في ليبيا (1831 ـ 1842)**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1998م.
- الطوير، محمد امحمد، **مقاومة الشيخ غومة المحمودي للحكم العثماني في أيالة طرابلس الغرب (1835 ـ 1858)**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1998م.

- الطويل، امحمد سعيد، **البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القره مانلي (1795م ـ 1832م)**، دار الكتاب الجديدة المتحدة، طرابلس، ط ـ 1 ـ، 2000م.
- عبد اللطيف، علي، **المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، مركز دراسات الوحدة العربية**، 1995م.
- العفيف، المختار عثمان، **نماذج من الصلات التجارية بين سوكنة وطرابلس خلال العهد العثماني الثاني (1835 ـ 1911م)**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1999م.
- غانم، عماد الدين، **الرحّالة الألماني رولفس وليبيا، البحوث التاريخية**، طرابلس ـ 1 ـ 1979م.
- غانم، عماد الدين، **الوثائق الألمانية وأهميتها في دراسة تاريخ ليبيا الحديث**، الشهيد، طرابلس ـ 4 ـ 1983م.
- غانم، عماد الدين، **المجتمع الليبي لدى الرحّالة الأجانب**، ندوة المجتمع الليبي (1835 ـ 1950) تقديم وإعداد محمد الطاهر الجراري، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2005م.
- غانم، عماد الدين، **بداية التغلغل الأوروبي في الدواخل الأفريقية**، صحيفة الشمس، عدد 1976م، 30 مايو 1999م.
- فولايان، كولا، **ليبيا أثناء حكم يوسف باشا، ت. عبد القادر المحيشي**، مراجعة صلاح الدين حسن السوري، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط ـ 1 ـ 1988.
- كاجيجي، نادية، **تقرير عن أحوال الزراعة والبستنة والموارد الطبيعية الأخرى لولاية طرابلس بشمال أفريقيا**، الشهيد، طرابلس ـ 7 ـ 8 ـ 1988م.
- كورو، فرانشيسكو، **ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني**، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي طرابلس: دار الفرجاني، 1971م.
- الكوني، محمد، **التعليم في مدينة طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني (1835 ـ 1911م) وأثره على مجتمع الولاية**، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2000م.
- كاكيا، أنتوني جوزيف، **ليبيا خلال العهد العثماني الثاني 1835 ـ 1911م**، ط1، طرابلس: دار الفرجاني، 1975م.
- موري، اتيلو، **الرحّالة والكشف الجغرافي في ليبيا، منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى الاحتلال الإيطالي**، تعريب خليفة محمد التليسي، طرابلس: دار الفرجاني، 1971م.
- موسوعة للآثار الإسلامية في ليبيا، إعداد مجموعة من الباحثين، ج1، طرابلس: مصلحة الآثار، 1980م.

- منسي، محمود حسن صالح، **الحملة الإيطالية على ليبيا دراسة وثائقية في استراتيجية الاستعمار والعلاقات الدولية**، ط1، القاهرة، 1980م.
- المهدي، محمد المبروك، **جغرافية ليبيا البشرية**، بنغازي: مطابع الثورة للطباعة والنشر، د.ت.
- ميكاكي، رودلفو، **طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القره مانلي**، ترجمة طه فوزي، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، 1961م.
- موني، ريموند، **طرق التجارة عبر الصحراء بين ليبيا ومناطق السافانا في النيجر وتشاد قبل الفتح العربي**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 1 ـ 1981م.
- ناجي، محمود، **تاريخ طرابلس الغرب**، ترجمة عبد السلام أدهم، محمد الاسطى، بنغازي: الجامعة الليبية، كلية الآداب، 1970م.
- نوفل، خالد، **لمحة عن الأسواق بطرابلس**، طرابلس: القديمة، العدد الرابع، الفصل السابع ـ 11 ـ 5 ـ 1987م.
- الهدار، خالد محمد، **زيارة الرحّالة الإسباني علي بك العباسي لطرابلس في أوائل القرن التاسع عشر**، تراث الشعب، العدد 1، 2، 2003م.
- هورنمان، فريدريك، **رحلتان عبر ليبيا 1797 ـ 1798م**، طرابلس: مكتبة الفرجاني، ط1، 1974م.
- يوشع، بشير قاسم، **الغدامسيون في رحلة الحشائشي**، البحوث التاريخية، طرابلس ـ 2 ـ 1983م.

ثانياً/ المراجع الأجنبية:

1 - Al-Barbar, Agil M. Economics of Calonialism: The Italian Invasion of Libya and The Libyan Resistance 1911-1920; A Socio - Economic Analysis (Tripoli: Markaz Jihad Al-Libyin - Studies Center, 1992).

2 - Boahen A. A. Britain, The Sahara and The Western Sudan 1788-1861. Oxford: Clarendon Press, 1964.

3 - Bovill, E. E., Carvans of The old Sahara, London, 1933.

4 - Brenner, Louis.The Shehus of Kukawa: A History of the Al-Kanemi Dynasty of Bornu, Oxford: Clarendon Press. 1973.

5 - Dyer Mark F. The Foreign Trade of Western Libya. Boston: University Graduate School 1987. Unpublished Diss.

6 - Encyclopaede of Islam. New Edition, Vol. 2.

7 - Globus., 13 (1878).
8 - Grothe, L Hugo. Tripolitanien und der Kawanen Handel nach dem Sudan, Leipzig4 (1898).
9 - Hesnawi, Habib Wada. El-Fazzan Under The Rule of the Awlad Muhammad. Sebha, 1990.
10 - Ibrahim, A. Abdallah, Government and Society in Tripolitania and Cyrenaica (Libya) 1835-1911. The Ottoman Impact (Tripoli): Markaz Jihad Al-Libyin - Studies Center, (1989).
11 - Jahnson Marion, « Calico Caravans: The Tripoli Kano Trade Afrer 1880 », Journal of African History, Vol. XVII, 1 (1976).
12 - Leyk, Ivan «Die Nordafrikanischen Handles - und Karawanenstrassen» Export7 (1885).
13 - Mathuisieulx. H. M. De. A Travers La Tripolitanie. Paris 1913.
14 - Miege, J. L. « La Libye et le Commerce Transsaharien aux XIX Siecle » R. O. M. (1. Sem. 1975).
15 - Newburry, C. W.: « North African and Western Sudan Trade in the Nineteenth Century: a Reevalution », J. Afr. Hist. VII, 1866.
16 - Robinson C. A. Haus Land, London, 1896.
17 - Schantz, Moritz, Algerien, Tunesien und Tripolitanien Halle.1905.
18 - Smaldone, Joseph, « Firearms Trade in he Central Sudan in the Nineteenth Century » in : Aspects of West African Islam, ed Daniel F. Mc. Call and Norman Bennett, Boston: University African Studies Center, 1971.
19 - Staudiner, P., Im Herzen der Hausalander, Berlin, 1891.
20 - Thomson, J. « Niger and Central Sudan Sketches », Scottish Geographical Magazine (1886).
21 - Toledano. E. R. :The Ottoman Slave Trade and its Suppression 1840-1890. Princeton 1982.
22 - Zimmerer H. «Tripolitanien und der Karavanenhandel » Beilagezur Allgemeinen Zeitung. Nr. 219 (28.9.1898).
23 - G. A. Krause, Aufz ei Ghnunqen Ueberdie stadt Ghatin der sahara. Zeitschrift der gescllscha ftfuer erd und Berlin. 17. 1881.

الفهارس العامة

1 ـ فهرس الأعلام

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

بعون الله وحسن توفيقه، تم فهرس الأعلام. والحمد لله رب العالمين.

2 ـ فهرس الأماكن والبلدان

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

بعون الله وحسن توفيقه،
تم فهرس الأماكن والبلدان
والحمد لله رب العالمين.

3 ـ فهرس القبائل والجماعات

بعون الله وحسن توفيقه،
تم فهرس القبائل والجماعات.
والحمد لله رب العالمين.



المؤلف:

مواليد طرابلس، سنة 1958 م

المؤهلات الأكاديمية والشهادات

1. ليسانس في الآداب والتربية، كلية التربية ـ جامعة الفاتح ـ طرابلس، 1985.
2. دبلوم الدراسات العليا في التربية، كلية التربية ـ جامعة الفاتح ـ طرابلس، 1991م.
3. درجة الماجستير في الآداب، كلية الآداب ـ جامعة الفاتح ـ طرابلس، 1997م.
4. درجة الدكتوراه الفلسفة في الدراسات التاريخية، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، 2007م.

المنشورات:

أولاً / الكتب:

1. تحرير موسوعة روايات الجهاد، رقم 31 ـ 32، 1992، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.
2. تحرير مجموعة الوثائق الإيطالية، رقم 29، 1998، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.
3. مدينة مرزق ودورها في تجارة القوافل الصحراوية، خلال القرن التاسع عشر الميلادي ـ دراسة في التاريخ السياسي والاقتصادي، 1998، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية.

ثانياً: المقالات:

1 ـ دراسة تحليلية حول وقائع حركة الجهاد الليبي في بعض وسائل الإعلام المقاوم للاحتلال، مجلة جامعة ناصر الأممية، ع 3، 2009، جامعة ناصر الأممية.

2 ـ عرض رسالة الماجستير، مجلة الوثائق والمخطوطات، طرابلس، ع 8، 9، لسنة 1992 ـ 1993م، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.

3 ـ وصف مدينة مرزق ومخططها من خلال كتابات بعض الرحالين الأوروبيين في القرن التاسع عشر الميلادي، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد عشرين، العدد الأول، 2009، الهيئة الوطنية للبحث العلمي.

4 ـ علاقات العرب بالسودان الغربي حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي، مجلة كلية الآداب، ع 8، (2008)، جامعة الفاتح، طرابلس.

5 ـ عرض أطروحة الدكتوراه، طرابلس الغرب في كتابات الرحالة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، ع 2، 2008، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية.

6 ـ بحوث في معجم معارك الجهاد العربي الليبي، عدد 15 بحثاً (تحت الطبع).

ثالثاً: اللجان العلمية:

1 ـ عضو في لجنة إعداد معجم معارك الجهاد الليبي.

2 ـ عضو في لجنة إعادة كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لليبيا.

3 ـ عضو في الجمعية التاريخية العربية الليبية.

ISBN 978-9959-23-187-1